الفصل الأول:

الهدوء يسود المكان، والأبصار خاشعة تنتظر مصيرها، وكأنه يوم الحساب، والصمت الرهيب يهب مثل الريح في أجواء القاعة، والحاضرون متصلبون بلا حراك في أماكنهم كأنهم أموات أو كأنما حطت على رؤوسهم الطير؛ وأحيانا يبدد صمت المكان الذي يشبه المقابر سعال خجول، فيذكر النفوس أنهم أحياء يستطيعون التنفس والتفكير والحركة وباقي الأشياء التي يستطيع فعلها الأحياء الآخرون فيعيدون تصفح الأوراق للمرة الخامسة أو السادسة بعد المائة، بل إن أحدهم تبلغ به الجرأة لحد مخاطبة زميله ـبهمس طبعاـ: هل شهادة ثبوت الشخصية مطلوبة أيضا؟ فيرد عليه زميله المسكين بصوت مخنوق وقد ألجمه العرق: لا أدري. ثم تنفذ كمية الأدرينالين القليلة التي بثها ذلك السعال المكتوم في دماء المترشحين فيعود الهدوء إلى السيطرة على المكان ويطوع كل صوت متمرد فيخيم ظل المقابر من جديد على القاعة الفسيحة المكتظة عن آخرها.

وإذا حصل رجل لبيب على معلومة بسيطة تفيد أن هذا المكان يقع في الجزائر وأن الجزائر بلد عربي فسيخمن بسهولة أن هذا المكان هو ثكنة عسكرية، وهذا الرجل اللبيب محق إلى حد ما، لأن المكان هو مكتب تجنيد الضباط في المدرسة العسكرية متعددة التقنيات، وهو عبارة عن قاعة فسيحة الأرجاء، غالب السنة تكون ناديا للطلبة الضباط ولكن في أوقات التجنيد(منتصف صيف كل سنة) تحول إلى مكتب للتجنيد حيث تودع الملفات وتوزع الإستدعاءات للمشاركة في مسابقة الدخول إلى المدرسة.

تتوزع في أرجاء هذه القاعة طاولات من خشب الصنوبر العتيق الذي أثرت فيه الرطوبة مما أتاح ملهاة لا بأس بها لأظفار المترشحين الضجرين التي تعيث فيها نبشا وتقشيرا كلما سنحت الفرصة، وحول كل طاولة تجمع ستة مترشحين ينتظرون دورهم –بل ينتظرون مصيرهم- إما أن يرفضوا ويكملوا الدراسة في الجامعة ليكابدوا عناء الإنتظار في الطوابير الطويلة أثناء الغداء والعشاء والزحام اليومي من أجل الحصول على مكان في الباص الجامعية لعدة سنوات وبعد التخرج يؤدون الخدمة العسكرية ويعودون إلى بيوتهم وقد بلغوا من العمر ستة وعشرين ليقضوا ما تبقى من عمرهم في المقاهي التي تقع قرب الثانويات. وإما أن يقبلوا ويصبحوا طلبة ضباطا يحصلون على منحة لا بأس بها تغطي مصاريف بدلة فصلية وعلب السجائر والقهوة ريثما يصبحوا ضباطا بأجر معتبر يمكنهم من رعاية ذويهم. وبرتبة محترمة تجعل الكثيرين يبدون لهم الإحترام وتجعل بنات الجيران عند عودتهم إلى البيت يكثرن على غير العادة من تنظيف عتبات بيوتهن والخروج لسقي حدائقهن مرتديات أجمل الملابس التي يجدنها في الخزانة؛ وفجأة قطع الأحلام الوردية صوت هادر ، تأكد المترشحون بسهولة أنه ليس صوت بنات الجيران الرقيقات. لأنه ببساطة كان صوت الرقيب المكلف بدراسة الملفات. القابع خلف طاولة طويلة هي أشبه بطاولة البقال منها بمكتب الموظف . وهو يرتدي بدلة عسكرية عتيقة لكنها نظيفة، ويبدو ذقنه المحمر من الحلاقة كل يوم كأنه قد تآكل، وهو يضع قبعة عسكرية سيعرف الناظر الذكي بسرعة أنها ليست مع البدلة لأن السنين لم تخلقها كما فعلت بالبدلة. وبجانب الرقيب عريفان واحد عن يمينه والآخر عن يساره ومرة تلو الأخرى يأخذ أحدهما أوراقا أغلب الظن أنه يأخذها إلى مكتب الرائد، ولكن الكثير من المترشحين لاحظوا أن العريف عندما يعود من ذلك المكتب الذي خمنوا أنه مكتب الرائد يعود وعلى جبينه قطرات من العرق لم تكن على جبينه قبل دخوله إلى ذلك المكتب، مما جعل العديد منهم -والطيبون على الخصوص- يرجعون ذلك إلى حرارة الجو في مكتب الرائد فاستغربوا من عدم وجود مكيف هواء في مكتبه فهمس العديد منهم بينه وبين نفسه: أولاد السافلات، لقد غرروا بنا، يقولون أن الجيش يعتني بالضباط وهذا الرائد المسكين يكابد في مكتبه حر أغسطس.

همسوا بهذا مع التأكد الشديد من أن شفاههم لا تتحرك، لأنهم يعلمون أحيانا أن الإنسان يظن نفسه يهمس فيقول كلاما خطيرا بينه وبين نفسه لكنه يستيقظ ذات صباح ويتفقد رأسه فلا يجده فوق كتفيه بل يجده بعيدا عنهما بمسافة أطول بكثير من طول عنقه، لذلك على الإنسان الحكيم عندما يحدث نفسه خاصة إذا كان في مكان حساس، عليه أن يتأكد من أن شفتيه لا تتحركان، لكن المتفائلين من المترشحين واسوا أنفسهم بأنه مستقبلا سيعتني الجيش أكثر بالضباط خاصة بعد الرخاء المالي الذي هب على البلاد بسبب ارتفاع أسعار البترول الذي ساهمت فيه الحكومة الرشيدة، لكن فكرة موحشة تسربت إلى عقول المترشحين زادتهم رعبا إلى رعبهم واستطاع بعض الشجعان أن يقرأ في دماغه هذه الفكرة التي تقول: لكن كيف تستطيع الحكومة أن تساهم في رفع أسعار البترول وبعض الأوغاد يقول أنه يحدد في بورصات أمريكية وأروبية، هنا انقطع تيار التفكير آليا وأفاق المترشحون وهم ينظرون إلى بعضهم برعب شديد كاللص الغر حين يمسك متلبسا. وأوقفوا جلسة التخاطر الذهني ونظر كل منهم في أوراقه وهدر الصوت الفظيع مرة أخرى مجهزا على ما تبقى من شجاعة المترشحين زاده قوة ذلك الصمت الرهيب الذي يخيم على القاعة فكادت تنخلع قلوبهم:-وائل قهوجي ... وائل قهوجي...

نادى الرقيب مرتين ثم نادى الثالثة: -وائل قهوجي...

لكن أحدا لم يجب، عندها أمسك المترشحون قلوبهم ورددوا على لسان رجل واحد: ياللشقي المسكين ماذا فعل هذا المغدور في حياته حتى يحصل له هذا،

أعاد الرقيب: -وائل قهوجي... لكن أحدا لم يجب؛ هنا، رفع البعض أيديهم بقراءة الفاتحة على روح الشقي المسكين، أما بعض الطيبين الآخرين ففضلوا عدم حضور هذا الشقي حتى ينجو وهمسوا لأنفسهم بعصبية: لتذهب شارة الضابط إلى الجحيم إن كانت تأخذ معها الأرواح؛ وأردفوا: الأفضل لهذا الشقي أن يكون طالبا جامعيا فقيرا يحمل رأسه فوق كتفيه على أن يكون ضابطا بدون رأس. ثم قالوا مخلصين النصح: وماذا ينقص الجامعة؟ والله لو اجتهد هذا الشقي المسكين في الدراسة وتجنب مطاردة الفتيات ودرس بجد لربما تفوق في دفعته وحصل على منحة للدراسة في الخارج ليستقر هناك ويعيش عيشة راضية يحلم بها أعلى الضباط رتبة.

وعاد صوت الرقيب هادرا واللعاب يتطاير من فمه حتى خيّل لبعض المترشحين المساكين أنه تنين ينفث نارا: وائل قهوجي، ليخبرني أحدكم أين ذهبت هذه ال....

هنا، أدرك المشفقون أن الشقي إن كان موجودا فقد هلك وسقط في هوة من دون قاع. ولم يشأ أحد أن يكون مكانه ولو بأموال الدنيا.

لكنهم طمأنوا بعضهم -بالنظرات طبعا- إلى أنه غير موجود، لأنه لو كان موجودا لسمع صوت الرقيب واستبعدوا فرضية النوم أيضا لأن النوم وسماع صوت الرقيب هما أمران يستحيل علينا نحن البشر – بقدراتنا المحدودة- أن نقوم بهما في نفس الوقت؛ لكن شكا سريعا تسرب إلى نفوسهم: هل يكون في غيبوبة إثر ضربة شمس مثلا؟ فحرارة أغسطس في أوجها، لكنهم بددوا هذا الشك بقولهم: أبدا لا يمكن أن يكون في غيبوبة لأننا دخلنا صباحا قبل أن تشتد الظهيرة. وأخيرا استطاع المترشحون –رغم تلك الظروف التي لم تكن مساعدة أبدا على التفكير- أن يقلصوا الاحتمالات إلى اثنين. إما أنه غائب أو ميت، لأن الميت إذا دعاه الرقيب لا يجيب، (على الأقل في ديارنا أما هنا في العاصمة وبالضبط في ثكنة فلا ندري)

همسوا لأنفسهم، ثم تنفسوا الصعداء وقالوا: رحمه الله، لقد مات وارتاح، يكره بعض الجهال الموت ولم يعلموا أنه لبعض الناس راحة.

(وائل قهوجي) عاد صوت الرقيب هادرا مثل الرعد فاهتز له زجاج النوافذ أو هكذا خيل للمترشحين الذين انخلعت قلوبهم وتبخرت قطرة الصبر الأخيرة من دمائهم ولم يعودوا يستطيعون الاحتمال أكثر فتوجهوا بالضراعة إلى الله أن يستسلم الرقيب ويتوقف عن النداء، لكن في هذه اللحظات حدث ما لم يكن في الحسبان.....

قطع رتابة الصمت الرهيب وقع خطى ثابتة خمن بعض المترشحين –ممن لا يزال قادرا على التخمين- أنها قادمة من الخارج. وصدق تخمينهم، فقد بدأ وقع الخطى يقترب شيئا فشيئا فوجه الشجعان من المترشحين أنظارهم إلى القادم –برفق طبعا فلا أحد عاقل يريد لفت انتباه الرقيب إليه- وارتسمت صورة صاحب الخطوات على شبكية الناظرين.

شاب في السابعة عشر أو الثامنة عشر، لم يعرف الناظرون ذلك من صورته، فهو يظهر أكبر من ذلك. ولكنهم ببساطة عرفوها من شروط التجنيد التي حفظوها عن ظهر قلب، حيث يجب أن يكون سن المترشح أقل من تسعة عشر عاما. لاحظ الناظرون أنه يرتدي سترة خفيفة صيفية وبنطالا أزرق من الجينز، وحذاء بنيا أغلب الظن أنه إيطالي الصنع، اختيار عام ينبئ عن ذوق رفيع. ثم ظهر وجهه كأجمل ما يكون الرجال، أنف شامخ منيع على الهوان، وعينان سوداوان ساحرتان، واسعتان إلى حد ما، لكن الحزم يشع منهما مثل البرق، وشاربان حفهما حتى بدوا أزرقين. تفرس الناظرون أنه يملك شهامة وفضيلة عظمى تمنعه من الكذب إلا على حسناء، وتنهاه عن البخل إلا بكرامته، وتدفعه دفعا إلى التمسك بكل أسباب الرفعة والعلياء. وعرفوا من حدة نظره أنه يشتمل على عزة وكبرياء لا تمكن عدوه من النيل منه إلا بعد عناء طويل، فهو غير مستعد لتقبل أية إهانة، لكنهم راودهم شك فيما بعد في كونه غير مستعد لتقبل إهانة من حسناء.

وغبطه الكثيرون على كل هذه الفضائل التي يملكها، لكنهم سارعوا وصححوا لأنفسهم: (أو كان يملكها) لأنهم عرفوا أن هذا الشاب هو وائل قهوجي الشقي. وخاب ظنهم، فهو ليس غائبا كما تمنوا، وليس ميتا أيضا –على الأقل حتى هذه اللحظة- ورغم أنه لم يقل لهم أنه هو وائل لكنهم استطاعوا تفرس ذلك، فلكل امرئ من اسمه نصيب، وكل الناس يولدون متشابهين، وكل مولود يأخذ اسما خاصا لكنه يكبر في ظل ذلك الاسم مقتبسا صفاته من حروف اسمه، لذلك فالكثيرون يرون أن الإنسان يعاني من الإستبداد من أول إطلالة له على الدنيا، حيث يحدد غيره اسما له دون أخذ رأيه.

فعندما يكبر ويناديه أحد باسمه –زميله أو حبيبته أو موظف البريد أو الرقيب...- فإنه يشعر أن هناك الكثير من الأمور لا يمكننا اختيارها بل إنه قد ييأس ويسقط ذلك على كل الأمور فيقول: كل الأمور لا يمكننا اختيارها.

إذن، قد عرف المترشحون أن هذا الفتى هو وائل قهوجي الشقي، وائل قهوجي الذي لا يرغب أحد أن يكون مكانه، وائل قهوجي الذي لن يكون في حاجة إلى المال بعد الآن، ولن تهمه أسعار الزيت والسكر بعد الآن، ولا شأن له بمعرفة أخبار انتقال اللاعبين في الأندية الأوربية لأنه لن يشاهد أداءهم قطعا هذا الموسم، بل ما دخل وائل قهوجي المسكين بعد الآن في متابعة النقاشات المعقدة حول تغير المناخ وتهديد المذنبات والحد من الرؤوس النووية ونبوءات مالتوس المتشائمة حول المجاعات، بل لا شأن له حتى بنشرة الأحوال الجوية ليوم غد، لقد ارتاح من ذلك كله، لأنه عندما تحصل هذه الأشياء سيكون بعيدا جدا، في عالم الحقيقة، فقريبا سيعرف من قتل كينيدي وكيف ماتت حبيبته مارلين مونرو ومن دبر أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما طبيعة مثلث برمودا وما شأن الصحون الطائرة، لكن أحدا بلا شك لم يغبطه على هذه المعرفة المطلقة التي سينالها بعد قليل، لأنه لا أحد يريد أن يعرف شيئا، كل ما يريدونه هو أن ينتهي هذا الكابوس اللعين، لكن الفتى المسكين أكمل طريقه بثبات نحو الرقيب ماشيا بهدوء يستفز الجبال فكيف برقيب نافد الصبر، فهمس المترشحون لأنفسهم هذا والله الثبات عند الموت الذي يسأله المصلي في الصلاة، أكيد أن هذا المغدور كان رجلا صالحا فقد تقبل الله دعاءه.

فهدر الرقيب قائلا: أين كنت وأنا منذ الصباح أنادي عليك.

فأجاب الفتى بهدوء –علق بعض المترشحين على هذا الهدوء فيما بعد أنه هدوء الشهداء-: كنت في الخارج أدخن سيجارة.

صدم الرقيب بثبات الألفاظ حين تخرج برتابة من شفتي الفتى، فنظر إلى العريفين كالطالب للمدد الذين لم يبخلا عليه حيث رسما على وجهيهما ملامح دهش واستنكار عظيمين حتى اكتفى الرقيب من ذلك، وقالا بصوت واحد: كان في الخارج؟ يدخن سيجارة؟ فاتجه الرقيب إلى الفتى ثم استنشق الكثير من الهواء وكأنه على وشك الغوص وصرخ بأعلى صوته:

كنت منشغلا بتدخين السجائر في الخارج وأنا كادت حلقي تنشق من الصراخ. استغرب الحاضرون وقالوا لأنفسهم: أإن للرقيب حلقا مثل حلوقنا؟

وأضافوا في استغراب شديد: بل إنها قابلة للإنشقاق أيضا.

لكن الرقيب لاحظ أن الفتى غير عابئ به أبدا رغم أنه زاد في الصراخ. لأن الرقيب يعلم جيدا أن الأسد لم يملك الغابة لأن له أنيابا أطول، أو مخالب أقوى أو جسما أضخم، بل لأن لديه صوتا أعلى. لذلك وجد الرقيب بعض الغرابة في صمود الفتى الذي رد برصانة العالم:
-أنت تعلم أننا في عز الصيف، والجو خانق في القاعة، لذا فضلت وزملائي أن ندخن في الخارج كي لا نؤذي زملاءنا الآخرين.وألقى وائل نظرة شفقة نحو المترشحين الذين كانوا قد نسوا لوهلة أنهم بشر من لحم ودم، يتأذون أيضا مما يتأذى منه البشر، فراح كل مترشح يردد بينه وبين نفسه:
-أجل، الجو خانق هنا ومع هذا يحاول بعض الحيوانات أن يدخنوا في الداخل. هذه حقا قلة تربية. لن نسمح لأحد أبدا أن يؤذينا. من أراد أن يدخن فليدخن في الخارج، القانون واضح.
-أوغاد قليلو التهذيب. ردد المترشحون في أنفسهم، مع أنه لا أحد يدخن في الداخل، بل لا أحد يجرؤ على التنفس في الداخل إلا بكل روية وتهذيب.
أما الرقيب فقد صفعته تلك الكلمات التي قالها وائل، بل الذي صفعه أكثر إنما هو طريقة لفظها، فهمس الرقيب في نفسه:
-اللعنة، على أي وجه مشئوم ألقيت التحية هذا الصباح؟
ثم أردف:
يا إلهي، من أين طلع علي هذا الشيطان الملعون الذي تورطت معه.
ثم واسى نفسه قائلا: -على أية حال، هو راحل لا محالة، إذ تنقصه شهادة السوابق العدلية. أكيد أنه متورط في جنحة ما، فوجهه ليس بالوجه الذي يبشر بالخير. بل إنه وان لم يكن متورطا فلن يستطيع إحضارها فاليوم هو اليوم الأخير. علي الآن أن أتخلص من هذا الشيطان في أقرب وقت وبأقل الأضرار، وإلا، فسيفسد علي الطلاب والعريفين وسيجعلني منفضة لسجائرهم.
ألقى الرقيب نظرة فاحصة على العريفين فوجدهما شاردي الذهن. فقال في نفسه:
أما العريفان فقد فسدا،لقد عرفتها، ها قد بدآ في التفكير. اللعنة، يمكنني بسهولة تخمين الأمور الرهيبة التي تجول بخاطريهما الآن. آه أيها الشيطان المريد لن أدعك تذلني. سأقاومك إلى آخر قطرة من دمي. إنه الشرف أيها الحيوان، وسأفدي شرفي بحياتي. إنه الشرف الذي لا يعرف الأنذال أمثالك عنه شيئا.
تنحنح الرقيب ليقطع على العريفين شرودهما كيلا يذهبا بعيدا في التفكير، ثم خاطب وائل بحزم الموظف الجاد:
-تنقصك شهادة السوابق العدلية، وبدونها لن تتمكن من وضع قدميك المحترمتين في الثكنة، فأين هي؟
-ليست معي سيدي، فقد استخرجتها من المحكمة منذ مدة، لكن بيتنا احترق واحترقت معه. لذا أنا آسف سيدي، ما إن يتسنى لي استخراجها فسألحقها بالملف.
تأسف وائل، لكن نبرة كلامه لم تكن تنبئ عن أي أسف، فكأنه تلا عبارة الأسف من ورقة.
لم يتمالك الرقيب نفسه من السعادة، لأنه كان يخشى أن يخرج وائل شهادة السوابق العدلية من جيبه، فالآن وقد تبين أن هذا المتمرد راحل لا محالة، رأى الرقيب أن ينتقم لنفسه بتوجيه بعض الإهانات إلى هذا المتمرد:
-ماذا؟ احترقت شهادة السوابق العدلية؟ اسمع يا بطل، إن شهادة السوابق لا تشتعل. قد يشتعل الماء، أو قد يشتعل الهواء، بل قد يشتعل الكبريت الذي تنتجه مصانعنا المجيدة. لكن شهادة السوابق لا تشتعل، فهي مصممة أصلا ضد الحريق. لكن قل لي بربك، كيف احترق البيت، واحترقت شهادة السوابق، ولم تحترق أنت معهما؟
وتصنع الرقيب ضحكة ساخرة بذل جهدا في نحتها على وجهه، فمزاجه لم يكن مرحا أبدا ذلك اليوم.
وغمز العريفين معطيا لهما الضوء الأخضر للضحك، وفهم العريفان الأمر، فتضاحكا وبالغا في الضحك حتى كان الرقيب نفسه هو من أوقفهما في النهاية.
فرد عليه وائل ساخرا: يبدو أن مسألة احتراق الشهادة هذه قد أثارت الكثير من الفضول لدى حضرة الرقيب، لقد احترقت الشهادة لسبب بسيط، وهو أنها لا تملك رجلين تقفز بهما من النافذة عندما يشب حريق، أما أنا فأملك رجلين. الخطأ ليس خطأك يا سيدي، بل هو خطئي أنا الذي جئت إلى الثكنة ألبس

بنطالا، مما جعل الأمور تشكل على سيدي الرقيب، بينما لو جئت بلا بنطال لكان الفرق سيصبح أكثر وضوحا بيني وبين ورقة السوابق العدلية.
صفع الرقيب صفعة قوية بذلك الجواب، وبتلك الابتسامة الساخرة. فألقى نظرة سريعة على العريفين، فوجدهما يتصنعان خشوعا مهيبا وكأنهما في صلاة، لكنه استطاع أن يقرأ في طيات وجهيهما سخرية دقيقة منه.
عندها، قرر الرقيب أن الوضع لا يحتمل، وأنه لا يمكن السكوت أبدا وترك هذا الفتى يتمخط فوق هيبته التي ظل يبنيها لسنوات، إذن فلا مجال للعودة إلى الخلف. فقرر أن يوجه إليه إهانة فظيعة، فإن احتملها فسيكون قد نال منه، وإن لم يحتملها وضربه أو شتمه، فقد قضي على الفتى، لأنه سيكون أمام تهمة الاعتداء على عسكري أثناء أدائه مهمته، فقال الرقيب وهو يتصنع السخرية:
-بالمناسبة يا فتى ألم تلاحظ أنك تشبهني كثيرا؟ من الغريب أن أجد هنا –وقرأ في ورقة استخرجها من ملف وائل- أنك من مدينة تل الياسمين. أي أننا لسنا من مدينة واحدة، لأنني من مدينة الصنوبر. لكنك تشبهني كثيرا، أليس ذلك غريبا؟
وابتسم إلى العريفين بمكر، ثم أردف بصوت أعلى:
وجدتها، ألم تأت أمك إلى مدينة الصنوبر ذات يوم؟ ثم أضاف بصوت خافت وهو يغمض من عينيه بخبث: وفي نهاية الثمانينات تحديدا.
وضحك الرقيب وتضاحك العريفان لكن الرقيب لم يوقفهما هذه المرة.
وبدت لوائل أسنان الرقيب لما ضحك فاشتهى أن يحطمها بقبضة يده لكنه تمالك نفسه ورد على الرقيب متظاهرا ببرودة الأعصاب:
أظن أن أبي قد فعل، فقد كان كثير التردد على مدينة الصنوبر، كما أن أبي العزيز –حفظه الله- لا يتمالك نفسه أمام الجمال. بل إن صديق أبي النصوح كان يكثر من القول لي –لما بدأ شعر شاربي بالبزوغ- :
إذا أعجبتك فتاة من مدينة الصنوبر فلا تقربها حتى تسأل والدك عنها أولا، فقد تكون أختك وأنت لا تدري.
ثم أردف وائل بأسلوب مرح وهو يربت بحفاوة على كتف الرقيب:
صدقني يا أخي العزيز، لن يكون أبونا راضيا أبدا إن رفضت ملف أخيك الأصغر من أجل شهادة السوابق العدلية.
لم يستطع العريفان كتمان الضحك, فاستسلما وأطلقا ضحكا كشخير الخنزير، وضحك المترشحون، حتى الرقيب كان سيضحك كثيرا لو لم يكن موضوع الحديث. لقد كان يتمنى في تلك اللحظة أن تخرج الأرض لسانها وتبتلعه. فربما تنسي هذه المعجزة الحاضرين تلك الإهانة التي تعرض لها، فيكتفون بالحديث عن الرقيب المسكين الذي ابتلعته الأرض وليس عن الرقيب الشقي الذي أخذ حماما بارد من الإهانات. لكن الأرض لم تخرج لسانها ولم تبتلعه، الشيء الوحيد الذي ابتلعه هو نظرات الحاضرين الذين توقفوا عن الضحك ولاذوا بصمت حذر. وقد جمدتهم عقدة الشعور بالذنب، فراحوا ينظرون من طرف خفي، وقد قوسوا حواجبهم وطأطئوا رؤوسهم، منتظرين جواب الرقيب فقد يكون لا يزال يسيطر على الموقف، وربما هي مناورة فقط من الرقيب ليعرف صديقه من عدوه،ليعرف من يقف معه ومن يقف ضده، فلا يزال الوقت مبكرا للقطع بانهزام الرقيب. لكن الرقيب كان يتمنى أن يحدث شيء ما، كأن يهجم المريخيون على الثكنة مثلا، فقد يعفيه ذلك من عناء رد الاعتبار، لكن الرقيب تمادى في فكره قليلا، وتفكر في المريخيين، هل هم موجودون فعلا؟
وخمن أن كوكب المريخ بارد، وتساءل لماذا سمي بالكوكب الأحمر، ورجح الرقيب أن تكون فيه حياة رغم برودته الشديدة، وافترض أن تكون هذه المخلوقات تشبه البطاريق. تأوه الرقيب وهو يقول لنفسه:-آه ما أحلى أن يفكر المرء تفكيرا علميا.
وتساءل لماذا لم أكتشف حلاوته قبل هذه اللحظة.
ثم تمنى متحسرا: آه لو يدعني هذا الشيطان المريد بسلام في خلوتي العلمية، لماذا لا يذهب وحسب؟
لم يبق للرقيب إلا أمل وحيد...أن يسمع صوتها، صوت زوجته الحبيبة وهي تقول له: استيقظ حبيبي فالفطور جاهز، انهض وإلا سيفوتك الدوام. ذلك الصوت الذي طالما انتشله من كوابيس أكثر شؤما من هذا الكابوس. شعر الرقيب بشوق كبير إلى زوجته الحبيبة وإلى صوتها خصوصا. لقد اكتشف أنه لا يحبها

فقط كما كان يعتقد بل هو متيم بها. ثم تساءل: ترى هل هذا مجرد كابوس؟ هل زوجتي الحبيبة بجانبي هذه اللحظة؟
تفقد الرقيب بيده مكان زوجته في الفراش فلمس جسدا سمينا مترهلا، مغلفا ببدلة خشنة الملمس، لم تكن إلا بدلة العريف، فسحب الرقيب يده بسرعة لاعنا العريف في سره، وعرف أنه ليس في كابوس، وعرف أن لحظة الحقيقة قد حانت، وتبدى له الشيطان المريد الذي لم يخرج من بيته ليصبح ضابطا، أو ليعيل أسرته، وإنما خرج لشيء واحد فقط، أن يهين الرقيب ويفقده احترامه أمام العريفين والطلاب الذين سيقضون ثلاث سنوات كاملة وهم يضحكون منه، رغم أن الدفعات السابقة كلها لم تكن تكن له إلا الاحترام والهيبة.
إذن فهذا المتمرد قد حرم الرقيب من الخلوة العلمية الفريدة التي كان يحلق فيها، بل أفسد لحظة رائعة كان يستعيد فيها ملامح زوجته الحبيبة التي تزوجها حديثا.
فقال الرقيب في نفسه بألم ومرارة: لن أسمح لأحد بأن يحرمني من التفكير في زوجتي الحبيبة، أنا هنا محروم منها طوال النهار وأحيانا يستدعونني بالليل عندما أكون معها، والآن يأتي شيطان مريد قد ولد البارحة ليحرمني حتى من التفكير فيها. حتى الجيش الذي يدفع لي مرتبا لم يحاول فعل ذلك معي، ثم أضاف: أنا لست حيوانا، أنا أيضا من حقي أن أفكر تفكيرا علميا. أحس بمرارة الظلم تجفف حلقه:
-لقد سلبني هذا الشيطان كل شيء، كل شيء. كرر في نفسه متحسرا، لكنه لم يكد يكمل جملته حتى وجد نفسه متشابكا مع وائل، كل منهما يريد أن يسقط صاحبه دون استعمال اللكمات لأن الاثنين يعلمان عواقب ذلك في ثكنة عسكرية.
لكن الرقيب لم يعرف كيف حدث هذا الصراع ومن بدأه؟ أكيد ليس وائل من بدأه لأنه منتصر.
-إذن أنا بدأت، لكن كيف؟ كرر الرقيب في نفسه.
كانت الأقدام ملتصقة بالأرض، لا تكاد ترتفع عنها، فإذا ارتفعت، فللحظة قصيرة جدا ثم تعود إليها، لأنه ما أسهل على المرء أن يسقط إن ظل متصلا بالأرض برجل واحدة فقط.
وكانت الأيدي تبحث في خصمها عن أي شيء يصلح كمقبض، سواء كان رقبة أو كتفا أو قماشا متهدلا، أما الحاضرون فقد تحرروا من الخوف، لذا فقد حاولوا الإستمتاع جيدا بتلك اللحظات النادرة، لحظات عرف ندرتها أكثر العريفان المسكينان، مما جعلهما المستمتعين الأفضلين في كل القاعة.
وفي هذه اللحظات سقط القناع، لقد سقطت قبعة الرقيب، فبدا للحاضرين كأنه قد تعرى من ملابسه تماما.
أما أحد المترشحين فقد بدا له شيء أكثر خصوصية، فقد قفز من مكانه مشيرا إلى الرقيب بأصبعه وصاح دهشا:
يا إلهي، إنه الشاب الذي أشبعته ضربا في محطة الحافلات ذات يوم.
حدق السامعون بالشاب وقالوا:
-ماذا؟ أنت أشبعت الرقيب ضربا؟
-أجل، تزاحمنا ذات يوم على إحدى الحافلات فدست على بنطاله فنعتني بالحيوان فرددت له بلكمة خاطفة، فتبادلنا اللكمات حتى فرق بيننا الناس.
هلل الحاضرون للبطل. وسأله أحدهم بعجلة: هل ملفك كامل؟
-أجل.
-الحمد لله. تنفس السائل الصعداء، ثم قال آخر للبطل:هل لي برقم هاتفك؟
وقال آخر: أظننا استقلينا حافلة واحدة، أليس كذلك.
أما آخر فشرع يخبر الآخرين بحماسة كيف شارك البطل غرفته البارحة، وأنهما التقيا أمس في مطعم بوسط المدينة، وقضيا نهار أمس بكامله يتسكعان في الأزقة، وأنهما منذ أمس أصبحا صديقين حميمين، حتى السكين لا يستطيع الفصل بينهما.
وارتفع الصراخ والحديث في القاعة، صراخ لفت انتباه خمسة شبان كانوا في الخارج فدخلوا القاعة، فوجدوا صديقهم في عراك مع الرقيب، مما جعلهم يسرعون للتفريق بينهما. وقال أحدهم لوائل:
-ما إن تغيب عنا لحظة حتى تحدث شجارا، ما بك يا رجل، أنت الآن في الثامنة عشر.
-اتركني يا علي، فقد سب أمي. قال وائل محتجا، ثم التفت بكلامه إلى الرقيب:

-لا يمكننا تصفية حسابنا في ثكنة، لكن يمكن ذلك بسهولة في مقهى السلام، فكل العسكريين يتناولون القهوة هناك.
-سنلتقي ذات يوم هناك، وسنصفي حسابنا، فوحدها الجبال لا تلتقي.
خرج وائل وشلته من القاعة ثم سأله سمير:
-ألم يقبلوك يا وائل؟
-إنها شهادة السوابق العدلية، قالوا أنها لازمة.
-اللعنة. لقد عرفت أن ذلك سيحدث. قال مراد وهو يضرب الحائط بقبضته.
-وما العمل الآن؟ تساءل وليد.
-لن ندخل بدون وائل، سنكمل الدراسة في الجامعة. قال علي.
-مكان واحد-مصير واحد. قال سامي.
فقال وائل: كلا كلا لن أحطم أحلامكم.
مراد: هذا كان حلمك أنت، وأردنا أن ندخل لنكون معك فقط.
علي: هيا لنذهب إذن.
سامي: أنا آسف يا وائل فبسببي حرمت من حلمك.
وائل مستنكرا: انظروا إلى الأحمق ماذا يقول. اسمع يا سامي، لقد كنت أدافع عن شرفك وشرف عائلتك، الذي هو شرفي وشرف عائلتي، ولست نادما، لأنني لو عدت بالزمن إلى الوراء لفعلت نفس الشيء، كما أنني متأكد أنك كنت ستفعل نفس الشيء معي. ولكن انتظروا قبل أن نذهب، لقد بقيت لي فرصة أخيرة. أيها العريف. سيكون لطفا منك لو أرشدتني إلى مكتب العقيد.

شمس أغسطس تحرق الأجواء بأشعتها الحارقة، مغتنمة فرصة غياب الغيوم لتنشر أشعتها في كل مكان، حيث لا توجد إلا الرطوبة التي تزيد الجو اشتعالا. وعوادم السيارات تنفث الدخان بلا رحمة، لتجعل من الجو جحيما لا يطاق، لولا البنايات الشاهقة، المتكدسة على حافتي شارع (موريس أودان). التي تتيح للمارة بعض الظل حتى في ساعات الظهيرة. وفي إحدى تلك الظلال نضد مقهى (الجزائر البيضاء) بضع طاولات لأجل الزبائن الذين يفضلون الأماكن المفتوحة، من أجل استنشاق المزيد من الهواء أو من أجل التدخين أو لأشياء أخرى.
من إحدى الطاولات تنفث ستة مداخن دخانا اختلط بدخان السيارات، إلا أنه يمكن التخمين بسهولة أنه دخان سجائر. ولا أحد من الزبائن يرغب في تناول قهوة بالقرب من تلك الطاولة، لأنه ببساطة لا أحد من الزبائن مستعد للإختناق في ذلك الجو المحموم.

-إنها العودة إلى الديار إذن. قال سامي وهو يحاول إزاحة الصمت الذي يجثم بثقله على المكان. فوائل محبط جدا لأنه قد حرم لتوه من الإلتحاق بمدرسة الضباط، الحلم القديم. فقد درس بجد في القسم النهائي من أجل الحصول على العلامة المطلوبة التي تؤهله للدخول إلى مدرسة الضباط، بينما كان –طيلة السنوات الماضية- يدرس فقط من أجل الانتقال إلى القسم الأعلى، فالرسوب في أي قسم من الأقسام الماضية كان سيقضي على حلمه، لأنه منذ اليوم الأول له في المدرسة، كان يحلم بأن يصبح ضابطا. ولو كان يعرف أنه لن ينجح، وكان يملك الاختيار، لما دخل إلى المدرسة إطلاقا. بل لو كان مجيء الإنسان إلى العالم باختياره، لما اختار وائل أبدا المجيء إلى عالم لن يكون فيه ضابطا.
لقد كان على وشك الدخول إلى المدرسة، فقد استوفى كل الشروط، ونجح في المسابقة، لكن شهادة السوابق اللعينة حرمته من ذلك. هو ليس نادما لأنه وقف مع صديقه وقت الشدة، بل هو محبط لأنهم لطخوا ملفه العدلي فقط لأنه وقف مع صديقه وقت الشدة، لذلك فهو لا يلقي على سامي أي عتاب، بل هو يلقيه عليهم هم. خمن وائل دون أن يتطرق إلى تحديد من هم هؤلاء الـ (هم).
تصرف يلجأ إليه الإنسان عندما يلبس جبة المحامي ويرافع من أجل تبرئة من يحبه، ولأن كل جريمة لابد لها من فاعل، فإنه يقول أن الفاعل هو: (هم).
أراد وائل أن ينسى هم الجيش لفترة، فحاول أن يحدق في الحسناوات المارات، وأن ينشغل بمفاتنهن. فوقع بصره على حسناء كانت بشرتها السمراء تشي بأنها قد قضت جزءا لا بأس به من هذا الصيف على شاطئ البحر، بادلت وائل النظرات، ثم توقفت عنده وابتسمت وهي تقول مرحبا، حاول وائل الابتسام لكنه لم يستطع، وكأن عضلات وجهه صارت من حديد، غير أنه استطاع أن يقول في الأخير -لكن ببرود شديد- : مرحبا.
أحضرت الفتاة كرسيا من إحدى الطاولات الشاغرة وجلست بالقرب من وائل وقالت: هل تأذن بأن أجلس؟
فرد وائل بتهكم: لا أظنك بحاجة إلى إذني الآن، فقد جلست.
فابتسمت الفتاة وقالت بتهور: آسفة.
ثم ألقت بنظرة خاطفة على أصحاب وائل، حيث لم ينتظر سامي كثيرا ليلوح لها بيده ويقول لها بابتسامة هي أقرب إلى الضحك: مرحبا.
فردت وهي تميل رأسها على كتفها: مرحبا.
ثم قربت كرسيها أكثر إلى وائل، الذي كان باردا وثقيلا مثل جبل الجليد. لكن مع كل ذلك، لمع للحسناء بريق من الأمل، حتى إنه انعكس في عينيها الرماديتين الجميلتين، فقد رأت وائل يكثر من النظر في عينيها بنهم، رغم ما كان يظهر من برود.
فقالت الفتاة: لقد سرت كثيرا اليوم، وعندما رأيت المقهى قررت أن أرتاح قليلا ثم أكمل طريقي فيما بعد، الجو خانق، أليس كذلك.
فقال علي: لا أدري كيف تستطيعون العيش مع هذه الرطوبة.
فقالت الفتاة: ماذا، ألستم من العاصمة؟
-كلا للأسف، نحن من مدينة تل الياسمين. قال سامي مازحا.
فردت الفتاة: وأنا لمياء من العاصمة، هل جميعكم من مدينة تل الياسمين؟
ونظرت إلى وائل، الذي ظل صامتا.
فقال سامي بخبث: أجل، وائل أيضا من مدينة تل الياسمين.
فصافحت الفتاة وائل وهي تقول: وأنا لمياء من العاصمة.
لكن وائل اكتفى بالقول: شكرا.
فقالت الفتاة لسامي: ما به وائل، هل هو مريض؟
فرد سامي بخبث: كلا، بل هو محطم الفؤاد.
فقالت الفتاة ناصحة: صدقني يا وائل، يجب ألا تلتفت إلى الوراء أبدا. يجب أن تنظر إلى الأمام وتكمل طريقك.
فقال سامي بمكر: أجل يا وائل، يجب أن تنظر أمامك، فالمستقبل كله هناك.
فقال سمير: أنت لا تفهمين يا آنسة لمياء، ففؤاد صديقنا لم تحطمه فتاة، بل بدلة.

فصرخت الفتاة بسعادة: رائع؟ ثم استدركت بعدما رأت تعجب الشبان فقالت بصوت خافت:
رائع، الجيش شيء رائع، من الجيد أن تكون جنديا في الجيش يا وائل.
فقال سامي: لقد ترشح للدخول إلى كلية الضباط لكنه رفض في آخر لحظة، لذلك فهو الآن في حاجة ماسة إلى مواساة الأشخاص الطيبين.
فقالت الفتاة وهي تحاول إضحاك وائل:
- كلنا درسنا مادة العلوم، وسمعنا أساتذة العلوم يتحدثون عن أسباب موت الإنسان، فهم يقولون أن الإنسان يموت وتتوقف وظائفه الحيوية، إذا استنشق ذبابة خل استوائية، أو إذا سقط عليه بيانو، أو إذا أكل سمكة عطست على أحد زعانفها فقمة، فهل أضاف أستاذ العلوم عندكم إلى هذه الأسباب: أو إذا كان غير ضابط، أبدا، فأساتذة العلوم يقتصرون على تلك الأسباب الثلاثة فقط، إلا إذا كان برنامجكم الدراسي مختلفا.
وأساتذة العلوم على حق، فانظر يا وائل إلى الناس من حولك. أغلبهم بل كلهم غير ضباط، ومع هذا فهم يتنفسون ويتحركون ويلعبون الدومينو ويوقفون سيارات الأجرة، ويفعلون الكثير من الأشياء التي لا يستطيع فعلها الأموات. صحيح يا وائل أنك خرجت اليوم من الكلية غير ضابط، لكنك خرجت حيا، وهذه النعمة لوحدها تستحق منك الكثير من الشكر.
-يبدو أن فتاتنا هي الوحيدة من بيننا التي لم تنم في الصف، فأنا لا أذكر أنني سمعت ذلك من أستاذ العلوم. قال سامي.
أما وائل فقد تجاهل عمدا كلام الفتاة، ولم يجد حرجا في أن يحرمها من إظهار تحسنه من جراء كلامها، رغم أنه كان عليه أن يبدي بعض التحسن، على الأقل تهذبا مع جهدها في الحديث، الذي بدا جهدا جبارا بالنسبة إلى عقل حسناء.
لقد تجاهل كلامها ليس لأنه غير مهذب، ولكن هو لا يريد أن يكون ضعيف العزيمة، ترفع فتاة حمقاء من معنوياته بسهولة، لأنه حينها سيكون مثل ولد غر ينسى حزنه بقطعة من الحلوى، ولن ينقص الفتاة عندها إلا أن تداعب شفتيه مثل صبي، وأن تضع في فمه مصاصة، و أن تمرر يدها على شعره وهي تقول: ولد مهذب. وهذا ذل لن يرضى وائل به أبدا، خاصة إذا علمنا أن المراهقة لا تزال تملك بعض السلطان على هرموناته. لذا حاول وائل أن يغير الموضوع، وأن يجعله يدور حول الفتاة المسكينة فقال:
لكن أين كنت ذاهبة في هذا الحر؟ أكيد أن الأمر يستحق منك التعرض إلى أشعة شمس أغسطس.
فقالت: لقد كنت ذاهبة إلى الشاطئ، فهو المكان الوحيد الذي يذهب إليه الناس مختارين في حر كهذا، بالمناسبة، هل تذهب إلى الشاطئ عادة يا وائل.
فقال وائل: ليس عادة. ثم أردف وهو يبتسم ابتسامة زير: إلا إذا أرغموني.
فقال سامي رغم أنه لم يكن معنيا: وأنا أيضا لا أحب الذهاب إلا إذا أرغمتني سمراء. ثم نادى سامي النادل ليحضر للفتاة شيئا تشربه، فقالت الفتاة:
-أريد عصيرا بلب البرتقال، وأريد فطيرة وكأس شوكولاتة ساخن. سكتت قليلا، ثم نظرت إلى وائل وقالت بتأثر بالغ وهي تراقب عيني وائل: يا إلهي كم أحب الشوكولاتة؟ ثم قالت للنادل: وأريد أيضا قطعتين من البيتزا وقارورة من المشروبات الغازية، فالحر شديد، وأحضر لي قارورة مياه معدنية وأريدها مجمدة، وسيكون لطفا منك أن تضعها في كيس، لأنني سآخذها معي.
فقال سامي للنادل: لا تنس أن تحضر معك كيسا آخر من أجل أن تحمل فيه نقود الشقي المفلس الذي سيسدد الفواتير، وبينما تذهب أنت لإحضار الكيس سنصلي نحن على روح هذا المفلس، مع أنني لا أميل كثيرا إلى الرأي القائل أن المفلس يملك روحا. فقالت الفتاة لسامي غاضبة: أنا سأدفع فاتورتي، فلا تقلق من هذه الناحية. ثم نظرت إلى وائل مبتسمة وهي تقول بلطف شديد وصوت عذب:
-وائل، عندي لك مفاجأة سارة، احزر ما هي.
فقال وائل بتهكم: أرجوك لا ترعبيني. ما هي هذه المفاجأة؟
فقالت: إذا بقيت مهذبا وعاقلا ونسيت أمر الجيش، وتوقفت عن النحيب على رتبة الضابط،فربما سأقرر أن آخذك معي إلى الشاطئ، وأن أشتري لك كل ما تريد. أقسم لك، أنا لا أكذب.
فقال وليد: ستكون غبيا لو رفضت هذا العرض يا صديقي وائل، أو بعبارة أصح، ستكون أكثر غباء من ذي قبل، لأنك –ولا أقصد الإهانة- غبي منذ فترة طويلة، منذ قرصتك القابلة بالتحديد.

فقال وائل معاتبا: شكرا يا برميل الكحول على إطرائك لصديقك أمام الفتاة العاصمية. أنت تغار مني لأنني ذكي جدا، فطالما كنت الأذكى فيكم قبل أن تظهر تلك الدروس الخاصة.
فقال سامي: يكفي يا وائل، فأنت رجل راشد وتعرف موقف القانون الحازم من رواية نكت في مقهى يقع بالقرب من ساحة عامة. لذلك فكف عن قول النكت ومخالفة القانون.
قالت الفتاة: ماذا قررت يا وائل؟ فما زلت لم أغير رأيي بشأن أخذك إلى البحر وشراء الفطائر الشهية لك.
فخمن وائل أن الذهاب إلى الشاطئ سيكون شيئا رائعا، وأن بإمكانه أن يقضي وقتا ممتعا هناك مثل الأيام الخوالي، عندما كان يأتي مع الشلة. لكن شيئا كئيبا عكر مزاج وائل وجعله لا يفكر إلا في العودة إلى البيت.
استعاد وائل صورة شارة المقدم الذي قابله في الثكنة بعد رفض ملفه من طرف الرقيب. لقد ذهب إلى الإدارة وطلب مقابلة العقيد، مدير الكلية العسكرية، لكنهم أحالوه إلى المقدم. كان المقدم يشبه إلى حد ما الزعيم الألماني هيندنبورغ، وكان تبدو عليه الصرامة والقسوة، وكان بوجهه آثار حروق توحي بأنه محارب ينزل إلى الميدان، وعرف وائل أنه عسكري حقيقي من جسده المفتول، فقد كان من دون كرش عكس الضباط السامين الآخرين، لكن الشيء الأكثر جلبا لانتباه وائل فيه كان شارته. لقد أخبره وائل أن حلمه كان الدخول إلى مدرسة الضباط، وأنه منذ صغره يهتم بكل الأمور المتعلقة بالجيش، حتى إنه يحفظ عن ظهر قلب خطة خالد حين انسحب بجيشه –البالغ ثلاثة آلاف- سالما، رغم أن جيش هرقل كان يبلغ مائتي ألف مقاتل في غزوة مؤتة، وأخبره بإعجابه بعقلية نابوليون العسكرية، وخطط ثعالب الألمان في الحربين العالميتين، وعرف المقدم أيضا في دقائق أن الفتى لديه إلمام واسع بعمل مختلف الأسلحة، لكن المقدم قال:
يا بني، الجيش ليس كالماضي، اليوم مهما كان ذكاؤك وشجاعتك وتنظيم جيشك لن تفعل شيئا كبيرا إذا كان عدوك يملك تكنولوجيا أكثر تطورا. إنها ليست حربا بين جيش وجيش، بل هي حرب بين الآلات، وأكثرها تطورا هي التي تفوز،سيكون عدوك من السماء يشاهد كل ما تفعله على الأرض، فبفضل الأقمار الصناعية، أجهزة الرؤية الليلية، وتلك الطائرات المزودة بالكاميرات ذات الدقة العالية والتي تطير على ارتفاعات كبيرة، وأجهزة التنصت المتطورة، ولا تنس العناصر المدسوسة داخل جيشك نفسه، لايمكنك أن تفعل شيئا إلا أن تستدرج قواتهم البرية إلى المدن، وإذا فعلت ذلك فهذا يعني أن دفاعاتك الجوية قد دمرت، بل يعني أنه قد بقي لك الأسلحة الخفيفة فقط، أضف إلى ذلك الصعوبة التي ستجدها في الحفاظ على تماسك جيشك، وإلزامه بالمقاومة، لأن الجيش حينها قد يقرر إعادة النظر في استمرار موافقته على تلقي الأوامر من زعيم متشرد ليس له مقر. إنها حرب بين الآلات يا بني، لذلك يمكنك معرفة الفائز مسبقا، لأنه ببساطة يمكن قياس سرعة الآلات ودقتها وقوتها التدميرية، أما الجيوش فلا يمكن قياس شجاعتها وذكائها وإخلاصها بأرقام، وما دام يمكن ذلك مع الآلات، أي أن الفائز يعرف مسبقا، فلا داعي إلى إجراء حرب، وعندها فإن المنهزم المستقبلي سيكون سعيدا بإعطاء المنتصر المستقبلي ما يريد دون الحاجة إلى إجراء حرب، أتعرف يا بني لماذا اخترع الشطرنج؟ لقد اخترعه حكماء الهند لفك النزاعات بين الملوك، فإذا حدث نزاع بين ملكين وكانا على وشك التقاتل، جمع الحكماء بينهما ليجريا مقابلة في الشطرنج، ومن يفوز في الشطرنج كان سيفوز حتما –حسب رأيهم- في الحرب، لأن الشطرنج حرب افتراضية، وبالتالي فليس هنالك من داع لإجراء حرب حقيقية واستنزاف القدرات. وهذا بالضبط ما يحدث في عصرنا، أتظن أن الحروب لا تحدث اليوم؟ بلى، إنها تحدث حتى بين الدول العظمى، لكنها لا تحدث على الأرض، بل تحدث في الحاسوب، وهو أفضل مكان يفضل الجنود المساكين أن تندلع فيه حرب، ألا تشاهد يا بني هذا السباق المحموم، ما إن تطلق هذه الدولة قمرا اصطناعيا، حتى تجري تلك تجربة صاروخ عابر للقارات، لتقوم الأخرى بتجربة تدمير قمر اصطناعي بالليزر. الحرب اليوم يا بني يقوم بها المهندسون لا الجنود، ليس هناك احتمال لحدوث حرب ميدانية إلا بين دولة قوية وأخرى ضعيفة، حيث تكون الأولى في نزهة، أو بين دولتين ضعيفتين، لأنهما لا يعتمدان على الآلات، وبالتالي سيعتمدان على الجيوش التي لا يمكن التنبؤ بمن منها الأقوى.
وهذا ما جعل بعض الدول الضعيفة التي فهمت قواعد اللعبة ترسل معلومات مضللة عن قدراتها العسكرية، حيث تضخم إعلاميا من قوة جيشها حتى تقوي مركزها في التصنيف الافتراضي لجيوش

الدول، من أجل أن تصبح دولة عظمى في العالم الافتراضي رغم أنها ليست كذلك في الواقع،وهذا يؤمنها من الهجمات الحقيقية، لكنها لعبة خطرة جدا، لأن الدول العظمى إذا اكتشفت لعبتها، واكتشفت أنها لا تملك فعلا أسلحة الدمار الشامل، فستحتلها بتهمة حيازة أسلحة الدمار الشامل، وسيصدق الرأي العام ذلك، لأن الدولة نفسها كانت تصرح بذلك من قبل، لكن إذا كانت الدولة تملك فعلا تلك الأسلحة، فلن يغزوها أحد، بل سيكون مرحبا بها في نادي الكبار المسيطرين على العالم، إنه عالم مجنون، أليس كذلك يا بني؟
لقد كنت أظن أن العراق يملك أسلحة الدمار الشامل، لكن منذ أن قرروا غزوه عرفت أن العراق لا يملك حتي سكاكين المطبخ، لأنهم لا يغزون إلا الدول الضعيفة.
فقال وائل: حضرة المقدم، اسمح لي أن أقول لك أنني لا أشاطرك الرأي، لأنني أظن أن الإنسان هو العامل الرئيسي في حسم نتائج الحروب حتى لو كان الخصم مدججا بأحدث وأعتى الأسلحة، مثلما حسم الإنسان نتيجة ثورتي فيتنام والجزائر.
فقال المقدم: كلا يا بني، أتظن أننا انتصرنا نصرا كاملا على الفرنسيين؟ كلا لقد كان نصرا محدودا، فقد كبدناهم مقتل عشرين ألف جندي فرنسي، في حين كبدونا مقتل مليون ونصف مليون، أغلبهم مدنيون، أي أن جيشنا خاض حربا دون أن يكون قادرا على حماية مدنييه من انتقام الفرنسيين، فبأي حق تساوي حياة الفرنسي حياة خمسة وسبعين شخصا منا، ويساوي الجندي الأمريكي أكثر من ثلاثين فيتناميا، بل إنني أظن أن الألمان لم ينهزموا كليا في الحرب العالمية الثانية، بل كل ما حدث هو إقالة حكومة الرايخ الثالث فقط، أتعلم لماذا؟ لأنه كان عندما يموت جندي ألماني واحد، كان يموت مائة من الحلفاء بين عسكري ومدني.
بل إنك يا بني عندما تملك عتادا ضعيفا فستتجه إلى تغطية ذلك النقص باللجوء إلى مواردك البشرية: الجنود. فقد تفقد خمسة من الجنود لإعطاب دبابة للعدو، ليصلحها العدو في ساعتين، أو يصنع أربع دبابات أخريات مكانها. كما أن مسألة حماية المدنيين تبقى ضرورة ملحة، فعندما كان الثوار الجزائريون يقتلون جنديا فرنسيا واحدا، كان الجيش الفرنسي يتوجه إلى أقرب قرية، ويبيد أهلها عن آخرهم رميا بالرصاص، لذلك كان الثوار أثناء قيامهم بعملية ما، يقومون بها وهم يبكون، لعلمهم بعواقبها الحزينة. إذا كنت لا تقدر على حماية مدنييك فلا داعي للقيام بالحرب، لأنك إن قتلت جنديا واحدا، سيقتل العدو ألفا من مدنييك العزل، وإن أسرت جنديا فسيأسر ألف مدني ليقايضك فيما بعد، فتطلق سراح الجندي ويطلق العدو سراح مائة من المدنيين ويبقى لديه تسعمائة.
فقال وائل: أظنك محقا إلى حد ما في هذا الشأن، فالجيش الذي لا يستطيع حماية أجوائه ومدنييه وجنوده- أعني بحماية الجنود:حمايتهم من الخسارة المجانية- عليه تجنب الحرب قدر المستطاع، وأظن أن هذا كان رأي خالد، ففي غزوة مؤتة التي كان جيشه فيها يتألف من ثلاثة آلاف وجيش هرقل يتألف من مائتي ألف، فرغم أن خالدا استطاع قتل مئات البيزنطيين فقد بكى بحرقة لأنه خسر في تلك المعركة عشرين جنديا، رغم أنها خسارة ضئيلة بالنسبة إلى ظروف المعركة، فقد كان يهمه حياة جنوده بقدر ما يهمه الانتصار، خالد الذي خاض عشرات المعارك ضد العرب والفرس والبيزنطيين ولم يخسر معركة أبدا، أظن أنه علينا أن نقتدي بخالد، صحيح أن الو ضع مختلف الآن، ولكن بعض الأشياء تبقى ثابتة مستمرة باستمرار الإنسانية، كالعلاقة بين الجنود والقائد، والروح القتالية والالتزام العسكري.
سكت وائل قليلا ثم قال:
حضرة المقدم لم أخبرك عن سبب رفض ملفي، إنها شهادة السوابق العدلية. أنا أتمنى من حضرتك أن تتدخل من أجل قبول ملفي من دونها، وسألحقها بالملف بعد فترة، لأنني أضعتها.
فقال المقدم: بني، أنا لست غبيا، كيف أضعت شهادة السوابق فقط، هيا نتكلم كرجلين، لماذا لم تحضر شهادة السوابق.
فقال وائل وهو يحك رأسه: حضرة المقدم، في صغري حدثت مشكلة ولطخ سجلي العدلي، لذلك لن أستطيع استخراجها.
فقال المقدم: آسف يا بني، لو كانت أي شيء آخر غير شهادة السوابق لأدخلتك إلى الجيش، ولكنك تعلم أنها أساسية في الملف. وكم يؤسفني أنها أنقذتك من تدريبي القاسي.

وأردف ضاحكا: فالجميع يقول أن هوايتي المفضلة هي تدمير أصحاب الإرادة القوية، لكن الحقيقة أنني قاس عليهم من أجل التأكد من أنهم أصحاب إرادة قوية فعلا، أي أنني أضغط عليهم من أجل اكتشاف قدراتهم، فأنا اليوم مقدم وبعد أشهر سأرقى إلى عقيد، وبعد سنوات لا أدري ماذا سأكون، لذا يجب علي معرفة الرجال الأقوياء من أجل تعيينهم فيما بعد في مراكزهم المناسبة، وإليك نصيحة يا بني، لن يستطيع أحد مساعدتك، حتى العقيد لن يستطيع، لذا أنا أفضل أن تبحث عن حل آخر، ولو أن تشتريها، إذا كنت تعتقد أن حلمك يستحق تقديم رشوة، وتعال العام القادم، وستجدني هنا وسأدخلك إلى الكلية حتى لو تجاوزت السن المطلوبة.

-وائل، ماذا قررت بشأن الذهاب معي إلى الشاطئ؟ قالت الفتاة ذلك لما رأت أن وائل قد شرد بذهنه قليلا.

كان وائل ينظر إلى الفتاة، لكنه كان لا يرى إلا شارة المقدم. لذا شعر بإحباط شديد فقال:

لا، لا لن أذهب إلى أي مكان، فمزاجي سيئ جدا اليوم.

شعرت الفتاة أن صوت وائل بدا مقرفا وثقيلا وكأنه يصدر من مسجلة فاسدة، تقرأ شريطا ببطء شديد. لكن بعد ذلك، وتحديدا حين كان وائل يتحدث مع أصدقائه، شعرت الفتاة أن صوت وائل لم يكن مقرفا أبدا كما اعتقدت، بل إنها لن تكون مبالغة أبدا إن قالت عن صوته أنه رائع. رأت الفتاة عدم اهتمام وائل بها فشعرت بحرقة في حلقها وحرارة في جفونها، وأدركت بأنها الآن في إحدى تلك اللحظات النادرة جدا التي تحتاج فيها إلى جمالها فعلا. ذلك الجمال الذي تحملت عبئه طويلا، في تلك الأماكن التي تغص بشبان جريئين وغير محببين، أو العبء النفسي الرهيب الذي تكابده كل صباح وهي تخطو خطوات متثاقلة إلى المرآة، إذ تخشى أن تلقي التحية الصباحية على دمل فضيع، أو على عين منتفخة، أو قرحة تفسد سحر شفتيها الجميلتين، لأن تلك القرحة ستكون مثل جثة متعفنة معلقة على أحد أعمدة قصر جميل. بعكس شفتين غير جميلتين، لأنهما ستكونان مثل دار البلدية، ولو أن عملاقا ألقى بنخامة في بهو دار البلدية لما تحدث الناس أبدا بأن دار البلدية صارت أقل سحرا عما قبل، ولاستمروا في استخراج وثائقهم منها، لكنهم كانوا سيتحدثون كثيرا عن ذلك القصر الجميل الذي علقت بجانبه جثة.

خمنت الفتاة بهذه الأفكار في فخر ودلال، لكن الغصة لم تفارق حلقها بعد.

فقالت وهي تغمض قليلا من عينيها الواسعتين وتضفي على صوتها بحة وكأنها على وشك البكاء:

يجب أن تساعدني أيها الشاب لأن الخطر محدق بي من كل جانب.

فرد وائل متهكما وهو يضم شفتيه مقلدا لنبرتها الطفولية:

-يا حرام، كم هو شرير هذا الخطر، ألم يجد أحدا يحدق به إلا الأسمر ذا العينين الجميلتين.

فاغرورقت عيناها بالدموع، وأسر سامي إلى أحد أصدقائه:

-الحسناء تبكي أولا لتضحك أخيرا، ومن يضحك أخيرا يضحك كثيرا.

فلما رأى وائل الدموع -وكان وائل ضعيفا أمام الدموع خاصة عندما تسقط من عينين رماديتين جميلتين- استوى في جلوسه وسألها:

-ما الأمر يا فتاة.

أخفت الفتاة ابتسامة نصر خفيفة وطوتها في ثنايا الأحزان وقالت:

لقد هاجمني مجموعة من الشبان بالسكاكين، وأخذوا هاتفي، وهددوني بأنهم سيقتلونني ويقطعونني بالسكاكين، ويصنعون مني نقانق، أنا خائفة جدا، أريدك أن تساعدني، فليس لي أحد في هذه الحياة، لأنني يتيمة، فقد مات أبي وأنا في الرابعة، لقد سقط في ورشة بناء من الطابق العاشر، ولم يكن مسجلا في التأمين، لذا فقد كابدت أمي لوحدها مشاق الحياة. فقد كانت تخرج بعد الغروب لتعود قبل الفجر، وعلى وجهها المزيد من الكدمات. ثم مرضت بعد ذلك ولازمت الفراش، لقد كان سرطان عنق الرحم، لذلك لم تعمر طويلا.

هنا لم يتردد وائل في الاقتراب منها، وترك خدها يميل على صدره، وهي تواصل حديثها بأنها وحيدة ولا أحد لها في هذه الحياة وأنها تعيش الآن في ملجأ للأيتام، وهي تنظر إلى أصدقاء وائل الذين تعاطفوا معها، حتى سامي تعاطف معها أيضا، لكنه لاحظ ابتسامة غريبة تختبئ بين ملامحها الحزينة.

في هذه الأثناء رن هاتف تبين أنه يرن من جيب الفتاة، فقال الجميع بصوت واحد وهم يهزون رؤوسهم بنفي واستنكار:أوه؟

فاستوت الحسناء في جلستها، وألقت بأف طويلة على يمينها، وهي ترفع عينيها إلى أعلى، ثم التفتت إليهم وقالت:
-ليس الأمر كذلك، فلدي هاتفان والشبان أخذوا هاتفي الآخر الذي كنت أعلقه، أما هذا فلم يروه.
ثم التفتت إلى وائل وقالت كالغضبى:
-يجب أن تساعدني، فأنا خائفة جدا.
فرد وائل وهو يبتسم بتهكم:
-لا ألاحظ ذلك.
فالتفتت الفتاة إلى الجهة الأخرى غاضبة، وقد بدت النقرتان على خديها أكثر عمقا ثم عادت ببصرها إلى وائل:
أنا خائفة لكنني لا أرتجف، أيجب أن أرتجف حتى تصدق أنني خائفة، لا يوجد يا وائل أي علاقة بين الارتجاف والخوف، فلو أنني أصبت بتناذر آلزهايمر وبدأت في الارتجاف هل هذا يعني أنني خائفة؟
فقال وائل: ربما خائفة من الموت.
استاءت الفتاة من عناد وائل، فاشتغلت بتناول الفطيرة التي أحظرها النادل للتو، لكن وائل ظل ينظر إليها وهي تأكل بشراهة، فقالت له وهي تضحك متسائلة:
-ما الأمر؟
فأجاب وائل بابتسامة وهو يهز رأسه بالنفي:
-لا شيء.
ثم أضاف: اسمعي يا فتاة سوف أساعدك.
هنا قفزت الفتاة من مكانها واحتضنت وائل وهي تقول: رائع؟
فأبعدها وائل وهو يقول: لا تجعلي من قميصي منديلا. سأساعدك لكن بشرط، لا مزيد من الأكاذيب والحماقات.
فقالت الفتاة: وهل ستذهب معي إلى الشاطئ.
فقال وائل بتحفظ:
-نعم سأذهب معك إلى الشاطئ، وسنقضي بعض الوقت هناك، ثم سأصحبك إلى الملجأ، على العموم لقد كنت عازما على الذهاب إلى الملجأ قبل أن ألتقيك.
كادت الفتاة تطير من السعادة، رغم أنها لم تفهم لماذا ذكر وائل كلمة (ملجأ).
أما سامي فلقد أشعرته كلمة (ملجأ) هذه بالشفقة على صديقه الطيب، سريع التصديق، لكن سامي نسي صديقه لوهلة وقرر الاهتمام بنفسه قليلا إذ قال مازحا:
هل عندكما مكان لفتى مسكين، مفطور القلب، طرد للتو من الجيش؟
فقالت الفتاة بحزم وهي تشير بأصبعها الرشيق وتفتح من عينيها اللتين كانتا مفتوحتين أصلا:
-لا، مطلقا. وهزت مع هذه الجملة رأسها إلى اليمين تعبيرا عن الرفض المطلق.
ثم رن هاتف الفتاة قليلا ثم توقف الرنين، فبدأت تتلفت باتجاه الطريق وكأنها تنتظر أحدا. فقال وائل:
-لماذا تتلفتين؟
قالت: أنا أنتظر أبي ليقلني...
فوضعت يدها على فمها، من الدهشة أو من أجل أن تسكت نفسها، لأن الكثير من الرجال –خاصة الذين يطيلون الشوارب- يقولون أن المرأة لا تستطيع أن تسكت من تلقاء نفسها، إلا إذا كبحت فمها بإغلاقه بكفها.
فقال وائل:
ماذا؟ هل سمعتك تلفظين كلمة أبي منذ قليل؟ ألم نكن نسمع منذ الصباح إلا الأكاذيب؟
فقالت الفتاة بتردد:
لا... لا... لم أقل أبي.
فردد الجميع بغضب شديد وعلى إيقاع واحد:
بلى، فعلتِ.

فاستقبلت الفتاة هذه الجملة وهي تضع إصبعيها في أذنيها، متظاهرة بالخوف من الصمم، ثم قالت وهي تبتسم بشقاوة:
حسنا، حسنا، أنا أستسلم. لقد كنت أكذب، فأبي حي يرزق، وهو بصحة جيدة إلى درجة أنه قادم الآن ليقلني، فنحن ذاهبون إلى الشاطئ. وأمي لم تمت بسبب السرطان، بل إنها لم تمت أبدا، وهي تتمتع ببنية قوية كافية جدا لتستطيع جذب شعري كلما رأتني والقول لي:
(أيتها الحقيرة؟ أين كنت منذ الصباح؟ اذهبي واعتني بأخيك).
والآن ها قد اعترفت، يمكنك محاكمتي، هيا، أطلق علي النار.
فقال وائل:
-لن أطلق عليك النار، ولكن غادري وحسب، فلن أذهب معك إلى أي مكان أيتها الكاذبة.
رفعت الفتاة محفظتها وقالت وهي غاضبة:
-كما تشاء، أنا سأذهب إلى الشاطئ، أما أنت فارجع إلى صحرائك التي أنت متيم بها. أتمنى أن تأكلك العقارب من عينيك حتى تصبح أعمى، ولا تجد من يقودك، فتقطع الطريق يوما فتمر شاحنة مليئة بالحمير وسائقها ثمل، فيصدمك وتموت، ويسقط حمار من بين تلك الحمير على جثتك، ليظل ينهق فوقها.
فقال وائل مستهزئا:
-لا بأس بذلك، شرط أن تكوني أنت التي تسقط علي من بينهن.
وتعالى الضحك من أصحاب الطاولة، إلا مراد فإنه قال غاضبا:
-أتنعتين تل الياسمين بأنها صحراء، وبأنها مليئة بالشاحنات التي تنقل الحمير؟ بالعكس، مدينتنا أفضل من العاصمة وأنقى هواء منها، وأكثر برودة، خاصة في الصيف، وتربتها أكثر سوادا من أكاذيبك.
فردت الفتاة وهي تبتعد وتهز رأسها محتجة:
-إذن فالرئيس مخطئ لأنه لم ينتقل إلى هناك.
فرد مراد وهو يصرخ غاضبا:
-ولماذا لا يخطئ الرؤساء. الرؤساء أيضا يخطئون. بل أظن أن تقرير مكان العاصمة هو أول أخطائهم وأصغرها أيضا.
هنا... ساد صمت رهيب.
في المقهى، الزبائن قطعوا حديثهم وكأن على رؤوسهم الطير. أما على الرصيف، فالمارة يمرون ببطء شديد، وكأنهم في فيلم بالتصوير البطيء، أو كأن الزمن قد توقف، ولم يمض وقت طويل، حتى خلا الشارع تماما من المارة. أما السيارات في الطريق فإنها تمر صامتة، وعوادمها صارت عاجزة عن نفث الدخان. واختفى الزحام فجأة، فأصبحت الطريق سالكة على غير العادة، بل إن الصمت بسط هيمنته على الجو أيضا، فقد لاحظ أحد الشلة عبور طائرة للأجواء دون أن تصدر أي صوت، فتعجب قليلا، لكنه خمن أنها قد تكون طائرة حديثة جدا ومتطورة فنحن في العاصمة، بل إن أحد الشلة مستعد ليراهن بألف دينار على أنه يستطيع سماع أنفاس صديقه، وأقسم بأغلظ الأيمان على أنه لو كان هنالك صمت يستطيع أن يصم الآذان لفعلها هذا الصمت بدون صعوبة.
أصبح الجو غير مشجع على الارتياح أبدا، لكن صوتا رديئا بدا وكأنه يخرج من بوق صدئ لا من حنجرة بشرية، انطلق إلى الآذان، فرد الحياة إلى النفوس الميتة، وبدد قليلا من ذلك الصمت اللعين.
-الصدقة يا مؤمنين، الصدقة يا مؤمنين، تصدقوا على أب سبع بنات وولد معاق.
وبدا صاحب الصوت للأنظار. كان متسولا يبدو كشخص في العقد السادس من عمره –فهؤلاء الأشخاص يظهرون غالبا في سن أكبر من سنهم الحقيقية-، كان يرتدي معطفا طويلا باليا قد رقعه في عدة أماكن. استطاع أن يرتديه في هذا الجو الخانق، وكان يرتدي بنطالا لم يسلم هو الآخر من رقعة في الركبة، وينتعل حذاء ثقيلا بنعل سميكة، كانت لتنفع صاحبها جدا في اقتحام الأوحال لكن ليس في يوم كهذا اليوم. وكان قد لف في يده بضع أوراق يستنتج الناظر بسهولة أنها ليست قصائد غرامية.
-وما شأن الشيخ المسكين والقصائد الغرامية. قد يهمس الناظر بهذا في نفسه.

مر ذلك المتسول على المقهى، وبدأ يطوف على الطاولات، وأتحفه أغلب الزبائن بما معهم من قطع نقدية. كرم فسره البعض بأنه شكر لله لأن ذلك الصمت اللعين قد أزيح، بينما فسره البعض الآخر بأنه مكافأة للمتسول الشجاع لأنه قد بدد ذلك الصمت بصوته، أما نادل المقهى فربما لم يشاطر الفريقين الرأي.
قصد المتسول إلى طاولة وائل وأصدقائه وهو يقول:
-الصدقة يا مؤمنين، الصدقة يا مؤمنين، تصدقوا على أب ثماني بنات وولد معاق.
فحدث سامي نفسه بحيرة شديدة:
-أظنني سمعت قبل قليل سبع بنات وليس ثمان.
وعبثا راح وليد يفتش جيوبه بحثا عن قطعة نقدية أو حتى ورقة، لكن دون فائدة، فقد كان مفلسا إفلاسا تاما.
بينما صرخ وائل:
-سنساعدك يا عماه، لا تحزن، إقترب أكثر.
ثم توجه وائل إلى سمير:
-أنظر يا عماه هذا الشاب الأشقر سيساعدك. أعطه يا سمير أربع مائة دينار وسأعيدها إليك لا حقا مع الحساب الآخر.
فصرخ سمير غاضبا: كما أعدت إلي آلاف الدنانير السابقة.
فصرخ وائل: هل تظن أنني لن أرد لك دينك. سأرد لك دينك، فأنا لا أريد أن أحترق في قبري. ثم قال: لا تقلق يا عماه سنساعدك. الحر شديد، أليس كذلك؟
فقال سمير للمتسول وهو يخرج محفظة من جيبه:
-سأعطيك أربعمائة، رغم أنني متأكد أنه لا توجد لا ست بنات ولا ولد معاق.
فقال وليد مصححا لسمير:
بل ثمان بنات وليس ستة.
فأبرز المتسول الأوراق وقال:
-انظر، هذه شهادة طبية تثبت إعاقة ولدي.
فقال سمير غير مهتم بالأوراق:
أقسم لك أنني أستطيع بأربعمائة دينار أن أجد طبيبا يعطيني شهادة طبية تثبت بأنني شامبانزي ولست بشرا.
فقال علي: لطالما وزع الأطباء هذه الشهادة مجانا، ومازالوا يوزعونها.
فقال وائل: سمير، صديقي، أعطه ستمائة دينار، أو لا...، أعطه ألف دينار أفضل من أجل أن يكون الحساب بيننا واضحا أكثر.
فرد سمير بغضب:
-لا بأس، لكن في المرة القادمة افعل الخير من جيبك لا من جيوب الناس يا بطل.
وأعطى سمير المتسول ألف دينار.
فقال وائل لسمير وهو يشير إلى المتسول:
-انظر إليه، إنه من البروليتاريا التي تدعي أنك تكافح من أجل تحريرها.
فقال المتسول مقاطعا:
-أنا لست من البروليتاريا هذه، بل أنا من حي النخيل.
نظر وائل إلى المتسول باستياء، كأنه لم تعجبه المقاطعة، ثم قال لسمير:
أنتم لا تعتبرون هذا المسكين من البروليتاريا، لأنه لا يستطيع شل مصانع أعدائكم الرأسماليين بالإضرابات. أنتم لا تضمون إلى البروليتاريا إلا من ينفعكم في معركتكم ضد أعدائكم.لا تضمون إلا العمال، وعندما كان الفلاحون هم من أقام دولتكم، اعترفتم بهم أخيرا، أما أمثال هذا الأكثر بؤسا وفاقة فلا تعترفون بهم لأنهم لا يفيدونكم، يا لكم من منفعيين. على كل حال، الذنب ليس ذنب هؤلاء، فأنتم من نشر الإتكالية والاعتماد على الغير، أجل، أنتم من نشرها.
فقال سمير:

-الآن أخذت المال يا وائل أفندي، تستطيع شتمي الآن كما تريد.
فقال علي:
-لا ترفعا صوتيكما بالشجار فنحن في مكان عام.
ثم أعطى علي السائل بعض القطع النقدية وقال له:
-خذ، كان الله معك يا عم.
فرحل السائل وجلس غير بعيد عن الطاولة.
وأضاف علي:
-قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى. لو أنك قلت له كلمة طيبة خير من أن تتصدق عليه ثم تسبه، فحفظ ماء الوجه أولى من إشباع البطن.
في هذه اللحظة، غمز سمير عليا، وأشار إليه أن ينظر إلى المتسول برفق، فالتفت علي إلى المتسول، ثم نظر إلى سمير، وهز رأسه، كأنه يقول لا أدري.
فقال سمير بصوت عال، كأنه يسمع المتسول:
-وليد، هل لديك حبوب مهلوسة؟
فانفجر وليد ضاحكا:
-حبوب مهلوسة؟ كنت أظن أنني الأحمق الوحيد الذي يتناولها هنا.
فضربه سمير على ذراعه منبها، ثم همس وائل في أذنه بشيء، فقال وليد:
-آه... أجل... الحبوب المهلوسة. لكن كيف تذكرها في مكان عمومي يا سمير، أتريد أن تسجننا. حسنا، لقد أحضرت منها كمية كافية لنا جميعا، كالعادة.
ثم أردف وليد وهو يظهرها:
-أحظرت من هذه، أنظر.
هنا نظر سمير برفق نحو المتسول، فوجده ينظر بتركيز شديد نحو وليد، فصاح سمير فزعا وهو يقرع الطاولة بيده: اللعنة؟
فانتبه المتسول ونظر نحو سمير، فقال سمير مستدركا:
اللعنة؟ لماذا أحظرت هذه الحبوب، لو جلبت من الأخرى أيها الأحمق.
فقام السائل ومضى إلى مقهى مجاور، وبدا كأنه قد نسي أمر وائل وأصدقائه الذين اقتربوا أكثر من سمير، وسأله وليد:
-أأنت متأكد أنه من الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم؟
فقال سمير:
-لقد كان ينظر إلينا بفضول كبير، أكبر بكثير من فضول شيخ بطال يجلس بجانب غرباء، خاصة عندما أظهر وليد الحبوب، لقد أمعن النظر إليها جيدا.
وليد: لقد أظهرتها له جيدا، إلا إن كان ظهر مراد السمين قد حجبها عنه. هل أنت متأكد أنه رآها؟ لأن هذا أمر مهم كما تعلم.
سمير: لقد رآها جيدا أنا متأكد.
وائل: هل نجونا إذن؟
علي: إن شاء الله نكون قد نجونا.
وائل: لكن كيف عرفت يا سمير أنه من الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم؟
سمير: تعلمون أن الناس ينقسمون إلى خائف ومخيف، وعندما حدث ذلك الصمت الرهيب الذي يحدث دوما عندما يتفوه أحد بكلمة مثل الكلمة التي قالها مراد. عندما حدث ذلك الصمت كان الجميع خائفا، باستثناء هذا المتسول، فقلت مادام ليس خائفا فهو من المعسكر المخيف، لكنني لم أفطن لذلك إلا بعد أن جلس بقربنا، وبدأ في مراقبتنا بفضول شديد.
فصرخ وليد:
لكن صحيح، ليخبرني أحدكم عن ذلك الصمت الرهيب الذي يحدث بعد أن يتلفظ أحد ما بتلك الكلمات، فدائما عندما يحدث أقول في نفسي: ما إن ينقضي فسأسأل عنه أحد الشلة. ولكنني أنسى أن أسأل عنه،

ربما من الفرح بانقضائه، فأخبروني ما هو ذلك الصمت؟ هل هو ظاهرة طبيعية أم ماذا؟ هو بالطبع ليس زلزالا، ولا طوفانا ولا بركانا، وليس ريحا أيضا، كما أنه ليس قوس قزح بالتأكيد، لكن ما هو؟ لأنني أكرهه أكثر حتى من الزلزال والطوفان، كما أنني لم أصادف عنه أي معلومة لا في كتاب ولا تلفاز ولا إنترنيت.
اللعنة؟ وكأنه ريح قادمة من الجحيم. ثم أردف وليد بغضب: وأضيفوا إلى معلوماتكم أيها الأبطال، أنني شعرت به أيضا في الثكنة،عندما كنتم تدخنون خارج القاعة وتتحدثون بتلك التفاهات، عن وجوب إصلاح الجيش، وأنه بهذا المستوى غير قادر على صد عصابة من الأطفال.
فقال علي:
نعرف أنه صمت رهيب، يمتد بطول شارعين أو ثلاثة، ويستمر من بضع دقائق إلى ساعتين، يحدث عندما يتلفظ أحد بكلمات لم يكن يحق له أن يتلفظ بها. هذا كل ما نعرف عنه في الوقت الحاضر.
بعد لحظات، جاء النادل مسرعا وهو يتلفت يمنة ويسرة، ثم توقف عند الطاولة يسترد أنفاسه ثم قال:
-هل أعطيتم للمتسول الذي كان هنا شيئا؟
فقال وائل:
-ولماذا تسأل؟
فقال: هل أعطيتموه شيئا؟ لأن هذا مهم جدا، أخبرني.
فقال وائل: نعم.
هنا زفر النادل أفا طويلة وهو يقول: الحمد لله.
فقال سمير: ما الأمر.
فقال النادل: الأمر أنكم نجوتم، هذا هو الأمر. كما أنني أحذركم، من أراد أن يتلفظ بتلك الحماقات، فليتلفظ بها في مكان آخر، أي مكان، المهم ليس في مقهاي، فقد نظفته للتو. لقد أفنيت شبابي وأهلكت ظهري سابقا في تنظيف سوائل الحمقى الأشقياء الذين إن لم يتكلموا من أفواههم لا أدري من أين كانوا سيتكلمون. أكيد كانوا ليجدوا مكانا آخر وبسهولة.
لكن أولئك الحمقى أتعبوني فعلا، فقد جربت كل أنواع المنظفات، لكن دون فائدة. غير أن صديقا نصوحا، هو نادل في مقهى آخر، نصحني أن أستعمل المنظفات الألمانية. لأنه ليس أفضل من المنظفات الألمانية في تنظيف تلك الأشياء، فقد جربها أيضا. وقد عرفت حكمته من أول يوم جربتها فيه. ما عليك إلا رش تلك الأشياء وتركها قليلا، وبعد ذلك مرر المنشفة فحسب، لتصبح الأرضية بيضاء. على النادل الجيد أن يستمع إلى نصائح النادلين الأكبر سنا.
فقاطعه سمير الذي لم يفهم شيئا:
-لكن ما قصة المتسول؟
فقال النادل مضيفا أسلوب التشويق:
-إيه... إنها قصة طويلة.
فقال سمير: تفضل، اجلس.
فجلس النادل رغم أنه تذرع في البداية بأن لديه عملا، لكنه في النهاية جلس.فهل هناك نادل في العالم يرفض عرضا مغريا كهذا، أن يجد ستة مستمعين بدل واحد، بل ومستمعون بانتباه أيضا.
فقال النادل:
أولا، أريد أن أطمئنكم، ما دمتم أعطيتم للمتسول مالا فلا تخافوا شيئا. لن تتوقف أبدا سيارة سوداء، ولن يهبط منها أولئك الرجال الذين يضعون لحى اصطناعية، ويحملون أسلحة رشاشة، ولن نشاهد غدا في الأخبار أن ستة مدنيين اغتيلوا على يد إرهابيين. لن يحدث ذلك لسببين:أولا، لأن الوضع قد تغير، ولأن الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم قد أصبحوا أكثر تسامحا. فحتى لو كان ذلك المتسول ناكرا للجميل، وأبلغ عنكم، فإنكم سوف تعتقلون وحسب. وأسوأ خبر قد تنقله نشرة الأخبار غدا، هي سقوط سيارة تاكسي في وادي شفة السحيق، تحمل ستة شبان وسائق تاكسي بريء –ميتة سيئة فعلا، لكنها مشرفة، لأنها ميتة الملوك، فهكذا مات الملك العراقي غازي، والأميرة ديانا-. وثانيا، لأن المتسول رجل طيب وهو ليس ناكرا للجميل أبدا، فهو يحب الكرماء كثيرا، وسوف يحافظ على حياتكم.

ثم أردف النادل وهو يشير بأصبعه محتجا أو محذرا أو كلاهما معا:
لكنه لا يقبل الإهانات أبدا، لا يمكنه تحمل إهانة، صحيح أنه رجل طيب، لكنه ككل الطيبين لا يتقبل الإهانات بصدر رحب.
هنا تغير وجه سمير قليلا، لأن سمير رجل عاقل، ولأنه لا يوجد عاقل يرغب في العبث مع الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، وقد عبث سمير قبل قليل مع أحدهم.
ثم أكمل النادل:
لقد ظهر هنا منذ مدة طويلة، لكن ما إن بدأ حتى أدرك أنه قد عثر لتوه على مغارة علي بابا، ووجد أن راتبه ليس إلا إكرامية إن قارنه بما يجنيه من التسول. فقرر التغاضي عن بعض التجاوزات الخطيرة التي يرتكبها بعض الحمقى، لأنه رأى أن الأجر الذي يتلقاه من الحمقى، أكبر بكثير من الذي يتلقاه من الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، لذلك رق قلبه لأولئك الحمقى. فأصبح يتجاوز لهم عن الكثير من الزلات، حتى لو تحدثوا بالسوء عن الرئيس أو الحكومة، إلا عن شيء واحد وتعرفونه جيدا. إنه الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، فإن المتسول الطيب لا يتسامح أبدا عند المساس بهم، وسيكون مضطرا إلى التخلي عن شيمته الحميدة التي هي العرفان بالجميل، بل سيصبح ناكرا للجميل جدا مهما أعطاه الأحمق الذي نال منهم من أموال. لأن المتسول الطيب يفضل أن يكون (حيا ناكرا للجميل) على أن يكون (ميتا كان بتمتع بأخلاق حميدة)، بل إنه إذا مات وكان محظوظا لتقام له جنازة ، فلن تكون جنازة رسمية أو عسكرية أو ما يشبهها من تلك الأشياء التي يقدمونها للميت تعويضا له عن تضحياته، لأن الميت كما تعلمون لا يستطيعون مكافأته بالمال أو النساء، أو تذاكر إلى أوربا في رأس السنة, لا يستطيعون إعطاءه إلا تلك الأشياء المعنوية التافهة. بل ستكون جنازة سرية في أحد البراري الموحشة، أو ستطمر جثته في الإسمنت ليصبح أساسا لأحد قصورهم الجميلة. فالناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم لا يتسامحون مع من يخون الوطن ولو كان منهم. أنتم تعلمون هذا أليس كذلك؟
هز المستمعون رؤوسهم بالإيجاب، عدة مرات وبسرعة ليعود إلى الموضوع، ففهم النادل وأكمل بسرعة:
-وعندما بدأ هذا المتسول الطيب كنت أنظف سوائل الحمقى الذين يبخلون عليه بالمال. لذلك فقد كنت أتعب كثيرا، فأنتم تعلمون أن البخلاء كثيرون جدا هذه الأيام،
وأظنه تعب أيضا مثلي –رغم أن عمله لم يكن صعبا، إذ كان ينحسر في إجراء مكالمة هاتفية واحدة لتظهر تلك السيارات- ، لهذا فأنا لا أظنه تعب، بل أظنه أشفق علي، لأنني تعبت من تنظيف سوائل البخلاء.
ثم أردف النادل والغصة تخنقه:
الذين كانوا بخلاء جدا بالمال، ولكنهم لم يكونوا أبدا بخلاء بسوائلهم. وليتهم بخلوا بسوائلهم كما بخلوا بالمال، على الأقل كان ظهري سيؤلمني أقل. صحيح أن رجال الحماية المدنية المساكين كانوا يتولون أمر الأشلاء، لكن تلك السوائل كانت تترك كلها لعمكم المسكين، كنت أتولى تلك القذارة كلها بنفسي. ولم أكن أعرف بأمر تلك المنظفات الألمانية بعد، تلك المنظفات الألمانية هي من أنقذ ظهر عمكم المسكين.
فقاطعه وائل وهو يصيح بغضب:
-أرجوك يا عم، دعنا من سيرة المنظفات اليابانية اللعينة تلك، وحدثنا عن المتسول.
فتح النادل زر مئزره الأعلى واستنشق بعض الهواء ثم قال:
-آه... أجل... المتسول... حسنا. في البداية كما قلت لكم كنت أنظف سوائل البخلاء، ولكن بعد ذلك صرت أنظف سوائل الذين يوجهون له إهانات فقط، فقد تنازل قليلا، لا أدري لماذا، ربما تعب أو أشفق على عمكم المسكين الذي كان لا يزال جاهلا بأمر تلك المنظفات الألمانية.
هنا رمقه وائل بغضب لكي لا يطنب في ذكر المنظفات الألمانية من جديد. ففهمه النادل فأكمل:
أو ربما علم أن البخلاء كثيرون وأن القضاء عليهم يحتاج إلى قنبلة هيدروجينية وهذا ما لم يكن يرضاه المتسول ذو الشيم الحميدة. فلكي يحقن الدماء اقتصر على الذين يوجهون إليه إهانات ويبخلون عليه بالمال في نفس الوقت، أظنه كان عادلا معهم جدا، فما داموا بخلوا بالنقود لماذا لم يغلقوا أفواههم وحسب، ثم أكمل مصعدا من لهجته وتملكته الغصة:

ولكن لماذا يهتمون؟ ما دام عمكم المسكين هو من يقضي النهار في تنظيف قذارتهم. هم ينامون إلى الأبد وعمكم المسكين يحمل عبء تنظيف تلك القذارة. هل يظنون أن تلك المنظفات الألمانية تحل المشكلة لوحدها دون أن يقوم شقي ما برمي الماء ورش المنظفات وحك الأرضية؟ المنظفات الألمانية تسهل المهمة فقط، لكن لا تحلها لوحدها، الملاعين، لا أدري كيف يفكرون.
فقاطعه وائل غاضبا:
يا رجل، ألا تستطيع أن تنسى أمر تلك المنظفات اللعينة للحظة؟
ثم قال وائل بلطف: أريد أن أسألك يا عم وأريد أن تجيبني، إن مراد لم يذكر إلا الرئيس، ولم ينل أبدا من الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، فلماذا جاء المتسول إلينا. وتذكر يا عم، لقد سألتك عن الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، ولم أسألك عن المنظفات اليابانية، لذلك فأجبني عن سؤالي.
فقال وليد بأصبعه مصححا:
-إنها المنظفات الألمانية وليس اليابانية، أليس كذلك يا عم.
فهرع العم إلى القول:
صحيح يا بني، فلا أذكر أنني استعملت المنظفات اليابانية، أنا الآن أستعمل الألمانية، وفي الماضي حين كان عمكم تائها في ضلال مبين، كان يستعمل المنظفات الجزائرية، تلك المنظفات التي لا تنظف حتى القارورات التي تعبأ فيها فكيف تنظف أشياء أخرى. لقد كنت حقا في ضلال مبين قبل أن يظهر ذلك الصديق النصوح.
فصاح وائل:
-مهلا، مهلا، أجبني عن سؤالي يا رجل، وإن لم تكف عن ذكر تلك المنظفات، فسألعن الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، وسيكون لديك حينها سوائل ستة أشخاص، بينهم شخص سمين، -وأشار وائل إلى وليد- لتنظفها. وقل للمنظفات اليابانية عندها أن تساعدك.
فصاح النادل وهو يضع يده على ظهره الذي آلمه فجأة:
يكفي، يكفي، لا تفعل أرجوك، لقد جاء المتسول ليس لأنكم ذكرتم الرؤساء فقط. بل لشيء آخر، وإن كنت تستطيع العد ستعرفه، هيا أخبرني، أليس عددكم ستة أشخاص؟ هذا عدد خطير جدا، لماذا لم تتفرقوا بين طاولتين؟ لماذا اجتمعتم على طاولة واحدة؟ انظروا حولكم. هل توجد طاولة عليها أكثر من أربعة. آه انظروا، هناك طاولة واحدة فقط عليها أربعة أشخاص، لكن انظروا ماذا يفعلون، إنهم يلعبون الدومينو، أما أنتم، فاجتمعتم ستة على طاولة واحدة، ولم تكتفوا بذلك بل قمت بإثارة الكثير من الشبهات، حتى إن أحدكم يحمل كتابا وبدأتم في التخافت بينكم، حتى قال صديقكم قولته التي كهربت الأجواء. لو لم تكونوا في مقهاي لتمنيت من كل قلبي أن يفجروكم، لأنكم بأفعالكم الحمقاء هذه كأنكم تتوسلون إليهم ليقتلوكم، وقد كانوا صابرين جدا معكم. واعلموا أن الرؤساء هم بمثابة صمام أمان لهم، فعندما يستمر أحمق ما في نقد الرؤساء فأكيد أنه سيصيبه الملل يوما ما، فينتقل إلى المرحلة الأخرى وهي نقد الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم. ليفجروا دماغه في مقهاي، وأصبح مطالبا بتنظيف سوائله المقرفة، بينما الأفندي مستلق على حمالة. لكنني منذ اهتدائي إلى استعمال المنظفات الألمانية، سهلت علي مهمة التنظيف. وأصبحت أقول لأولئك الحمقى: الآن موتوا كما تشاؤون، ولطخوا الأرض بدمائكم، وانثروا أدمغتكم على الرصيف مثلما يحلوا لكم، لن يستطيع فتية أغرار أن يفقدوا العم محفوظ صوابه، لن تنجح مقالبكم الشقية في إغضابي، أنتم وحدكم الخاسرون، فمع المنظفات الألمانية لا يحتاج الأمر إلا إلى دقائق، أولا نرش الدماء بالماء هكذا. –وركع وهو يشرح العملية-، ثم نأتي بالمنظفات ونرشها فوق الدماء ونترك المنظفات...
فقاطعه الشلة كلهم على إيقاع واحد:
-الرحمة يا رجل؟
وقال سمير: لم نعد نريد أي استفسار، ربما لديك شغل يا عماه، تستطيع الانصراف.
فقال وائل وقد بدا في عينيه بريق من الشر مع ابتسامة ماكرة:
-لقد تجاذبنا أطراف الحديث طويلا دون أن نتعارف، أنت الآن أمام ستة ضباط واعدين في الجيش الجزائري العظيم.
فتصلب النادل وكأنما أصابه مس من الشيطان، واستعد استعداد الجنود وهو يقول:

-أنا طوع بنانك سيدي، مقهى الجزائر البيضاء تحت تصرفك سيدي، أعذرني على التقصير في الخدمة سيدي، لقد أكثرت من قول التفاهات سيدي.
فقال وائل: فعلا لقد أكثرت من قول التفاهات.
فقال النادل:
لم أعرفكم في البداية سيدي، لقد كنت أتمنى أن ألتقيكم منذ مدة لأخبركم أنني شيخ ضال لا يصلحني ذلك الضرب الرحيم الذي كنتم تضربونني إياه أيها السادة الطيبون، وماذا يصلح الضرب في شيبة النار الذي لم يبق له إلا عين واحدة وخمسة أضراس وربع كبد وركبتان متورمتان وظهر مكسورة وكلية واحدة تعمل ومع ذلك لا يزال لسانه يشتغل مثل الماكينة، لقد أردت أن أخبركم أن تجربوا الكهرباء، فربما ستكون مفيدة لشيخ ثرثار مثلي، أو أن تسقوني المنظفات الألمانية فربما تنظف حماقتي –هنا تنحنح وائل منبها النادل فكف عن ذكر المنظفات- أنا أشك في أن تكون هذه الأشياء مفيدة بالنسبة لشيخ ضال مثلي، فدواء الشيوخ الضلال الوحيد هو تفجير أدمغتهم، ولكن زوجتي المسكينة وحيدة ومريضة ولم يبق لها في هذه الدنيا أحد سواي، فالبنت تزوجت والولد اختفى دون أثر منذ سنين، فأنا أنيسها الوحيد في هذه الدنيا. أنا أعلم أن التأديب لا يجدي حتى مع الصبيان، فكيف يجدي مع شيخ ضال قد نبت على الاعوجاج. شيخ كهذا لا يمكن تقويمه أبدا. ولكن أرجو أن تتغاضوا عن أخلاقه الفظيعة من أجل زوجته المسكينة الصالحة.
فقال وائل مشفقا:
-اذهب يا عماه، لا بأس عليك. ولكن لا تعد للإكثار من الحديث. مرة أخرى، عندما تنوي الحديث عن تلك الأشياء، فتذكر زوجتك المسكينة التي ستبقى وحيدة، هذا هو دواؤك الوحيد.
فصاح النادل:
-يا له من دواء؟ لم أفكر فيه من قبل، لا عجب أن الجيش اختاركم، فالجيش أدرى بقادته المستقبليين. سدد الله خطاكم.
فأشار إليه وائل بالانصراف فانصرف.

قال علي:
كنت أظنك رجلا عاقلا يا وائل. كيف تسمح لنفسك بإخافة ذلك الشيخ المسكين، ألم تعلم أن محمدا (ص) قد نهى عن إخافة الأخ لأخيه. فقد كان جالسا ذات يوم مع جماعة فانفلت رجل لحاجة ما، فقام أحد الجلساء بإخفاء حذائه، فلما عاد الرجل ولم يجد حذاءه خاف وظن أنه سرق، فأمر محمد (ص) الرجل بإرجاع الحذاء إلى صاحبه، وأخبره أن من أخاف أخاه في الدنيا كان حقا على الله أن يخيفه في الآخرة، ولو كان ذلك بقصد المزاح. وأنت دبرت هذا المقلب لذلك الشيخ، ماذا لو كان مريضا، أو مصابا بأحد الأمراض التي يصاب بها المسنون، ألم يكن ليسقط ميتا في الحال، فعلا هذا احتمال ضعيف، ولكنه يبقى موجودا.
فقال وائل معتذرا:
-لقد أفقدني صوابي بذكره لتلك المنظفات، فأردت أن أخيفه، هذا كل ما في الأمر، لكنني عذرته عندما بقي متمسكا بها حتى وهو يظن أنه بحضرة الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم، المسكين، سأعطيه إكرامية لعله سيسامحني أمام الله. سمير، صديقي، وسندي، وذراعي الأيمن، أعطه إكرامية عندما تدفع الفواتير، وأضفها إلى الدين.
فقال سمير غاضبا:
-انظروا إلى الحقير، يتحدث وكأنه متأكد جدا أنني من سيدفع الفواتير، بل ويطالب بأن أدفع إكرامية أيضا، هل تظن أن لدي آلة لسك النقود.

وائل: أجل لديك آلة لسك النقود، وهي الأقنان الذين يعملون في مصنعك.
سمير محتجا: ليست مصنعا، إنها مجرد ورشة، كما أنهم ليسوا أقنانا، بل هم شركاء.
وائل: المهم أن فيها أكثر من خمسة أقنان، كما أنك تثمل بفائض القيمة خاصتهم في اليونان، أليس كذلك؟
سمير: أنا لا أستأثر به وحدي، فإن لديهم نسبة في الأرباح، لكل واحد نصف في المائة، ولا تنس الضرائب التي أدفعها للدولة، والجزء الآخر الذي أدفعه لوائل أفندي، أما الباقي فأغطي به مصاريف الاهتلاك، أو أعيد استثماره للتوسع، من أجل ابتلاع المصانع الأخرى التي تهضم العمال حقوقهم، ومن أجل فرض النظام الشيوعي فيها، أين يكون العمال مالكين لوسائل الإنتاج مثلما هم كذلك الآن في ورشتي، أفهمت الآن لماذا أستثمر جزءا من فائض القيمة -الذي أقر بأنه حق للعمال- في مشروعات جديدة؟ إنه تبرع مني ومن العمال -الذين أسميهم شركاء- من أجل تحرير العمال الآخرين من ربقة الاستعباد.
وائل: وأنت ألا تأخذ شيئا؟ وماذا عن ذهابك المستمر إلى اليونان؟ أم أن هذا استثمار أيضا؟
سمير: من حقي أن أصرف أكثر منهم، لأن لدي مصاريف كثيرة ذات بعد فكري وقيادي، وهي تصب أخيرا في مصلحة الشيوعية.
وائل: لماذا لديك مصاريف ذات بعد فكري وقيادي دونهم، هيا قلها، لن نتهمك بخيانة الشيوعية، أو أنا سأقول لك؟ لسبب واحد، وهو أنك تملك وسائل الإنتاج من بينهم لذلك تستأثر بالتفكير والقيادة دونهم، أليست هذه طبقية، يا لها من شيوعية أفلاطونية، كأننا في مدينة أفلاطون الفاضلة، حين يشتغل الأحرار بشرب الشاي والحديث في السياسة، ويتولى العبيد أمر تنظيف القذارة وإعداد الشاي وسياسة الخيل، هذه هي شيوعية لينين يا سمير، شيوعية واقعية، أين لا يشغل الحداد والنجار وعامل الأفران منصب رئيس الدولة التي أقيمت باسمهم، وذبح الناس في سبيلها باسمهم،
سمير: كل هذا الهجوم منك لأنني أذهب إلى اليونان من وقت إلى آخر؟ أنا لا أذهب إلى اليونان سائحا، وأنت تعلم جيدا لماذا أذهب، أحيانا اذهب وتودعونني وأنتم تعتقدون أنني لن أعود، أو أعود إليكم في تابوت. لكنني حقا أريد أن أسألك يا وائل، لماذا أنت دائم الانتقاد لي، لماذا لا تنتقد عليا رغم أنه لا يعطيك فلسا؟
فقال وائل:
-لأنني مع الحق، فأنا لست مرتشيا، كما أنه يجب أن تتضامن معي في مسألة النقود هذه، فأنا أشبه أستاذك وحبيبك ماركس الذي سمعت أنه كان أيضا يعيش على الديون لكن دون أن يرد شيئا منها، غير أني سأرد لك دينك.
سمير: لقد كان علي يتحدث عن تلك التفاهات المتعلقة بترويع الناس وما إلى ذلك، بل كان نقده موجها إليك شخصيا.
علي: أنا لم أكن أتحدث عن تفاهات، أنا كنت أتحدث عن حق من حقوق الإنسان على أخيه الإنسان. لقد كانت نية وائل حسنة، فقد كان يريد المزاح مع النادل، لكنه لم يكن يعلم أنه قد يقتل النادل بذلك المزاح. لذلك فقد حرم محمد (ص) إخافة الإنسان لأخيه ولو مازحا، فالإسلام صارم جدا في هذه الأمور. أتعلمون أن محمدا (ص) أمر من يحمل سكينا أو سيفا في مكان عام أن يحمله من النصل لا من المقبض مخافة أن يؤذي المارة؟ كما أنه لعن من يتبول في الماء الذي يستعمله الناس في الشرب والغسيل، ولعن من يقضي حاجته في ظل الأشجار والحيطان لأنه بذلك يحرم الناس من الظل، ونستطيع أن نعمم في وقتنا الحاضر ذلك على جميع الأماكن العمومية كالحدائق العامة ومحطات المسافرين فكل الأماكن العامة المخصصة لراحة الناس لا يجوز تلويثها بأي شيء من شأنه أن ينفر الناس منها. ولعن من يشير إلى أخيه بالسلاح ولو مازحا ، لأنه قد يخطئ ويقتل أخاه، مع أن السلاح في ذلك الوقت كان السيف، لذلك لم يفهم الناس وقتها خطورة المزاح بالسيوف، لكنهم لو أدركوا عصر الأسلحة النارية ورأوا الآلاف الذين يموتون بنيران الظرفاء خفيفي الظل لعلموا أن محمدا (ص) كان يقصد عصرنا أكثر من عصرهم بذلك التحريم. وكلكم يعرف جاري منير، الذي جاء مشتاقا إلى أمه في عطلة عيد الفطر، وفي صباح العيد جاءت أمه لتوقظه فعانقها وأشار إليها مازحا بالمسدس فانطلقت الرصاصة، ليقضي حياته في مستشفى المجانين، وهو يقول أن المسدس لم يكن محشوا وأن أمه ماتت بسكتة قلبية ولم تمت بالرصاص.
ثم أردف علي بحزن:

أتعلمون يا أصدقاء؟ لو أن جميع الناس -بما فيهم منير- عملوا بما جاء به محمد (ص) من عند الله لعاشوا سعداء.
نظر الشلة إلى بعضهم، لكن عليا أردف بسرعة:
ومن الحقوق أيضا حرمة المسكن، ولا يوجد دين ولا قانون حفظ حرمة المسكن مثل الإسلام. فقد جعل الله في القرآن أوقات يحرم فيها على الإنسان أن يدق باب أخيه، إلا للضرورة القصوى. الأولى تمتد من الظهر إلى العصر، والثانية تمتد من العشاء إلى الفجر، أما في الأوقات الأخرى المسموحة فقد أوجب الاستئذان قبل الدخول، بل إنه أوجب استئذان الرجل حتى في بيته، فقد جاء رجل إلى محمد (ص) وأخبره أنه يسكن مع أمه فقط، فهل يجب عليه الاستئذان، فقال له محمد (ص) نعم، فقال الرجل: إنما هي أمي يا رسول الله، فلماذا أستأذن؟ فقال له محمد (ص): أتحب أن تراها عارية؟ أي أن الاستئذان واجب لأن من يسكن الدار قد يكون في حالة لا يريد أن يراه أحد عليها. بل إن الاستئذان واجب حتى لو كان البيت فارغا. أما طريقة الاستئذان فهي أن يأتي بالقرب من الباب ويقول السلام عليكم، وإن شاء فليطرق، المهم ألا يتجاوز ثلاث مرات مهما كانت الظروف، فإن لم يفتح له الباب فليرجع. وحكمة وجوب الاستئذان بالصوت دون وجوب الطرق هي أن يعرف صاحب البيت صوت الزائر، فإن كان راغبا فيه فتح وإلا فلا.
ففي ظل قوانين الإسلام يكون الشخص ملكا في بيته، فقد كفل الإسلام للشخص حصانة استثنائية داخل البيت. فقد حرم الإسلام الآفات الإجتماعية كالزنا والخمر والمخدرات وقرر عقوبات على من يفعلها، لكنها تسقط عن الفرد إن قام بها في بيته، لأن القضاء غير معني بالأمور التي تحدث في البيوت –ما لم تمس بالحق العام طبعا- فما يحدث في البيوت الله وحده يتكفل بالمعاقبة عليه يوم القيامة، أما القذارات التي تنبعث إلى الخارج وتفسد المجتمع فتلك ما يتكفل القضاء بها، لكن الحصانة تسقط إذا اشتكى من تلك الآفات أحد ساكني البيت الآخرين، أو إذا اشتكى أحد الجيران، هذه الحصانة التي تسمى في الإسلام بحرمة المسكن.
كما أن الإسلام قد حرم على الجار أن يتجسس على جاره أو أن يؤذيه أي إيذاء، فقد قال محمد (ص) –وقد سئل عن امرأة تفني حياتها في الصلاة والصيام لكنها تؤذي جيرانها- : هي في النار.
وقد قال محمد (ص) : أن روح القدس جبريل ظل يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيجعل للجار حقا في ميراث جاره، قد فهم المسلمون الأوائل عظم حق الجار، مثل ذلك المسلم الذي كان له جار يهودي وكان مرحاض الجار اليهودي ملتصقا بجدار مع غرفة المسلم، وفي الجدار ثغرة فكان المرحاض يبعث بالمياه القذرة إلى الغرفة، فكان المسلم يضع طستا لتصب فيه تلك المياه، وعندما يمتلئ يضع مكانه طستا فارغا ويصب الممتلئ في مكان آخر، وظل هكذا لعدة سنوات، ثم مرض الرجل المسلم مرض الموت، فاستدعى جاره اليهودي، وأخبره بأمر التسرب، وطلب منه أن يصلحه. فقال اليهودي: ولماذا لم تخبرني من قبل حتى أصلحه؟ فقال له: لولا أنني على فراش الموت لما أخبرتك، ولكنني خفت أن أموت ويتضايق أولادي من ذلك التسرب فتقع لك مشاكل معهم.
كما أن الإسلام قد حرم أن يلحق الجار أي ضرر بمسكن جاره، أو بالأشياء المشتركة بينهما كالحيطان مثلا ، فقد حرم أن يعلي الجار حائطه إلا بإذن جاره مخافة أن يحجب عنه الشمس، كما حرم على الجار أن يحدث أي تغيير على الحائط المشترك بينه وبين جاره إلا بإذنه، تحريم نعلم مدى جديته إذا عرفنا أن محمدا (ص) بعد ذلك كان يناشد الجار أن يسمح لجاره بثقب الجدار المشترك بينهما عندما يأتي ليستأذنه، وألا يتعسف في استعمال حقه الذي كفله له الإسلام.
كما أن الإسلام قد شجع التضامن والتكافل بين الجيران، إذ أسس نظاما مدنيا رائعا، حيث سعى لاستبدال النظام القبلي –الذي وحدته القبيلة- بالنظام المدني –الذي وحدته الحي- وقد نجح في سعيه إلى حد كبير.
فقد كان في الحواضر الإسلامية نظام مدني فريد من نوعه. لم تبلغه –إلى حد اليوم- أي حضارة، أين كان الجيران يعيشون في نظام تكافلي رفيع، لا يؤذون بعضهم بعضا، بل أوجب عليهم أن ينفعوا بعضهم بعضا، وأن يتفقدوا بعضهم بعضا، ليس مثل حواضر اليوم الممتلئة بالمتوحدين، أما في الحواضر الإسلامية، فلن يضرك أبدا أن لا يكون لك عائلة، فقد أوجب الإسلام على المسلمين أن يتفقدوا بعضهم وأن يعود الجار جاره المريض وأن يتضامن معه ماديا وأن يحمي أملاك جاره، وأن يحفظ عرضه إذا غاب – رتب الإسلام الكبائر فجعل ثالثها: الزنا بزوجة الجار- كما قال محمد (ص) بما معناه : السرقة من عشرة

بيوت أهون من السرقة من بيت الجار، والزنا بعشرة نساء أهون من الزنا بزوجة الجار، وقد قال محمد (ص) بما معناه: من نصب قدرا فليكثر مرقها وليبعث لجاره، ولا تزال تلك عادة سائرة في البلاد الإسلامية اليوم، وقال أيضا: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، فقال أصحابه: من يا رسول الله فقد خاب وخسر والله، فقال: من بات شبعان وجاره جائع. وقال محمد (ص)بما معناه: (ما من أهل عرصة –أي حي- يمسون شباعا وبينهم جائع واحد إلا أمسوا وهم بريئون من ذمة الله). فالإسلام ليس مجرد شعائر تؤدى بل هو عقيدة تعتنق وأخلاق تظهر على المجتمع ومبادئ لا تقبع في المسجد فقط، بل تسيطر على السوق وتحكم البيت وتقرر نظام الدولة وتظهر على الحياة الشخصية للفرد.

أما في قضية اللجوء السياسي، فلا يوجد دين كفل ذلك مثل الإسلام. إذ يكفي اللاجئ إلى الدولة المسلمة – ولو كان عدوا لها- يكفيه أن يكفله أحد مواطني الدولة المسلمة، مهما كان مستوى هذا المواطن –ولو كان عامل نظافة أميا فقيرا- يكفيه أن يدخله بيته ثم يعلن أنه قد كفل هذا اللاجئ بقوله: إن فلانا في جواري وهو في مسكني، وبمجرد هذا الإجراء يكون المواطنون والسلطات على السواء مجبرين على احترام حق اللجوء، وهو ما عبر عنه محمد (ص)بـ: (يجير على المسلمين أدناهم). وهناك طريقة أخرى للحصول على ذلك الحق، والتي هي بيد الحاكم، إذ أن محمدا (ص) أعطى للحاكم حق إعطاء اللجوء للهاربين من الإضطهاد، أو التجار أو الحجاج....

وهذا الحق يسمى في الإسلام بالعهد أو الذمة، وكما يعطيه الحاكم لفرد واحد يستطيع أن يعطيه لشعب بأكمله، فهناك عدد كبير من الشعوب التي لجأت إلى الدولة العثمانية عندما جن الكاثوليك وبدأوا في إبادة الناس، فمثلا، أذكر لكم يهود اسبانيا الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية عندما استرجع الإسبان الأندلس وبدأوا في إبادتهم، لأن اليهود كانوا قبل ذلك قد استقروا في اسبانيا بعد أن فتحها المسلمون. ففي القرون الوسطى كان حكماء أروبا يتعجبون من التعايش الكبير بين الأقليات في الدولة المسلمة الفسيحة التي تمتد من الهند شرقا إلى المغرب الأقصي، ومن موسكو شمالا إلى الصومال جنوبا، بينما في أروبا كانت تعقد المحاكمات دوريا لإحراق المهرطقين، وكانت الإبادات الجماعية ومحاكم التفتيش تقام بمباركة الجميع هناك، وكان كونك أبرص أو أعور يعد جريمة كافية لإحراقك بتهمة أنك شيطان. اضطهاد جعل أروبا المنطقة الأقل تنوعا من حيث الأقليات الدينية، إذ عدد الأديان فيها تحسبه أصابع اليدين بسهولة. فيما لو أخذنا كمثال أصغر مدينة في لبنان أو العراق لوجدنا عدد الأديان فيها لا يقل كثيرا عن عدد سكانها.

لقد شدد الإسلام على وجوب احترام العهد -أو الذمة- إذ كان محمد (ص) يعلن : (من آذى معاهدا فقد آذاني) و (من قتل معاهدا فأنا خصمه يوم القيامة)، ولهذا ففي الدولة المسلمة، رغم الأزمات التي مرت بها، كان أكثر المواطنين أمانا هو المعاهد، ولم ينقل التاريخ أن المسلمين قتلوا معاهدا واحدا، سواء أكان نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا أو من أي طائفة أخرى، بل إننا نرى (الخوارج) أفظع فرقة إرهابية ظهرت في التاريخ الإسلامي، وأكثرها توحشا، الفرقة التي قتلت عثمان (ر) بدم بارد وقتلت عليا (ر) في المسجد، مر بعض أفرادها ذات يوم ببستان نخل يملكه نصراني، فأخذوا من عنده التمر ودفعوا له ثمنه، فرفض النصراني أخذ الثمن، فأقسموا عليه بأن يستلم الثمن، ورأى أحدهم تمرة فالتقطها من الأرض، فانتزعها منه صاحبه وقال له: نحن لم ندفع ثمن هذه، وتعلم ماذا قال محمد (ص) في الحفاظ على مال المعاهد. كما أن الخوارج هؤلاء الذين كانوا يستحلون دماء المسلمين (واختلفوا في أطفال المسلمين هل دمهم حلال أم لا) وكانوا يعتبرون أموال المسلمين غنيمة، وبناتهم جواري، كان إذا لقيهم المسلم قتلوه، وإذا لقيهم المعاهد قالوا: إنه معاهد بعهد نبيكم، فاحفظوا ذمة نبيكم وعهده. بل هذا ما جعل المسلمين عندما يلقون الخوارج ويسألهم الخوارج: ما أنتم. يقولون لهم نحن نصارى أو يهود. فيتركونهم في حال سبيلهم، بل أحيانا يرافقونهم كموكب حراسة حتى يبلغوهم مأمنهم طبقا للآية الكريمة: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وهنا نرى القدسية الشديدة التي كانت تحظى بها حقوق المعاهدين في الدولة الإسلامية. حيث كان احترام حقوق الأقليات ينبع من قلب الفرد المسلم، مما يجعله يحترمها من تلقاء ذاته، دون إرغام من قانون، أو خوف من الرأي العام، بعكس الحضارة الأوربية اليوم التي تدعي احترام الأقليات، مع أنه بين الليلة والليلة تجد الشرطة جثة شاب أسمر ملقاة في زاوية أحد الشوارع، يا لهم من متخلفين، نحن في القرن الواحد والعشرين ولم يتعلموا بعد كيف يتقبلون الآخر، ولا زالوا كل نصف قرن ينتخبون اليمين المتطرف ليبيد أو يطرد الأقليات التي استوطنت في النصف قرن

الماضي. كأني بهم يقولون للمهاجرين: اغزونا كما تشاءون، فبعد خمسين سنة ستعودون. فأوربا كل نصف قرن تنتفض لتطهر نفسها مثلما ينتفض العصفور حين يبلله ماء المطر.
ثم أضاف علي:
أنا حين أتحدث عن الإسلام أتحدث عن أمور واقعية حدثت فعلا في الدولة الإسلامية، ويمكن أن نعيد بناء تلك الدولة، فأنا لا أتحدث عن دولة طوباوية، والتفت إلى سمير. ولا عن دولة منافقة، مصابة بانفصام في الشخصية، والتفت إلى سامي.
فقال سامي:
-أنتم يا علي دائما تزعمون أن للإسلام رأيا في كل شيء، غير أنني أشك في ذلك.
فقال علي:
-وفيم تشك يا صديقي سامي، أسمعت الحقوق التي كنت أتلوها عليك قبل قليل؟
هز سامي رأسه بالإيجاب، فاستأنف علي:
-كلها وردت في الأحاديث التي قالها محمد (ص) أو وردت في القرآن، لم آت بشيء من عندي، وهي أحاديث صحيحة نقلها رجال أمناء، حتى دونت في القرن الأول من وفاة محمد (ص). وأظنكم تعلمون شيئا عن علم الحديث، الذي هو علم قائم بذاته، فقد كان علما حقيقيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حتى المستشرقون –الذين هم غربيون مهتمون بتاريخ الشرق- وقفوا مندهشين أمام موضوعيته ودقته وصرامته وقواعده الرصينة، مما لا يدخل أي شك في صحة نسبة أي حديث إلى النبي محمد (ص) إن قطع علماء الحديث بصحته. فعلماء الحديث لم يكونوا يأخذون الحديث عن أي كان، بل كانوا يشترطون شروطا صارمة في رواة الحديث. فالبخاري مثلا –أحد أشهر علماء الحديث- قطع ذات مرة مئات الأميال ليسمع من رجل حديثا تفرد به عن رسول الله، فلما وصل إليه واستضافه ذلك الرجل في بيته، رآه يدخل فرسه إلى الإسطبل والفرس نافرة من الدخول، فقرب إليها حفنة من العلف وبدأ يبعدها عنها والفرس تتبع الحفنة حتى أدخلها وأغلق عليها الباب، دون أن يعطيها تلك الحفنة، عندها رحل البخاري من عنده بعد أن أخبره أنه لن يأخذ من عنده ذلك الحديث، لأنه كذب على الفرس فما الذي يضمن أنه لن يكذب على الناس، لقد بلغ علماء الحديث من الصرامة والموضوعية مبلغا عظيما، فهاهو أحد علماء الحديث -الذي كان أبوه أحد رواة الحديث- يسأل عن أبيه، هل هو جدير برواية الحديث أم لا، فكان هذا العالم يجيب والدموع تفيض من عينيه: لا، لا تعتدوا بالأحاديث التي رواها أبي، فقد كان أبي –رحمه الله- كذابا.
فالدين الإسلامي يتألف من عقيدة وشريعة –أي قانون-، ليس كالنصرانية التي لا تحتوي على شريعة، أما اليهودية فهي مثل الإسلام تحتوي على شريعة وعقيدة، لكنها محرفة تحريفا فظيعا، حسب أهواء الحاخامات، الذين كانوا يحتكرون التوراة عندهم يبدلونها مثلما يشتهون، أما الإسلام الذي كتابه هو القرآن فقد كان متاحا للعالم كما كان متاحا أيضا للحرفي والمزارع والعبد والجندي، ويكفي لإقناعنا علمنا بأن المسلمين –بكل أطيافهم- منذ حياة محمد (ص) إلى اليوم يواظبون على قراءة القرآن كاملا مرة في السنة، في صلاة التراويح التي تقام شهر رمضان، دون أن نتطرق إلى العدد الخيالي للمسلمين الذين يحفظون القرآن حرفيا من الدفة الى الدفة. وأنتم تعلمون أن المسلمين ليسوا مجمعين فقط على قرآن واحد، بل هم مجمعون أيضا على عدد حروفه، في الوقت الذين نجد فيه عدد الأناجيل عند النصارى لا يقل كثيرا عن عدد حروف القرآن، إذن فالقرآن الذي نجده الآن في ذاك المسجد -وأشار علي إلى مسجد تظهر مأذنته من بعيد- لا يختلف في حرف واحد عن القرآن الذي يوجد في مسجد في الإسكندرية أو أصفهان أو جوهانسبرغ أو بغداد أو مكة أو كوسوفو أو شيكاغو أو روما، أو حتى في بغداد في القرن العاشر أو دمشق في القرن الثاني عشر أو القسطنطينية في القرن الخامس عشر أو جيبوتي في القرن السابع عشر، بل لا يختلف في حرف واحد عن القرآن الذي كان يتلوه محمد (ص). لا أظن أن هناك كتابا –سماويا أو بشريا- في التاريخ كله بهذا التطابق، والمخطوطات الموجودة في متاحف أوربا قبل متاحف البلدان الإسلامية، تدل على صدق ذلك. إن هذه السلامة العظمى من التحريف والتي لا يحظى بها كتاب سوى القرآن إنما تدل على شيء واحد، أن للعناية الإلهية دخل في ذلك، من أجل أن تحفظ هذا الكتاب من التحريف، لكن لماذا تحفظ العناية الإلهية هذا الكتاب من التحريف؟ ربما لأنه يوجد أناس في مكان ما، ربما عرب أو أتراك أو فرس أو أفغان أو بربر أو زنوج أو هنود أو أسيويون أو أوربيون أو حتى يهود،

سيهتدون لهذا الدين ويعيدون إقامة الدولة التي دستورها ذلك الكتاب الذي سهرت العناية الإلهية على حفظه دون غيره طيلة هذه السنين. وكلكم تعرفون ذلك اليهودي الذي راوده شك في عقيدته، فدعا الله مخلصا أن يهديه للدين الحق، وكان ذلك اليهودي خطاطا، فقام بنسخ التوراة وغير فيها حرفا، ثم أخذها إلى الحاخام فقرأها ثم قال له أحسنت واشتراها من عنده، وفعل نفس الشيء مع الإنجيل واشتراه القس من عنده أيضا، ثم نسخ القرآن وغير فيه حرفا وأخذه إلى الإمام، فما إن قرأ منه الإمام حتى وجد الخطأ، فرد إليه النسخة ونبهه إلى الخطأ، فعلم اليهودي أن القرآن هو كتاب الله المحفوظ ودخل الإسلام.
لذا يا صديقي سامي لا أجد شيئا يستحق الشك، فالإسلام قد شرع قوانين لكل شيء، من قضايا الاقتصاد والسياسة الكبرى إلى كيفية التعامل مع الحيوان -التي هي أيضا قضية كبرى-.
سامي متهكما:
-وكيفية استعمال الحمام، هل هي موجودة أيضا؟
فقال علي: طبعا موجودة. تصب الماء باليمنى، وتغسل نفسك باليسرى، ولا تلمس نفسك باليمنى إطلاقا، لأنك باليمنى تصافح الناس، وتأكل الطعام، وتدفع مقبض باب الحمام باليمنى، وتفتح الصنبور باليمنى، وتحمل الإناء باليمنى، فاليسرى لا تستعملها إلا لتنظيف نفسك في الحمام، أو لتتمخط بها، أو لتكمم بها فمك عندما تتثاءب، أو لتغسل بها نفسك من السوائل بعد العلاقة الجنسية، إذن فاستعمال اليسرى مقتصر فقط على تنظيف كل المجاري الموجودة بالجسم، أما اليمنى فتستعملها في الشؤون والحركات التي تقوم بها في حياتك. وبعد خروجك من الحمام يا سامي فالإسلام أوجب غسل اليدين على الأقل ثلاث مرات بالماء، وأظنك تعرف الأحاديث التي نصت على ما قلت، أم أورد لك الأحاديث التي نصت على ذلك يا سامي؟
فقال سامي:
لا داعي لذلك، فقد درسناها في مادة التربية الإسلامية، وأنا أحفظها أكثر منك، (من مس فرجه بيمينه فليتوضأ) و (أخبر الحسن بن علي مروان بن الحكم حين رآه يتمخط بيمينه أن الإسلام يأمر المسلم بأن يتمخط بيساره) أما استعمال اليمنى (كان يحب التيامن في كل شيء) وغيرها من الأحاديث.
فقال علي:
ولماذا سألتني؟
فقال سامي: أردت أن أمزح معك فقط، لكن قل لي بربك، ماذا بقي للفرد من الحرية إن كان مقيدا حتى في كيفية التبول؟
فقال علي:
-ليس الأمر متعلقا فقط بحرية الفرد. اعلم أن حريتك تنتهي حيث تبدأ حريتي، فلا توجد حرية مطلقة أبدا، فلكل إنسان مجال من الحرية محدد بمجالات حرية الآخرين المجاورين له. ولو كان كل إنسان يتصرف بحرية لكان العالم أشبه بمارستان كبير، فالمجنون وحده من يفعل ما يريد إذا استطاع، وتعلمون المثل العظيم الذي ضربه محمد (ص) لوضعية الفرد في المجتمع. إنه مثل مقنع جدا، لو ذكرته لك الآن لاقتنعت فورا. إن وضعية الفرد في المجتمع مثل جماعة في سفينة في عرض المحيط، وبينما هي تبحر في سلام إذ قام أحدهم وأخذ فأسا وبدأ يحفر تحت قدميه، وينحت أرضية السفينة، فقال له أصحابه: ماذا تفعل؟
ستغرقنا. فقال لهم إنه مكاني، وأنا حر في مكاني أفعل فيه ما أشاء. فإن هم اقتنعوا بحججه التافهة، غرق وغرقوا، وإن هم منعوه، نجا ونجوا.
ففي مثال المرحاض أنت حر في أن تغسل نفسك باليمنى لكن إذا لمست -بيدك التي غسلت بها نفسك- مقبض باب المرحاض، أو فتحت الصنبور أو صافحتني بها، حينها تكون قد ارتكبت جريمة معي، لأنك ستنقل لي إبولا أو التهاب الكبد الفيروسي أ، أو بيوض الديدان، فكل ما في الأمر أن الإسلام حد من حريتك قليلا جدا من أجل أن يحمي صحة آلاف الناس من حولك، وبالمقابل فقد حد من حرية الناس من حولك أيضا من أجل أن يحمي صحتك، وبالتالي فأنت تخسر جزءا طفيفا من حريتك لتربح عدة أجزاء طفيفة من حريات الناس من حولك، وهم أيضا يفعلون نفس الشيء. يا صديقي سامي، يمكنك الرحيل إلى المريخ، وهناك يمكنك أن تنظف نفسك بيدك اليمنى بسعادة، لأنك ستكون وحدك.

وعندما حرم الإسلام الخمر يا سامي هل تظن أنه قيد حرية المرء، على العكس، لقد حرره من العبودية للخمر. فبالله عليك هل الثمل هو شخص حر؟ أنا أتعجب من الإنسان حين يظل يصرخ: (أريد الحرية، أريد أن أشرب الخمر) فإن أعطيناه تلك الحرية فإنها لن تدوم له طويلا، لأنه بمجرد شربها سيصبح عبدا لها، خاضعا تحت تأثيرها، أنها حرية مؤقتة، ظاهرها الحرية وباطنها العبودية. إنها تماما مثل أن يقوم إنسان ويقول: أنتم تقيدون حريتي ، لأنني أريد أن أكون عبدا لفلان وأنتم تمنعونني. فهل نعطيه حرية مؤقتة، ونتركه يصبح عبدا لفلان ليصبح ذلك آخر قرار يتخذه باختياره، أم نمنع عنه تلك الحرية المؤقتة من أجل أن يبقى حرا إلى الأبد، لأن تلك الحرية المؤقتة سرعان ما ستنقلب إلى العبودية الأبدية، لذلك فالإسلام يبيح لك كل الحريات إلا حرية تضر بمن حولك، أو حرية تجعلك عبدا لشيء ما. فالإسلام يحرر الإنسان من كل عبودية إلا لله، يحرره أن تستعبده فكرة أو بشر أو شهوة أو قوة أو جمال.
كما أننا إذا أعطيناك حرية لتشرب الخمر، فلن تفقد حريتك فقط، بل ستؤثر على حرية الآخرين. فعندما تنفق مالك في الخمر لن يكون ولدك حرا في اقتناء حلوى أو لعبة، بل حتى لو كنت غنيا فستهمل زوجتك وأبناءك وستحرمهم من وقتك، وستعربد على جيرانك، وقد تهدد حركة المرور في الطريق، فربما ستحرم حريتك الكمالية تلك أحدهم من حرية التنفس.
ألم تعلم أن الإنسان هو في هذه الدنيا في امتحان، إما أن يهتدي إلى طريق الجنة، وطريقها توحيد الله وعبادته، وإما أن يسلك طريق النار، وطريقها الشرك بالله أو إنكار وجوده كلية. فالإنسان محتاج إلى أن يكون في كامل قواه العقلية من أجل أن يعرف الطريق الصحيح إلى الجنة، ومن أجل أن يتفطن إلى المغزى من خلق الله لهذا الكون. فكيف يقوم الإنسان بتدمير عقله وماله ووقته بالخمور، الإسلام حرم كل ما يضر بالعقل ويذهب الوعي كالخمر والمخدرات. لأن الإنسان في حاجة إلى كامل عقله في الدنيا التي هي امتحان يحدد مصيرنا في الآخرة.
حسنا أخبرني يا وليد، لماذا امتنعت عن السكر أثناء امتحان البكالوريا؟ لأنك كنت بحاجة إلى عقلك كاملا، لأنه امتحان قد يحدد مصيرك لخمسين سنة قادمة، إما أن تفشل، أو أن تصبح طبيبا أو محاميا أو محاسبا. فكيف لا تهتم بامتحان يحدد مصيرك لملايير السنين، بل لما لانهاية من السنين. أي الامتحانين أهم يا وليد؟ الامتحان الذي يدوم أسبوعا ويحدد خمسين سنة أو ستين أو أكثر أو أقل،أم الامتحان الذي يدوم ستين سنة أو سبعين أو أكثر أو أقل، لكنه يحدد ما لانهاية من السنين، إما في جنة وإما في نار.
إما أن تكون راسبا، أي كافرا بالله، تنكر وجوده، أو تشرك معه غيره في العبادة أو الدعاء أو الاستغاثة أو الشفاعة أو التأليه، أو تقول أن قوانين البشر خير من قوانين الله أو تساويها، أو أن تقول أن الله -الذي تنزه أن يكون له مثل أو شبيه- قد اتخذ زوجة أو ولدا، أو تشتري مغفرة الله من غير الله، لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولا يقضي الحوائج إلا الله، ولا يشفي إلا الله، ولا يحيي إلا الله، ولا يميت إلا الله، وكل شيء بقضاء وقدر كتبه الله، ولو اجتمع العالم على ضرك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله، ولو اجتمعوا لينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله، ولا يجوز القسم إلا بالله، ولا السجود إلا لله، ولا التذلل إلا الله، ولا يجوز دعاء غير الله مهما كان صلاحه وقربه من الله، حتى الأنبياء لا يجوز طلب الحوائج منهم لأن هذا شرك صريح بالله. وسترسب يا وليد إن لم تؤمن أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وأن محمدا عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء، وأن كل الأشياء –سوى الله وصفاته التي اختص بها ككلامه مثلا- هي أشياء مخلوقة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملك لغيرها، وأن أولئك المنظرين الذين يضعون القوانين والأنظمة للبشرية ويزعمون أنهم يعرفون ما يصلح لها وما لا يصلح، ما هم إلا بشر ضعاف مجتهدون، لا يعرفون ما يجري في أمعائهم النتنة فكيف يلمون بمعرفة ما يصلح للبشرية، سترسب يا سمير إذا ظننت أن ماركس يعرف مصلحة البشرية أفضل من الله، وسترسب يا سامي إذا ظننت أن ريكاردو وكينز لديهما حلول أفضل من حلول الله، سترسبان وتدخلان الجحيم إلى الأبد، تدخلان نارا عظيمة درجتها عالية، كلما نضجت جلودكما تستبدل بجلود أخرى لتذوقوا العذاب. هكذا إلى الأبد، كلما نضجت استبدلت بجلد جديد، لملايير ملايير السنين، إنها قمة الشقاء أن تصاب بألم وأنت تعلم أنه لن ينتهي أبدا.
ويمكن يا وليد أن تكون ناجحا، إذا لم تشرك مع الله أحدا في العبادة أو الدعاء أو الإستغاثة، وإن كنت موقنا أن قانون الله أفضل من قوانين البشر، وتؤمن أن الله وحده لا شريك له، ولم يتخذ زوجة ولا ولدا، وتؤمن

أن محمدا (ص) هو عبد الله ورسوله، وأن عيسى (ص) هو عبد الله ورسوله وليس ابنه كما يزعم الآخرون، بل هو ابن مريم العذراء، ولد من دون أب، فقد جعله الله معجزة لمريم العذراء حيث قال له كن فكان. فنحن نحتاج في تخلقنا إلى نطفة وبويضة، لكن عيسى (ص) ولد من بويضة فقط، وفي مكان النطفة كانت الكلمة وهي (كن) فجعلت البويضة في غنى عن النطفة، مع أنني لا أستطيع الجزم: هل عيسى (ص) استنسخ من مريم (ص) ، أو أن الله خلق نطفة ذكرية –صنعت خارج الجسم الحي كما يقولون- اتحدت مع البويضة، أو أي طريقة خلق أخرى لا نعلمها الله يعلمها، فلا دخل لي كيف خلق الله عيسى (ص) من دون أب، ولكن الذي يهمني هو أن الله خلقه من دون أب وكفى، وأن عيسى (ص) هو مخلوق، وهو عبد الله ورسوله، وأنه أحد الخمسة الذين هم أفضل البشر على الإطلاق: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.
وأتعجب ممن يصدق بخلق آدم بلا أب ولا أم، ويكذب بولادة عيسى بغير أب، فأيهما أسهل تصديقا. بل إن العلماء قد استنسخوا نعجة من خلية واحدة، فكيف يعجز الخالق عن مثل ذلك.
وستكون ناجحا يا وليد إذا آمنت بكل رسل الله، من آدم حتى موسى وعيسى ويحي ومحمد، صلى الله عليهم، وإذا آمنت بكل الكتب كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن. مع أن الكتب الأولى قد حرفت وبدلت وبقي منها القرآن لم يحرف، فهو الكتاب الصحيح الناسخ لما قبله من الكتب، كما أن محمدا (ص) هو الرسول الأخير الذي ختم الأنبياء، فلا يسع أحدا إلا اتباعه، بل لو كان موسى (ص) حيا لما وسعه إلا اتباع محمد (ص).
أتعلم يا وليد إذا نجحت على ماذا تحصل؟ تحصل على الجنة وإلى الأبد. لا يوجد فيها ملل ولا ضجر ولا تعب ولا نوم ولا شيخوخة ولا موت ولا مرض ولا خوف ولا حزن ولا كآبة. لا يوجد فيها إلا اللذة والأمن والسلام والراحة والخلود والسعادة والشباب والمتعة والحبور. كل يوم يمر عليك فيها تشعر فيه بسعادة أكبر من اليوم الذي قبله، حتى بعد ملايير السنين تشعر كأنك دخلتها للتو، فال عنها الله عز وجل-: (أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر). أي مهما تخيلت لن تدرك حقيقتها. قال عنها الله -عز وجل-: (لهم فيها ما يشتهون). أي تحصل على اللذة التي تريد كيفما تريد متى تريد أينما تريد.
لو اشتقت إلى الدنيا واشتهيت أن تكون لك ميامي بمنتجعاتها ونسائها، لبني لك في الجنة مثل ميامي بلمح البصر، غير أنني متأكد أنه ستبدو لك بريتني سبيرز مثل قردة ظريفة إذا قارنتها بفتيات الجنة الخارقات الجمال، اللعوبات المتحببات إلى أزواجهن، اللواتي جمالهن يشفي الأعين وكلامهن يشفي الآذان.
أما سوق الجنة الذي يقام دوريا، ففيه مختلف البضائع والسلع والجواري والغلمان، وتستطيع أخذ ما تريد دون الحاجة إلى النقود يكفي أن تلمس جارية من معصمها حتى تتبعك، ويكفي أن يعجبك ثوب حتى ينقل إلى بيتك، وإن اشتقت إلى الدنيا وأشتهيت أن تشتري بالنقود كما تشتري في الدنيا، أو أن تسحبالنقود من البنك كما كنت تفعل في الدنيا، فيمكنك ذلك، غير أن في الجنة ميزة إضافية، وهي أنك بعدما تسحب نقودك، تستطيع مضاجعة موظفة البنك الحسناء أيضا، خلف طاولة مكتب الاستقبال.
أتعلم يا وليد أن أدنى أهل الجنة منزلة من يحمل له غداءه عشرة آلاف جارية، يحملون عشرة آلاف طبق، ليس فيها طبقان متشابهان، يكون عندها في حيرة، أيهما ألذ الطبق أم الجارية التي تحمل الطبق. ويسير هذا الرجل -الذي هو أدنى أهل الجنة منزلة-، يسير في أملاكه ملايين السنين دون أن يكملها كلها، فكلها مدن وقصور وبساتين وجنات وأنهار من عسل ولبن وخمر وماء، أتعلم أن خمر الجنة لا يحدث تلك الآثار الجانبية التي يحدثها خمر الدنيا، فخمر الجنة يحدث تلك النشوة فقط، المهم أنك ستقضي أيامك اللامتناهية في التنزه والمغامرات والسياحة في أملاكك المتنوعة: قصور في الريف الساحر، فنادق في المدن، تلك المدن التي هي تحت تصرفك بفتياتها وبيوتها وحاناتها، منتجعات على شواطئ البحر، مخيمات في الغابات... وفي كل هذه الأماكن تتوفر النساء والطعام والخمور وكل ما تشتهيه. لأنك تمتلك كل شيء، كما أنك تتمتع بقدرات غير نهائية على الطعام والشراب والجنس وسائر اللذات. إنه النعيم المتجدد حيث لا يوجد نوم ولا موت ولا تعب ولا ملل ولا واجبات تعكر صفو ذلك النعيم.
أتعرف ما ثمن هذه السلعة، إنه بسيط، إنه قول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفهم معانيها، فالله وحده لا شريك له وليس كمثله شيء، وأحكامه هي الأفضل، وهي التي يجب أن تطبق، ومحمد رسول الله وخاتم

الأنبياء، وما جاء به من عند الله هو الحق، وبالتالي فيجب اتباعه، أظن أن هذا ثمنا سهلا يا وليد، أظن أننا كلنا في الجنة إلا من يأبى، مثل هذين الأحمقين -وأشار علي إلى سمير وسامي- ثم قال لوليد:
أترى تلك الفتاتين المثيرتين هناك؟
نظر وليد ثم قال بتألم: أجل.
فقال علي:
هل تستطيع إقامة علاقة معهما، لا أظن ذلك، فقد ترفضان، بسبب مشكلة السمنة التي لدينا هنا -وأشار إلى جسم وليد- أو قد تتمنعان دلالا ككل الحسان، بل حتى وإن كانت إحداهما حمقاء وقبلت، فأين ستجدان المكان؟ وإن وجدتماه فكم ستدوم العلاقة؟ عشر دقائق؟ ربع ساعة؟ وبعدها ستغادر وأنت تعرج إلى تل الياسمين –هنا أبدى سامي اشمئزازا وتألما- لتتلقى اتصالا من الفتاة بعد أشهر تقول فيه: إنني حامل وعليك تصحيح خطئك. وترفض أنت أن تقوم بواجباتك، لتلقيك في السجن ويقلب سجين ضجر صحن طعامك فترد عليه بلكمة، ليخرج السكين ويطعنك ليصيب السكين رجولتك في مقتلها، وتخرج من السجن وقد كرهت الحياة، ليجد حارس الغابة ذات يوم جثة سمينة معلقة بحبل إلى شجرة.
فقال سامي:
ما هذا الكلام المقرف يا علي عن العرج بعد العلاقة وعن السكين الذي طعن وليدا في رجولته، لقد أقنعتني أنك ستكون آخر شخص سأفكر بالحديث معه في ليلة عرسي.
لكن عليا أكمل:
-أما في الجنة فكل ما تحتاجه يا وليد هو أن تنوي ذلك لتأتي هي إليك، في مكانك دون الحاجة إلى غرفة لأن الجنة كلها ملكك فهي كلها غرفتك، كما أنه لا يوجد حمل في الجنة، ولا يوجد قذف ولا كلل، قد تدوم علاقة واحدة ثمانين سنة، كما أنه يا أصدقاء لا يوجد الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم في الجنة، فهناك الأمن والسلام في الجنة.
فقال سمير:
-لقد تكلمت يا علي طويلا فدعني أتكلم. أنت مخطئ في قولك أن الإسلام وحده من حدد علاقة الإنسان مع الإنسان، واهتم بالجزئيات كما اهتم بالكليات. صحيح أنه الوحيد في الأديان، لكن في الأنظمة، فإن الشيوعية هي أكثر الأنظمة التي تعرضت إلى تنظيم حياة الفرد الاجتماعية، لكن لقصر الوقت –عكس الإسلام- فقد تركت الشيوعية للفرد أشياء يحددها بنفسه.
فقال علي:
عن أي قصر وقت تتحدثون، محمد (ص) مكث ثلاثا وعشرين سنة فقط وحدد كل شيء، من السياسة إلى الاقتصاد إلى التربية والآداب.
أما حديثك عن أنكم تعرضتم للأمور الاجتماعية، فلنأخذ مثلا مزاح وائل الثقيل مع النادل. فلو كان محمد (ص) بيننا وشاهد ذلك لغضب كثيرا وأنكر على وائل، بل هاأنا ذا أحد أتباعه فقط وقد أنكرت على وائل، ولكن أخبرني، لو كان ماركس جالسا معنا هل كان سيغضب، أبدا، كان سيراه أمرا عاديا. بل كان سيواصل حديثه عن وحشية الإمبريالية دون أن ينتبه إلى الإنسانية التي انتهكها وائل أمامه. لكن محمدا (ص) لم يكن يهتم بالاقتصاد فقط أو السياسة فقط، بل كانت لديه نظرة شاملة، نظرة لم تسه عن جانب من الجوانب، مهما بدا ذلك الجانب لأول وهلة حقيرا أو غير جدير بالاهتمام، وهذا دليل على أن محمدا ليس مصلحا وحسب، بل كان ينطق بالوحي الإلهي الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.
وأنا أتعجب منك يا سامي حين تتحدث عن الحرية، وتقول بأنه يجب على الإنسان أن يفعل ما يريد. وكأن الإنسان يستطيع أن يفعل كل ما يريد. أتعلمون أن تلك الحرية التي تعطونها أنتم الليبراليون للناس أنها حرية زائفة ومضللة، لأن الغني فقط يستطيع الشرب متى يريد، ويستطيع إقامة علاقة متى يريد، ويستطيع اقتناء كلب متى يريد، لكن الفقراء ممنوعون من ذلك غالب الوقت. تقولون: (الحرية مكفولة لمن يريد) لكنها في الحقيقة: (مكفولة لمن يستطيع). أما في الإسلام فالحرية مكفولة لمن يريد فعلا، لأن الفرد فيها لا يريد إلا أشياء مسموحة، وبالتالي فقد حد الإسلام قليلا من الأشياء التي قد يريدها الفرد، فالفرد في الإسلام لا يريد لحم الخنزير ولا يريد الخمر ولا يريد الزنا، بل هو يرد لحم الخروف ويريد الزواج بدل الزنا، كما أن الفرد مهما بلغ ماله لن يريد سيارة من فضة لأنه يعلم تحريم الإسلام للتبذير، بل حتى وإن

أراد فإن القضاء سيصادرها، كما أن الفرد لن يشرب في آنية الذهب والفضة، ولن يبني القصور الفخمة دون حاجة إليها، لأن الإسلام حرم ذلك، كما أن الإسلام قد حرم على الذكور لبس الذهب والحرير وبالتالي هذه الأمور المحرمة -التي لن يريدها الفرد أصلا لأنها محرمة- ستستغل في تغطية حاجات الأفراد الآخرين الذين قد يريدون خبزا أو سكنا متواضعا أو زوجة أو زوجا ولا يجدوا ذلك، بل إن تحريم المحرمات والترف يجعل الغني المسلم يزهد في المال، فلا يغطي به إلا حاجاته المعقولة، وبالتالي سينفق المال الزائد في مشروعات توسعية تنفع المجتمع وتشغل البطالين، أو سينفقه لصالح الفقراء. وبالتالي فالإسلام لتوفير الحرية الاقتصادية قد قلل من عدد الأشياء المرادة من طرف الأفراد من أجل أن يحظى كل فرد بما يريد. فالإسلام بذلك يحط من قيمة النقود ويزهد فيها، من أجل منع المادة من السيطرة على أرواح البشر، وبهذا كنا نجد عثمان يتبرع في المجاعة بقافلة كاملة من الغذاء والتي أنفق لجلبها كل ماله، وقال بعد التبرع بها للفقراء: إنما بطن عثمان شبر في شبر، تملأه حفنة من طعام، فماذا يفعل عثمان بالمال. ولو كان ذلك في وقتنا لاحتكرها الغني وساوم الناس حتى يبيعها بأعلى الأثمان.

أما بالنسبة للحرية الجنسية فالإسلام يشجع الزواج ويجعله واجبا، كما أنه بسبب تفوق عدد الرجال على النساء -أو بالأحرى عدد الرجال القادرين على عدد النساء- فقد أباح تعدد الزوجات إذا كان الرجل قادرا على العدل بين زوجاته، فلأن تعيش امرأتان مع رجل واحد، في حال أقل سعادة، أفضل من أن تعيش معه إحداهما سعيدة جدا ويكون مصير الأخرى العنوسة، أو الدعارة أو أي شيء آخر. فالإسلام تكافلي في كل شيء، لذا فلا توجد عنوسة في النظام الإسلامي الحقيقي. بل إن الله أوجب على السادة أن يزوجوا عبيدهم إذا بلغوا سنة الزواج، ووعدهم بأفضل الأجر لو أنهم أكملوا معروفهم بإعتاق الأسرة التي ستتشكل بع ذلك، في الوقت الذي كانت فيه الشرائع الأخرى والقوانين تقوم بإخصاء العبيد، ولم يجدوا حلا أفضل من ذلك لمعالجة حاجة العبيد الجنسية.

لذلك فالحق في الجنس كان مكفولا حتى للعبيد في الإسلام، فالإسلام يعطي حقا في ممارسة الجنس مقيدا لكنه حقيقي ويتمتع الجميع به، غير أنه نظمه في إطار الزواج، بل إنه قد حارب الكبت الجنسي والتبتل، فقد تبرأ محمد (ص) من الذين يرغبون عن سنة الزواج. وقد أعطى القضاء الإسلامي للمرأة حق مفارقة زوجها إن لم يوفها حقها في الفراش، وعندما تتطلق ستجد زوجا بسهولة، لأن تعدد الزوجات يتيح للمرأة الكثير من الفرص، فإن لم تجد رجلا أعزب، فستجد رجلا متزوجا.

لكن الحرية الجنسية يا سامي في الغرب من يحصل عليها؟ بعض الفقراء يحصلون على جزء ضئيل منها وبعضهم لا يحصل عليها إطلاقا، أما الأغنياء فيحصلون عليها كاملة ولكن مع فوضى واغتصابات وشذوذ وتحلل أسري وبيع للرقيق الأبيض ودعارة واستغلال لفقر النساء وحاجتهن وأمراض فتاكة، فقد ذكر محمد (ص) أن الأمة ما إن ينتشر فيها الزنا ويصبح ظاهرة علنية حتى يصيبها الله بأوبئة لم تكن في الأمم قبلها، فقد انتشر الإيدز الذي لم يكن في الأمم قبلنا، فالعاهرة تنقل الفيروس من رجل مصاب إلى كل الرجال السليمين الذين يعاشرونها، فلو منعنا الدعارة والعلاقات غير الشرعية لمنعنا انتقال الأمراض المنتقلة جنسيا بشكل عظيم جدا، لأن الزواج يجعل العلاقة بين الرجل وامرأته فقط، فإذا كان أحدهما مريضا انتقل المرض إلى الآخر فقط ولم يعدوه، لكن إذا كانت العلاقات خارج الزواج مسموحة فسينتقل إلى طرف آخر الذي سينقله إلى آخر، وهكذا فسينتقل المرض بشكل رهيب، كذلك فالإسلام حرم الشذوذ الذي يضاعف احتمال انتقال الأمراض الجنسية، كما حرم معاشرة المرأة أثناء حيضها، فدم الحيض يجعل المكروبات التي لا تنتقل جنسيا منتقلة جنسيا، ويجعل الأمراض المنتقلة جنسيا أكثرا انتقالا. الإسلام كامل يارجال، وكما قال برنارد شو: لو كان محمد هنا لحل مشاكل العالم. لكن برنارد شو قد أخطأ في نقطة وهي أنه ليس محمد (ص) من يحل المشاكل من عنده بل هو وحي من عند الله.

أراد مراد أن يبدل الموضوع فقال:

-ألا تلاحظون معي أن الجو خانق هنا؟

فأجاب وليد:

-بلى، إنه أكثر من خانق، ولكن متى سنذهب إلى الديار؟

فقال وائل وهو يعبث بالولاعة:

-سنذهب اليوم إن شئتم ولكن بعد أن أذهب إلى الملجأ.

فقال سامي متعجبا:
-ألم تيأس يا وائل بعد؟ أما زلت تظن أنها في أحد ملاجئ العاصمة؟ في الماضي فتشنا العاصمة شارعا شارعا، سألنا عنها في كل الملاجئ ولم نجدها.
قال وائل غاضبا من سامي وكأنه أيقظه من حلم:
-لقد قال لي حارس محطة تل الياسمين أنها استقلت حافلة إلى العاصمة، فهل حارس محطة تل الياسمين يكذب؟
فقال سامي:
-لا بأس يا وائل، لا تغضب، لكن أليس عجيبا أن تبقى تتذكرها حتى بعد مرور أربع سنوات على رحيلها؟ صدقني يا وائل، أكيد أن أسرة طيبة قد آوتها ووفرت لها الحماية والرعاية والتربية والتعليم، وإلا لكانت عادت إليكم. حسنا، سأذهب معك إن شئت إلى الملجأ، لا لأنني أظن أنها هناك، ولكن فقط ليطمئن قلبك ويرتاح.
فقال وليد:
-ما قصتك يا وائل مع فتيات الملاجئ، ألم تدع الفتاة التي كانت هنا قبل قليل أنها تعيش في ملجأ أيضا؟
فقال مراد غاضبا:
-لا تحدثني عن تلك الحمقاء اللعينة، فقد كادت تقتلنا.
فقال سمير:
-هي حقا فتاة حمقاء يا مراد، لكنها أذكى منك، ولا أقول شيئا آخرا مثل أنك أحمق منها، لأنني أعرف أنك لا تتقبل الإهانات، هي أذكى منك لأنها استفزتك بسرعة، وعوض أن ترد لها هي الشتيمة شتمت شخصا آخرا فكدت تقتلنا، كان ينبغي أن تشتمها هي. صدقني، لو جاء الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم لقتلوك أنت وتركوها هي.
فقال مراد:
-السبب هو وائل فهو الذي أحضرها إلى هنا.
وائل: أنا لم أحضرها، فقد جاءت لوحدها.
فقال مراد:
-كيف تأتي لوحدها، أكيد أنك ابتسمت لها أو غمزتها، كما أنها ليست الأولى ولا أظن أنها ستكون الأخيرة، فقد سبق أن حدث هذا، ولكن لا أدري لماذا يحدث ذلك معك فقط.
فقال وائل مازحا:
-ولكن ماذا أفعل، فهذا قدري.
أشار وليد إلى بقايا الطعام والمشروبات التي تناولتها الفتاة وقال:
-ومن سيدفع ثمن هذه الوليمة؟
فقال سامي:
-طبعا روميو هو من سيدفع.
فقال وائل غاضبا:
-مادمت لن تدفع يا سامي فأغلق فمك على الأقل. لقد سمعت ما قال النادل عن مصير البخلاء الثرثارين، لا تخف لن أطلب منك أن تدفع ولن أطلب منك أبدا، ما دام سمير موجودا فلن أضطر إلى التسول من أحد.
فقال سمير محتجا:
-أنت غازل الفتيات وأنا أدفع ثمن أطعمتهن.
فقال وائل مازحا:
-سمير، صديقي، صحيح أنكم من نشر الاتكالية والتسول وقتل الإبداع وروح المبادرة، وكون المافيا، وجعل الرؤوس النووية تباع في البقالة، حيث تدخل الفتاة إلى البقال وتقول: بكم كيلو الطماطم. فيقول: بخمسين دينارا. فترد: والرأس النووي. فيقول: بستين دينارا. ثم تقول: والبازلاء. فيقول: بسبعين دينارا. فتقول الفتاة: الرؤوس النووية عندك غالية يا عم، فجارك يبيعها بخمسين دينارا فقط. فيقول البقال: سعرها متقلب يا ابنتي لأن الحكومة لم تدعم سعرها بعد.

ثم أردف وائل:
-كما أنكم طردتم رؤوس الأموال من كل بلد تجتاحونه، وحررتم عنق العامل من يد الرأسمالي القوية، لكن لتسلموها إلى يد الدولة الأقوى، ففي الرأسمالية ربما يستطيع عامل محظوظ أن يجد بعد جهد قضاء غير خاضع لنفوذ رب عمله لينصفه منه. وإن لم يجد، فرب العمل حتما لديه صدر ينزف إن غرس فيه عامل يائس سكينا، لكن الدولة لن تستطيع أن تفعل لها أي شيء، خاصة إذا كان نصف سكانها من البوليس السري.
سكت وائل قليلا لما رأى سمير على وشك الانفجار ثم أردف:
-لقد كنت أقول، صحيح أن لديكم كل تلك المساوئ، ولكن لديكم بعض المحاسن، فما إن عرف خفافيش المال أن الزحف الأحمر قد توقف، بل اطمأنوا إلى أنه قد اختفى، حتى جن جنونهم وبدأوا في تسريح العمال.
فقال سمير:
-لم تكن بريئا تماما وأنت تتحدث، لكن مع هذا فأنا أضيف إلى كلامك أن كل عامل يحصل على عطلة، أو لديه نقابة تدافع عنه أو لديه منح في المناسبات، أو يتمتع ببعض الخدمات الإجتماعية، أو لا يعمل أكثر من ثماني ساعات في اليوم، أو يستطيع أن يقضي حاجته البيولوجية دون استشارة رب عمله، أقول أن كل عامل يتمتع ببعض أو كل هذه الامتيازات، فهو مدين لماركس وأصحابه، ولست مبالغا أبدا.
هنا حضرت الفتاة ثانية وقالت بحيوية:
-مرحبا؟
فقال مراد:
-ها قد جاءت الذبابة، لا أظنها ستمل من الدوران حولي، هته الذبابة.
فقالت الفتاة بعصبية أنثوية وهي تهز رأسها مع الكلمات:
-الذبابة تدور حول المزبلة.
فصاح مراد: ليبعدها أحدكم عني وإلا قتلتها.
فقال سامي:
-لا تعبثي معه أبدا يا حسناء، صدقيني، لو لم تكوني فتاة لكنت الآن في عداد الأموات، إنه صديقي، وأعرفه جيدا.
فقالت:
-لقد عدت من أجل أن أدفع ثمن طعامي ومشروباتي، لأن أمي النصوح كانت دائما تنهاني أن أسمح للغرباء بأن يسددوا فواتيري.
فقال علي:
-ألم تتطرق أمك النصوح يوما إلى موضوع الكذب على الغرباء؟
فقالت الفتاة:
كلا.
قالتها بدلال وعدم اهتمام، فقد كانت تنظر إلى وائل فقط وتبتسم إليه بشقاوة، ولم يكن يبادلها وائل أي ابتسام. وراحت تفتح المحفظة.
فقال سامي:
لا داعي لذلك فسمير سيدفع، أوه... عفوا... أقصد نحن سندفع، لا داعي لتفتحي المحفظة.
توقفت الفتاة عن فتح المحفظة وقالت دون أي إصرار:
-كلا، فأنا سأدفع.
فقال سامي: نحن نصر على ذلك.
فقالت: -شكرا. وخبأت المحفظة. ثم استأنفت النظر إلى وائل الذي ظل صامتا، وقالت له وهي تبتسم بشقاوة:
-ما بك؟ هل أكلت القطة لسانك؟ قل شيئا.
فصاح وائل غاضبا:

-لن أسمح لك أبدا بإهانتي يا فتاة، لذلك فالزمي حدودك.
فقامت الفتاة بتمرير إصبعها بشقاوة على أنف وائل وهي تقول:
-لا تغضب، أنا أمزح معك ليس إلا.
عندها، قرر وائل أن الوضع لا يطاق، وأنه لم يعد يمكن السكوت عن حماقات هذه الفتاة، وأنه قد آن الأوان لوضع حد لها. فقام من مكانه، وجذبها من ذراعها وهو يقول:
-هيا يا فتاة، حان وقت العودة إلى الماما، سأوقف لك سيارة أجرة لتخلصني منك.
ثم قادها وائل بعيدا عن المقهى وهي تحاول التخلص وتقول:
أتركني، أنت تؤلمني، لا أريد الذهاب إلى البيت، أنا أنتظر أمي هنا. لكن وائل لم يستمع إليها أبدا، فلم يكن له من هم إلا أن يرميها في أول سيارة أجرة، ويرسلها إلى البيت. لكنها استطاعت عض ذراع وائل، غير أن ذلك لم يخلص ذراعها من قبضته، فتشبثت بأحد أعمدة الإنارة كما يتشبث الناجي بعامل الإغاثة الذي يتدلى من حوامة، لكن وائل استطاع في الأخير أن يفك ذراعيها التين شكلتا عقدة مثل عقدة النوتي حول عمود الإنارة، واستطاع أن يجمع ذراعيها الدقيقتين في يديه وأن يسحبها سحبا لم تستطع معه المقاومة. ثم رماها في أول سيارة أجرة. فلما رأت أنها ذاهبة لا محالة إلى البيت، وأنه قد أحيط بها، فلا يمكنها المقاومة. اغرورقت عيناها بالدموع، وتلفتت يمينا وشمالا، فلمع فجأة بريق من الأمل في عينيها، وأشرق وجهها بابتسامة خفيفة حرصت الفتاة بعناية على ألا تدع الابتسامة تبدد سحابة الحزن التي غطت وجهها.
فقالت بصوت مبحوح وعيناها لا تزالان مغرورقتان بالدموع:
-وائل، أنا عطشانة.
فقال وائل بلهجة جليس أطفال ضجر:
-يكفي من الحماقات، ستشربين في البيت.
فقالت وهي متكئة على مقعد السيارة متصنعة ضعفا شديدا:
-سأموت قبل أن أصل، فحلقي متيبس من العطش، أنا هالكة لا محالة، الوداع وائل، الوداع، لا تنس أن تضع زهرة على قبري عندما تعود العام القادم للمشاركة في مسابقة الضباط، أتمنى أن تصبح ضابطا ناجحا، فأنت تستحق كل خير، أظن أنه شيء رائع أن يصبح الإنسان ضابطا. اذهب يا وائل، اذهب وحضر للمسابقة منذ الآن، ولا تدع فتاة مسكينة تحتضر تلهيك عن مستقبلك الزاهر.
فقال وائل متظاهرا بأنه لا يبالي:
وماذا سيحدث إن مت؟ لن يحدث شيء سوى أن الناس هنا سيأخذون عطلة عن سماع الأكاذيب حتى أبريل القادم.
سعلت الفتاة: أح، أح، غير أن سعالها كان أقرب إلى قول (أح) منه إلى السعال، ثم قالت:
-العطش شديد، ترى كيف تتحملون العطش في الصحراء، هل صحيح أنكم عندما تعطشون في السفر تنحرون الجمال وتستخرجون المياه من بطونها وتشربون؟ أليس الأمر مقرفا، عاق.
فقال وائل:
-لقد قلت لك أن تل الياسمين ليست صحراء، ولنفرض أنها صحراء، فما ذا ينقص الصحراء؟ فالألمان يتركون ريف بافاريا من أجل التمتع بجمال الصحراء.
فقالت الفتاة بتهور:
-إنك لست من الصحراء، آسفة، لقد نسيت. ثم قالت: يا إلهي، أنا أحتضر، العطش يقتلني.
وكلما تلفظت بكلمة نظرت إلى وائل لتلاحظ أثرها عليه.
فقال وائل:
-حسنا، حسنا، انزلي أيتها اللعينة، مع أنني متأكد أنه مقلب.
فصاحت الفتاة:
ماذا؟ أأستطيع أن أنزل؟
ثم صرخت من الفرح ونزلت وعانقت وائل، فأبعدها وائل وقال متظاهرا بالحزم والقسوة –لأن هذا النوع من الفتيات لا ينفع معهن إلا الحزم، ولا ينبغي أبدا للمرء أن يبدي لهن مظهر الرحمة واللين- خمن وائل بهذا ثم قال:

-اسمعي، ستنزلين لتشربي الماء، ثم ستأخذين سيارة أجرة أخرى، وتعودين إلى البيت، مفهوم؟
فقالت بابتسامة شقية: مفهوم.
لكن سائق سيارة الأجرة صرخ:
-تحبسانني ساعة ثم تتركانني وكأن شيئا لم يكن؟ أيها المتخلفان.
فرد عليه وائل بإشارة بذيئة من بعيد. وصرخت الفتاة نحو السائق:
-نحن متخلفان أيها الأحمق المعتوه؟
لكن السائق أكمل طريقه، وانطلقت وكأنها غزال حرر من قيده، فاستغرب وائل ذلك النشاط من فتاة، وبالضبط من فتاة كانت تحتضر، ومشت مع وائل وهي تضع يدها في يده، وتتكئ برأسها على كتفه، ثم أوقفته فجأة وقالت:
-وائل، أريد البوظة.
فقال وائل:
-لقد اتفقنا على الماء فقط.
لكنها هزت كتفيها وقالت:
-أريد البوظة.
فقال وائل:
-أبدا.
عندها، ارتمت بشقاوة على صدر وائل وهي تمسح عليه خدها وتقول بدلال:
-أريد البوظة، أرجوك.
ثم تقوم بعد ذلك بتفحص وجه وائل لترى أثر ذلك عليه. لكن وائل أبعدها وقال غاضبا:
-ابتعدي، ابتعدي، حسنا، سنشتري البوظة.
لتقفز الفتاة من الفرح وتصرخ:
-رائع؟
ثم قبلت خد وائل.
سار وائل قليلا، ثم قال وهو ينظر إلى المحلات التي انتشرت على حافتي الطريق:
-حسنا، سوف نذهب إلى ذلك المحل.
لكنه التفت فوجد الفتاة قد انفلتت عنه وانطلقت رأسا إلى محل آخر تبدو عليه الفخامة. فصاح وائل:
-أيتها الحقيرة، ألم تجدي إلا بوظة خمس نجوم هذه لتذهبي إليها؟ هل أنا ملياردير؟ حتى سمير ليس هنا.
لكن وائل لم يجد إلا أن يلحق بها ويستسلم، فدخل وراءها إلى المحل، فوجدا بائعا متجهما، وكأن وجهه سبيكة حديد. ويبدو أن انشغاله الدائم برمي الأموال في الصندوق، قد جعله غير متحمس جدا لإلقاء التحيات أو تبادل الابتسامات، بل هو يتمنى –لشدة انشغاله- لو أن الزبائن يدخلون إلى المحل ويضعون نقودهم في الصندوق ويرحلون، دون أن يطلبوا منه مقابلا لقاء نقودهم. فماذا يفعلون بالبوظة؟ لذلك فهو يكره الزبائن جدا، لأنهم لحوحون ومزعجون وبخلاء، لا يخرجون من المحل حتى يأخذوا مقابلا –من البوظة- لقاء أموالهم. ترى هل يموتون لو لم يأكلوا البوظة؟ خمن البائع بهذا في نفسه متعجبا.
كان هذا موقفه من الزبائن الذين يأخذون البوظة ويرحلون، فكيف سيكون موقفه من الزبائن الذين يأكلون البوظة في محله بروية خوفا على حلوقهم من الالتهاب؟ أكيد أن قلوبهم كانت لتصير طبقا شهيا على مائدته.
فقال وائل والفتاة:
-السلام عليكم.
فرمقهما البائع بمقت شديد وجمجم دون أن يفتح أسنانه حتى:
-وعليكم السلام.
رد التحية وكأنه انتزعها من لحمه انتزاعا.
ثم صاح غاضبا لكن باختصار شديد رغم أن الغاضبين لا يميلون إلى الاختصار عادة:
-فؤاد أيها الحقير.

فظهر الفتى وكأنه انبثق من العدم، أو كأنه قفز من السطح، حتى إن وائل والفتاة نظرا إلى بعضهما وهما يعقدان حواجبهما متعجبين، فقال الفتى:
-حاضر، ماذا تريدان؟
أراد وائل الكلام فسبقته الفتاة وقالت بحماسة:
-نريد اثنين من البوظة.
فقال الفتى:
-من أين؟
فقال وائل:
-بنكهة الليمون فقط.
فقدم لوائل بوظته ثم قال للفتاة:
وأنت، من أين؟
فقالت الفتاة بمرح:
-من حي الجداول.
لكن البائع لم يبتسم فليس لديه وقت للمزاح مع الظرفاء، كما أنه غير مستعد للتعارف. فهكذا علمه المتجهم الأكبر. لذا فقد قال بنفاد صبر وبلهجة توحي بأن صاحبها يبكي:
-أقصد بأي نكهة تريدين البوظة، هيا قولي وارحميني.
فصرخت الفتاة غاضبة بصوت رخيم وهي تعرض بوجهها عن البائع تعبيرا عن غضبها:
-شوكولاتة.
فأعطاها البوظة ثم جلس وائل والفتاة في أحد زوايا المحل المكيف جيدا، وقابلا الواجهة الزجاجية، وبقيا ينظران إلى الخارج من خلال زجاج المحل، فبدا لهما العالم أزرق باهتا بسبب زرقة الزجاج، مما أتاح لكليهما نشوة روحية وحسا فلسفيا، فقالت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة استرخاء:
-وائل، أنا سعيدة.
فقال وائل:
وأنا مفلس.
اقتبس وائل ذلك من عبارة كثيرا ما كررها والده لأمه: بالقرب من كل امرأة سعيدة رجل مفلس.
ثم قالت الفتاة بتأثر بالغ:
-يا إلهي كم أحب الشوكولاتة، لا أدري لماذا أحبها إلى هذه الدرجة؟ هل تدري أنت يا وائل؟
فقال وائل بتهكم:
وكيف أدري إذا لم تدري أنت؟
فقالت الفتاة متحمسة:
-ماذا؟ هل قلت لي: (إنك تحبين الشوكولاتة لأنك تشبهينها).
فقال وائل:
-كلا، لم أقل شيئا من ذلك.
فقالت الفتاة:
-بلى، لقد قلت، لقد سمعتك.
فقال وائل:
-قلت لك لم أقل شيئا من ذلك، بل قلت: ومن يدري إذا لم تدري أنت. هذا كل ما قلته.
فقالت الفتاة:
إن كنت قلت لي ذلك فلست وحدك. الجميع يقول لي أنني أشبه الشوكولاتة. كيف استطعت ملاحظة ذلك يا وائل؟
فقال وائل:
قلت لك لم ألاحظ ذلك، ولم أقله.
صدمت الفتاة بإصرار وائل وعناده فقالت:

وائل، إن كنت غازلتني فلا بأس، لا تخف، اعترف وحسب لأنني لن أخاصمك، بل ربما سأدفع نصف فاتورة البوظة مكافأة لك على اعترافك وصدقك، هيا يا وائل، لن أقتلك، هل قلت لي أنني أشبه الشوكولاتة، اعترف.
فقال وائل بلامبالاة:
لن أعترف بذنب لم أفعله، هيا أكملي البوظة من أجل أن تذهبي إلى البيت.
شعرت الفتاة بخيبة الأمل وطأطأت رأسها في حزن عميق، ثم قالت:
-وائل، أنا حزينة.
واتكأت على وائل الذي لم يبعدها هذه المرة، لأنه صدق أنها حزينة، رغم أنه لم يفهم سبب حزنها. وأمسك بيدها التي لم تكن اليد التي تحمل البوظة، لكنها كانت ملطخة بالبوظة، فقد كانت تلتصق بيد وائل بمجرد لمسها.
كان منظر الشابين الملطخين بالبوظة والملتحمين مع بعضهما مثل جراء القطط، والشاردين في العالم الخارجي الذي يشاهدانه بحيرة من وراء الزجاج الأزرق، والحزن قد غطى وجهيهما مثل ضباب يغطي مدينة كثيرة الأضواء، كان منظرهما باعثا على كل المعاني الجميلة، كان باعثا على الحزن والحيرة والجمال والحب والبساطة والصداقة. ولو أن بيكاسو رآهما لكان سيصنع منهما لوحة خالدة، لكن من المؤسف أنه كان سيظهر في خلفية اللوحة صورة لعينة لبائع متجهم ينظر بغل إلى الشابين، ويبدو أن لديه سببين مقنعين لذلك، الأول: أنهما استعملا محله لأشياء غير ربحية، رغم أنه سطر للمحل وظيفة محددة، وهي أن يكون مزبلة للنقود. والسبب الثاني: هو أن وقت ذوبان البوظة قد حان، أي أن ساعة اتساخ الأرضية قد دقت، ولا يوجد بائع يحتمل أن يرى في محله زبونا بدأت بوظته في الذوبان، مهما كان هذا البائع لطيفا وودودا. لذلك فقد خمن البائع -وهو يشاهدهما يعبثان بأعصابه الحساسة- أن دماغيهما يصلحان كعشاء رائع. وخمن أن أحشاءهما –مع بعض البهارات طبعا، ومع قليل من البصل والخضروات- يمكن أن تكون طبقا ممتازا. وبقي يشاهدهما وهو جالس على الكرسي خلف الطاولة، وبدا بوجهه المرعب وجو محله الباهت وكأنه أمير الظلام في قلعته الموحشة. ويبدو أن الفتاة نسيت حزنها لوهلة، حيث اعتدلت في جلستها، ونظرت في هاتفها، ثم التفتت خلفها في المكان الذي يوجد فيه البائع المتجهم، فرأت صورته الموحشة وهو ينظر إليهما والبرق والرعد يضربان بجانبه –أو هكذا خيل إليها-، فصرخت الفتاة من الرعب، ولجأت إلى وائل حيث خبأت وجهها في صدره، فصارت تنظر عكس جهة البائع، أي إلى جهة الواجهة الزجاجية، فقال لها وائل:
-ما بك؟
فقالت:
-البائع، لقد أفزعني.
نظر وائل إلى البائع ثم قال:
-اللعنة، إن وجهه بشع فعلا، لم يكن هكذا عندما دخلنا، لكنني أراه بشعا أكثر منه مفزعا، يبدو أن قلبك الصغير سريع الارتعاب.
فابتسمت الفتاة ابتسامة رضا لأنها أحست أن وائل قد غازلها، ثم حاولت أن تنظر ثانية إلى البائع، إما فضولا، وإما للحصول على مزيد من الخوف، لأن في ا لخوف متعة أيضا، فالتفتت بروية وهدوء، حيث أبعدت خدها قليلا عن صدر وائل، ثم بدأت في إدارة رأسها بهدوء شديد، فلما كانت في منتصف الطريق، وكان أنفها في اتجاه وائل، استطاعت أن تلمح تلك الصورة المفزعة، لأن الحسناء كما يقولون تستطيع أن تنظر بزاوية مائة وثمانين درجة مثل الغزال، ربما خوفا من أن تصطاد. لذلك فقد عادت بسرعة للنظر إلى الواجهة الزجاجية، ثم قالت لوائل:
-وائل، لم لا نكمل البوظة في الخارج، فأنا خائفة.
فقال وائل:
-لا بأس.
ثم قاما والفتاة تخبئ وجهها في صدر وائل حتى خرجا من المحل، وعاد وائل ليدفع ثمن البوظة، أما الفتاة فقد تعجبت من تصرف وائل المتهور، وأيقنت أنه لن يخرج حيا، وأطلت برأسها برفق على البائع،

فوجدت انه يرد الباقي-الذي لم يكن بالمبلغ الطائل- إلى وائل، ووجدت أن منظره طبيعي فاستغربت جدا، وقالت: ماذا يحدث لي، إنه مجرد بائع، ليس وحشا.
بل إنها تهورت لتدخل المحل وتنادي:
-وائل، لقد أطلت في الداخل، هيا أسرع.
وخرجت من المحل، لتلاحظ أنها خرجت سالمة، وبكامل أطرافها.
فخرج وائل وهو يقول:
-والآن يا أميرة، هل عادت إليك الحياة بعدما أتيت على كل مدخراتي، أم مازلت تحتضرين.
فقالت الفتاة غاضبة وهي تضع يدها على خصرها الدقيق:
-وأنا الحمقاء التي كنت قلقة عليك، وخاطرت بالدخول إلى المحل لإنقاذك، ثم تخاطبني هكذا. ليتني تركت البائع يلتهمك ويخلصنا منك.
لم يفهم وائل كلامها ولا سبب غضبها لكنه قال:
-الآن يا آنستي بسبب غرامك بالبوظة، سأكون مضطرا إلى سماع الكثير من التفاهات من سمير، مثل أن تلك الآلات هي التي تتحكم في تطورنا، وهي التي تزوجنا وتعلمنا وتحدد عاداتنا وأعرافنا وقوانينا، وتقرر من منا السادة ومن العبيد، أجل، سأكون مضطرا إلى سماع هذه التفاهات وأنا جالس لا أتحرك، بل وعلى وجهي ابتسامة الرضا والقبول، طول الطريق من العاصمة إلى تل الياسمين، كل هذا من أجل ماذا؟ من أجل غرامك بالبوظة اللعينة تلك.
فقالت الفتاة مصححة:
-أنا لا أحب البوظة من أجل أنها بوظة، أنا لا أحبها لذاتها، بل أنا أحب البوظة بنكهة الشوكولاتة لأنني أحب الشوكولاتة. فأنا أحبها من أجل الشوكولاتة فقط.
قالت ذلك وهي تراقب عيني وائل، فلاحظت أن وائلا تمعن في وجهها قليلا، لذلك فقد ابتسمت بسعادة، لكنها بعد ذلك، وبالضبط وهما سائران باتجاه ساحة البريد المركزي، راودتها فكرة محبطة جدا، وهي أن وائل لم يتمعن في وجهها وإنما نظر فقط بالقدر الذي ينظر به المستمع إلى المتكلم.
قالت الفتاة لما وصلا إلى ساحة البريد المركزي:
-وائل، أريد الجلوس قليلا هنا لأرتاح، فأنا تعبانة، ثم أحضر لي سيارة أجرة لتتخلص مني نهائيا.
قالت ذلك والغصة تخنقها، فقال وائل باستياء:
-حاضر، طلباتك أوامر يا أميرة.
نظر وائل إلى الكراسي المعدنية المثبتة على أرضية الساحة الفسيحة فوجدها ممتلئة، لذلك وجد نفسه مضطرا إلى الجلوس على الدرج، فأخرج مناديل ورقية من جيبه، وافترشها هو والفتاة وجلسا، ثم اخذت الفتاة تسأله عن تل الياسمين وهو يجيب، وطول حديثهما والفتاة تعبث بأحد الأزرار العلوية لسترة وائل وتنظر إلى الزر وتتحدث، وهي حركة نسائية صبيانية اختبرها كل من كانت لديه حبيبة أيام المدرسة الابتدائية.
-وائل، هل أطلت عليك؟ قد أكون حبستك عن أصدقائك.
قالت الفتاة مبتسمة وهي تتصنع لكنة امرأة ناضجة، فاستاء وائل من ذلك الادعاء الوقح للنضج، لذلك فقد حاول التفوق عليها فقال متصنعا اللطف وقد سيطرت عليه غيرة رجالية:
-لا بأس، لا بأس، فعلى الأقل، هنا سأرتاح قليلا من حديث أصدقائي عن تلك المواضيع التي تدور حول تفكيك الثروة وتوزيع الدخل.
فقالت الفتاة باستغراب:
-ماذا؟ هل أنتم شركاء حتى توزعوا الدخل بينكم؟ أنت ثري إذن يا وائل، أليس كذلك؟
فقال وائل:
-كلا، فهم يتحدثون عن توزيع الدخل الذي تقوم به الحكومة، هم يتناقشون وحسب، تعرفين تلك العادة الرجالية، حين يجلس الرجال، ويطوون الجرائد، ويبدؤون في إسداء النصائح لأناس ليسوا في الاستماع، ومناقشة قرارات ليس في متناولهم حتى الاطلاع عليها، فضلا عن تغييرها.
فقالت الفتاة:

-وهل الحكومة توزع الدخل؟ لكن أي دخل؟ أنا لم أفهم.
فقال وائل متهكما –لكن ليس بالفتاة هذه المرة بل بالحكومة-:
-أجل، فعلى حد علمي الحكومات أحيانا تهتم بهذه الأمور، على الأقل، الحكومات المحترمة.
فقالت الفتاة:
-ولماذا يناقش أصدقاؤك هذه الأشياء.
فقال وائل:
-لأن أحدهم شيوعي أحمر، وآخر نازي عربي، وآخر شوفيني محترق، أما الآخران فأحدهما ليبرالي مراب والثاني إسلامي متحمس.
فقالت مرعوبة وهي تهمس:
-يا إلهي، إنهم مرعبون. هذه صفات تشعرني بالوحشة، عندما أسمع كلمات تشبه التي قلتها أحس بأنني وحيدة، حتى والدي -الذي أرتمي في حضنه متى شئت- عندما أسمع هذه الكلمات وأنا بقربه أحس بأنه عدوي، وبأنه يجب أن أحذر منه. وائل، أيها الأحمق، ما الذي يبقيك مع أولئك الأشخاص، في المرة القادمة، عندما تسمع تلك المصطلحات ثانية فعليك أن تركض.
أتعلم ماذا يحدث لو بقيت، ستهب ريح صامتة ويتباطأ الوقت، وتتوقف سيارة سوداء...
فقاطعها وائل غاضبا:
-يكفي، يكفي، هل تظنينني جاهلا قادما من الصحراء لا يعرف عن تلك الريح، نحن أيضا ننال من الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم وتهب أيضا عندنا تلك الريح. كما أنني لا زلت متمسكا بشيئين: الأول أن تل الياسمين ليست صحراء، والثاني أن الصحراء شيء رائع، وأن ناسها كرماء أذكياء وهادئوا الطبع، وأنها أخرجت في القديم ولا تزال تخرج صفوة القادة والعلماء.
فقالت الفتاة:
-إن كانت حقا هذه هي صفات أهل الصحراء، فقد تأكدت الآن أنك لست منهم.
فقال وائل:
-أتعنين أنني لست كريما وذكيا وهادئ الطبع؟
فقالت الفتاة مستفزة:
-أنت كريم يا وائل، فقد اشتريت لي البوظة. ولكنني أشك في أنك تمتلك الصفتين الأخيرتين.
فقال وائل بعصبية:
-معك حق، فلا أحد أغبى من شخص يستمر في سماع الأكاذيب مع أنه يعلم أنها أكاذيب، أما بخصوص هدوء الطبع فأنت مخطئة، لأنه لا أحد أهدأ طبعا من شخص جالس بجانب سمكة أبريل تتحدث لساعات دون أن يكسر عنقها.
فخمنت الفتاة بتحسر أنها كانت لتشعر بسعادة أكبر لو حذف وائل كلمة أبريل من كلامه، واستبشعت لفظة أبريل كثيرا، حتى تخيلتها للحظة كوجه زائر ثقيل يطل خلف باقة من الأزهار. وهمست لنفسها بحسرة: أنا أيضا من حقي أن ينادوني بالسمكة. السمكة وحسب. ما خطب وائل، بل ما خطبي أنا، هل وجهي ملطخ بالوحل وأنا لا أدري؟
قفزت الفتاة من مكانها وقالت لوائل: سأعود. ثم اقتربت من سيارة متوقفة، وشاهدت نفسها في زجاج السيارة، ثم عادت وهي ترقص بذراعيها في اختيال وتقول: أحلى من القمر.
ثم جلست بجانب وائل وهي تهمس لنفسها: ترى ما خطب وائل، هل هو حجر؟
فرن هاتفها قليلا ثم توقف الرنين، فقالت لوائل بدلال:
-وائل، أعطني هاتفك لأتكلم مع أمي، فليس لدي رصيد.
أعطاها وائل هاتفها فشكلت رقما، ثم رن هاتفها، فخطف وائل هاتفها من يدها وقال:
-تريدين الحصول على رقمي لتدمري مزاجي.
ثم مسح رقمه من هاتفها، فقالت بإحباط:
-لماذا تفعل ذلك؟
فقال: لن أعطيك رقمي، لكنني سأسجل رقمك في هاتفي حتى أتصل بك كلما مللت من سماع الصدق.

فقالت والدموع تكاد تخونها:
-عدني بذلك، عدني بأنك ستتصل.
فقال وائل: أعدك.
ثم رن هاتفها ثانية، فلاحظ وائل أن اسم المتصل مسجل باسم: ماما. فقال:
-هذه أمك تتصل يا أميرتي.
أخذت الفتاة هاتفها من عند وائل وهي تشعر بإحباط شديد، مثل الإحباط الذي يشعر به الطفل عندما يكون في لحظة من لحظات المرح ويسمع جملة: حان وقت العودة إلى البيت.
لكنها لم ترد على الاتصال، بل قالت لوائل:
وائل، أنا أدعوك مرة أخرى لتذهب معنا إلى الشاطئ، سنقضي وقتا ممتعا. ثم تصنعت ابتسامة مثل الابتسامة التي نرسمها على وجوهنا لنغري الأطفال بأشياء لا يريدونها وقالت: وسنعوم ونعوم حتى نتعب، ثم سأشتري لك الفطائر والمشروبات، بل إننا قد نبني قصورا من الرمال، وربما إن بقيت لطيفا وطيبا ورقت لأبي قد يدفع لنا ثمن نزهة بالقارب أو جولة بالدراجات المائية، بل إنه ربما سيساعدك حتى بالالتحاق بالجيش، فلدى أبي معارف كثيرة، هو يستطيع أن يدخلك مباشرة برتبة عقيد دون المرور على تلك الرتب التافهة.
فرد وائل معتذرا وهو يبتسم:
-كلا يا لمياء، لن أذهب، فأصدقائي ينتظرونني.
فبدا للفتاة أن صوت وائل صار خشنا وثقيلا وبشعا جدا عندما تلفظ بتلك الكلمات، لذلك فقد راودتها رغبة جامحة في نعته بالمتخلف البارد المتوحش، لكنها على غير عادتها استطاعت كبح رغبتها في آخر لحظة، ووجهت غضبها إلى أمها في الهاتف الذي عاود الرنين، فردت الفتاة بالصراخ:
-ألو، ألو، نعم أمي ماذا تريدين؟ أنا في ساحة البريد المركزي. ماذا؟ ماذا أفعل في ساحة البريد المركزي؟ أنا أبيع البطيخ في ساحة البريد المركزي. لا تضحكيني يا أمي. وماذا يفعل الناس في ساحة البريد المركزي؟ ألم تعلمي يا أمي أن الناس يجلسون في ساحة البريد المركزي؟ كما أنهم يتحدثون هنا، ويتناولون البوظة، ويقرأون الجرائد، ويغتابون رؤساءهم في العمل، وأحيانا يسلبون هواتف بعضهم بالسلاح الأبيض. فالناس لا يبيعون البطيخ هنا، ولا يصنعون الصواريخ، كما أنهم لا يستطيعون إطلاقا أن يجروا عملية جراحية على المثانة في ساحة البريد المركزي. لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أبدا. ماذا؟ لماذا لا يستطيعون؟ لأنه ببساطة لا تتوفر في ساحة البريد المركزي الشروط الصحية لإجراء عملية، على الأقل حتى الآن. صدقيني يا أمي الناس هنا لا يستطيعون إلا الجلوس والتحدث وتناول البوظة. ماذا؟ فيما بعد ستؤدبنني على ثرثرتي؟ حسنا، وماذا ستفعلين؟ فأنت دائما تجذبينني من شعري بأقصى قوتك كلما رأيتني، فماذا تستطيعين أن تزيدي على ذلك؟ هل ستستعيرين قوة إضافية لتجذبيني بها الآن؟ ماذا؟ أصبح لساني لاذعا وستقطعينه وتقلينه في الزيت؟ لكنك نسيت شيئا، ستعيرك الجارات حينها بأم البكماء. هل تحبين أن يعيرنك بأم البكماء؟... ألو...ألو...نظرت الفتاة في هاتفها ثم قالت:
-لقد أقفلت الخط.
ثم ألقت نظرة تفحص على وائل، وهي تخمن أنه الآن ميت من الإعجاب بقوتها وصرامتها، فأكيد أن وائل تعجبه المرأة القوية أكثر من المرأة الجميلة، وقد يكون هكذا كل أهل الصحراء.
فقال وائل: بربك أخبريني من المتكلمة؟
فقالت الفتاة بسرعة:
-أمي الحقيرة.
فقال وائل:
-جملة متنافرة، أليس كذلك يا لمياء، فكثيرا ما أسمع جملا مثل: أمي العزيزة، أمي الحبيبة، أمي الثانية، أمي البيولوجية، وفي درس العلوم أسمع: أمي الجافية، أمي الحنون، بل في الأيام الأخيرة أصبحت أسمع في الشارع أحيانا: أمي البديلة، اربطي لي حذائي. ولكن يندر كثيرا إن لم ينعدم أن أسمع جملة: أمي الحقيرة.

لم تفهم الفتاة كلام وائل، كما أنها لم تفهم أبدا لماذا يستمر وائل في مناداتها بلمياء، فتساءلت: ربما يكون وائل على علاقة بفتاة اسمها لمياء. هزت الفتاة رأسها لتطرد تلك الفكرة غير المشجعة على الإطلاق، ثم قالت:

-وائل، أمي ستأتي لتقلني الآن، هيا لنتقدم على حافة الطريق. فقال وائل:

-هيا لنذهب، أخيرا لقد دنت ساعة الفرج.

وعندما وقفا على حافة الطريق قامت الفتاة بمد ذراعيها إلى الأمام وتشبيك يديها وإمالة رأسها على كتفها وهي تضيء وجهها بابتسامة لطيفة، وتغمض من عينيها قليلا لتدلا على التوسل. حركات مخيفة فعلا، تخيف الرجال العقلاء، لكنها تغوي الرجال الحمقى. فكثيرا ما يوصي الرجل الحكيم زميله الغر بأن يركض بعيدا إن شاهد هذه الحركات من فتاة. لأنه حينها مشرف على الإفلاس، أو موشك على الوقوع في الأسر الأبدي. لذلك على الرجل العاقل أن يركض كلما شاهد تلك الحركات من فتاة، تماما مثلما عليه أن يركض إن سمع زئير الأسد، أو رأى لسان الأفعى، أو شاهد في الشاطئ زعنفة القرش تطفو على سطح الماء، أو رأى سلاحا دون أن يرى في نفس الوقت بزة نظامية. وما دام وائل ينتمي إلى الصنف العاقل فقد راوده شعور بالخوف حتى إنه تراجع إلى الوراء بخطوتين. ووائل من صنف معين من الرجال، الصنف الذي عندما يخاف يغضب، أو يتظاهر بالغضب إخفاء لمشاعر الخوف، لذلك فقد صرخ غاضبا –أو خائفا- :

-أصبح الوضع لا يطاق أبدا، ماذا تريدين أيضا؟ لقد كنت صبورا جدا معك، هيا تكلمي بسرعة، تكلمي.

فقالت الفتاة بهدوء ودلال وهي تترنح قليلا مع المحافظة قدر المستطاع على وضعها الأول:

-وائل، أرجوك، أريد أن تذهب معي إلى الشاطيء، وسنقضي وقتا ممتعا، وسنبني قصور الرمال، ونأخذ صورا مع الأحصنة والجمال، وسأشتري لك البوظة والفطائر، بل إن كنت مهذبا ولطيفا فسأشتري لك ربما حتى الشواء وعصير لب البرتقال، وسنلعب لعبة العيدان، وصدقني وائل، إن خسرت وأسقطت العود، فلن أطلب منك أمرا محرجا، سأتساهل معك، سأطلب منك فقط أن تغطس رجليك في الماء وتعود، أو شيئا من هذا القبيل، أما إن نحت أنا تحت العود وسقط فاطلب مني ما تشاء، ولا تتساهل معي، وسأفعل ما تطلبن حتى لو طلبت مني الرقص بشكل مضحك أو مصافحة شخص متجهم، أو النباح بصوت عال، أو رش عائلة متكبرة بالماء. أرجوك يا وائل، اقبل.

فقال وائل:

-يكفي من الإصرار يا فتاة. لقد سبق وأخبرتك أنني لن أذهب معك، ولن تستطيعي أخذي إلى الشاطئ إلا في تابوت. ولو أن أكسجين العالم احترق كله وأصبح متوفرا في الشاطئ فقط، لما ذهبت إلى الشاطئ، ولبقيت في بيتي أنتظر الحكومة لتوزع علينا قارورات الأكسجين في طوابير طويلة. بل لو كانوا يوزعون رتب عقيد في الشاطئ على المصطافين لما ذهبت إلى هناك، بل كنت سأكتفي بإرسال شخص ليحضر لي رتبة عقيد من هناك. أما أن أذهب أنا فهذا مستحيل. لذلك فاعلمي يا فتاة أنني لن أذهب إلى ذلك الشاطئ اللعين أبدا.

لكن الفتاة عندما يئست من ذهاب وائل، ورأت غضبه، ولعت بإغضابه أكثر، واقتربت منه واحتضنته بشقاوة، ووضعت خدها على صدره، وهي تقول بدلال:

-أرجوك وائل، هيا معي إلى الشاطئ، سنقضي وقتا ممتعا.

فأبعدها وائل عن صدره، ليس لأنه لا يحب حنان الحسناوات، لكنه لا يحب أن يعاكسنه رغما عنه، لأنه يرى أن ذلك انتقاص لرجولته، لأن الرجل يجب أن يكون هو الممسك بزمام المبادرة، فمعاكستهن له تعني أنهن يستهن به ويعاملنه كدمية، لذلك فهو لا يقبل أن يعاملنه كإحدى دمياتهن.

لكن الفتاة أصرت على المشاغبة وعادت وارتمت في حضنه وهي تقول:

-أرجوك وائل، سنقضي وقتا ممتعا، صدقني.

فأبعدها وائل وهو يقول:

-أصدقك؟ لقد عشت معك تجارب غير مشجعة أبدا على التصديق. فأمك ماتت بالسرطان، وأبوك سقط من طائرة.

فقاطعته الفتاة مصححة:

-من ورشة لا من طائرة.
فقال وائل:
-وما الفرق؟ من ورشة أو من طائرة، المهم أنه لم يسقط، وأنه قادم الآن ليخلصني من كذبة أبريل تمشي على رجلين.
فقالت الفتاة بعصبية:
-أنا لست كاذبة، كل ما في الأمر أنني طيبة وحنون وأتأثر بمعاناة الناس من حولي –هنا عقد وائل حاجبيه تهكما بالفتاة- فجارتي وصديقتي هي التي حدث لها ذلك. لقد مات أبوها وأمها مثلما حدثتك من قبل، وأقامت معي لسنة كاملة في البيت، لكن أمي طردتها فيما بعد وسلمتها إلى الشرطة، رغم أنني رجوتها أن تتركها تبقى لأنها صديقة طفولتي. لكن أمي رفضت، وقالت أنها لا يمكن تحمل نفقاتها، وأن الحياة صعبة، وأنها لا تستطيع إعالة الجميع، وأن بيتنا لا يتسع لسكان الصين الشعبية. رغم أن صديقتي فتاة مهذبة ولا تفتعل المشاكل أبدا مثلما أفتعلها أنا. حتى من ناحية الطعام هي لا تأكل إلا قدرا ضئيلا. تصور وائل، لقد كنا نشتري خمس شرائح من الخبز، وعندما رحلت أتدري كم صرنا نشتري؟ صرنا نشتري ستة، أقسم لك. أضف إلى ذلك أنها ذكية وهادئة، ولو أن شخصا أعمى كان معنا في البيت ما كان ليشعر أبدا بوجودها، ورغم ذلك فإن اختفى شيء من الطعام أو خرب شيء من الأثاث كانت الأصابع دوما تشير إليها. رغم أن الفاعل هو أنا، ورغم أنني جديرة جدا بالاتهام بتلك الأمور. ولم أكن أستطيع الاعتراف لأنقذها، لأن أمي قاسية. لكنني اعترفت مرة لأنقذها فعاقبتني أمي بقسوة أكثر من المعتاد. لذلك فقد وجدت أن الحل الأفضل من أجل حمايتها أن أتوقف عن ارتكاب الحماقات وأن أقاوم نزواتي الطفولية. أما علاماتها فقد كانت دائما أعلى من علاماتي. فكنت في البداية أغار منها وأشوش عليها. ولا أحتمل أن أراها وهي تراجع دروسها، فأرغمها على اللعب معي. لكن فيما بعد فهمت أنها أكثر مخلوق يحتاج إلى النجاح في دراسته. لذلك صرت أخفض من صوت التلفاز، وأسرق لها القهوة والمكسرات من المطبخ من أجل أن تساعدها على المراجعة، لكنها لم تكن تتركني ألعب، بل كانت ترغمني على المراجعة معها، وتحسنت علاماتي كثيرا، أما هي فقد حصلت على المرتبة الأولى. وصنعوا لها حفل تكريم، وفرحت لها كثيرا، لكن أمي لم تأخذها إلى الحفل بحجة أن السيارة معطلة. كنا نستطيع أخذ سيارة أجرة لكن أمي لم تسمح بذلك، وبعد أيام طردتها أمي من البيت. ورجوت أبي كثيرا الذي كان يحبها أيضا مثلي، لكنه تردد، وقال لي أن الشرطة ستأخذها إلى دار رعاية الطفولة، وأنها ستكون هناك سعيدة، وربما كان أبي على حق، لأنني لأم أرها بعد ذلك إلا منذ خمسة أشهر، وبالضبط في مارس الماضي، لقد تزوجت، وكانت تحمل طفلة بين ذراعيها، وولم تكن ثيابها من الطراز الجيد، لكنها كانت نظيفة كالعادة، وعندما رأتني عانقتني بقوة، وبكينا كثيرا، وقالت أنها اشتاقت إلي كثيرا. أتدري يا وائل ماذا سمت طفلتها؟ لقد سمتها حسيبة، أقسم لك –قالت الفتاة ذلك وهي تخلط الدموع بالضحك- وعندما سألتها عن عنوان مسكنها لم ترض أن تجيبني، وقالت لي: سنلتقي مرة أخرى. ثم جاء زوجها وأخذها، لقد كان كهلا حقيرا. فقد قام بحركات بذيئة، ووصفها بصفات قبيحة، لو أنها استشارتني لما رضيت لها أبدا أن تتزوج شخصا كهذا. حتى القبر كان سيعاف شخصا مثله. ليتك كنت هناك يا وائل لتضربه ضربا عنيفا. لقد عاكسني أمام زوجته. تصور ذلك. لكن صديقتي سارعت إلى حمايته قائلة: -كلا، إنها إنسانة محترمة. فقال لها: -وأنت هل صرت أيضا إنسانة محترمة فجأة. فقالت: لا. فقال: فهيا إذن، فقد تحدثوا اليوم عن عاصفة قوية. ثم ذهبا. أكيد أنها احتملته من أجل طفلتها فقط. فهي ناكرة لذاتها. عندما أفكر بأنها تعيش مع ذلك الشخص أصاب بالجنون. هي تستحق رجلا أفضل. وذلك الحقير لا تناسبه إلا أمي. كانت لتصنع منه ولدا مهذبا.
فقال وائل:
-قصة محزنة فعلا. وقد علمت أنك صادقة لأنني رأيت أنك لا تفهمين حيثياتها جيدا. ولكن هذه الأحداث حصلت لصديقتك ولم تحصل لك، لذلك فأنا لا أزال أسمي انتحالك لشخصيتها كذبا.
فقالت الفتاة غاضبة:
-أنا لم أكذب، فأنا أنقل معاناة الناس فقط، مثلما يفعلون في الروايات، أنا لست حجرا، أنا أيضا أتأثر بمعاناة الناس من حولي.
ثم أردفت:

-أنا أفعل مثلما يفعل الروائيون عندما يصنعون قصة خيالية لنقل معاناة الناس، فأنا أقتدي بأبي الذي هو أحد الروائيين، لقد دخل ذات يوم إلى المقهى مع جارنا النجار، فسألهما النادل: ماذا تصنعان. فقال جارنا: أصنع الأبواب. وسأل أبي فقال له: وأنا أصنع الأشقياء. فأجابه النادل: يبدو أن بضاعتك كاسدة فعلا، على الأقل في أحيائنا الشعبية هذه، فيوجد ما يكفي منهم هنا.
أتعلم أن أبي كتب قصة عن صديقتي التي لم يستطع أن يبقيها في البيت، لأن أمي كانت ترفض إبقاءها بشدة. فأمي متسلطة لا يستطيع أحد معارضتها. رغم أنها دكتورة في الأدب الفرنسي، ورغم أن أول كتاب قرأته –أو أرغمت على قراءته- هو مختصر لرواية البؤساء، ورغم أنها تدرس في الجامعة قصص أولئك الأشقياء. لكنها لا تشفق عليهم أبدا، فكل ما استفادته من تلك الكتب أنها تنهاني أن أمشي مع المتحجبات، أو أن أصلي، كما أنها تنهاني عن الاستماع إلى القرآن في التلفاز، وأبي الحقير يقف في صفها في هذه النقاط بالذات. فهم يريدون إرسالي إلى فرنسا لأدرس هناك. ذات يوم، ذهبت مع أمي إلى فرنسا حيث يقيم خالي، فرأتني وسط فتيات فرنسيات، وأنا أتحدث معهن بالفرنسية، فرأيت الدموع لأول مرة في عينيها، ونادتني لتعانقني وتقول: أفديك بروحي يا ابنتي، لقد جاء خالك فقلت له أن يحزر ابنة أخته من بين الفتيات الفرنسيات، فلم يستطع ذلك، بل أخطأ عدة مرات. هاهو خالك فسلمي عليه.
لقد كانت تلك يا وائل المرة الأولى التي أذوق فيها حنان أمي. حسنا لنعد إلى موضوعنا، هل الروائيون كذابون أم لا، وإلا فلماذا يحل لهم الكذب ويمنع علي أنا فقط. مع أن لدينا نفس الأهداف.
فقال وائل:
موقف الناس يختلف من الروائي، فهناك من يقول عنه: أنه مجرد دجال آخر يستولي على أموال الناس بالأكاذيب، فيقول أن إيفان إيفانوفيتش كسرت ساقه في جسر اسماعيلوفسكي، لأن حوذيا ثملا صدمه وهو يقطع الجسر، مع أن إيفان إيفانوفيتش لم تكسر ساقه، بل ربما لم يوجد أصلا لتكون له ساق يستطيع كسرها حوذي ثمل، وهناك من يقول أن الروائي رجل عظيم، يروي معاناة سكان الأكواخ والأقبية المظلمة، ليقول عنهم لأصحاب القصور العالية ذات السقوف المذهبة: هؤلاء إخوتكم، هؤلاء أيضا مثلكم. أما عن رأيي أنا فالروائي يكون رجلا عظيما أو دجالا حسب نيته من الرواية. ولكن يا أميرتي أنت لست روائية لذلك فلا تكذبي، فعلى الأقل الروائي يكتب على الغلاف كلمة: رواية. أي هذه قصة خيالية فقط وأنا أكذب من أجل النقود والشهرة، أو من أجل إصلاح المجتمع. أما أنت فلا تعترفين بالكذب إلا عندما تكتشفين.
فقال الفتاة:
ليس كل الناس يقرأون الروايات، لذا يجب أن نذهب إليهم إلى طاولاتهم في المقاهي لنروي لهم تلك المعاناة. ماذا لو جئت يا وائل إلى ساحة البريد المركزي قبل سنوات ورأيتنا نتناول البوظة، ألم تكن لتقول بغبطة: زوجان متحابان، وأختان جميلتان إحداهما تشبه الشوكولاتة، ورضيع مدلل، يا لها من عائلة سعيدة، لكن الأمور لم تكن أبدا كما تبدو، ولم نكن أبدا عائلة سعيدة، فأنا وأبي وصديقتي، كلنا عانينا من تسلط أمي، أما أخي، فأنا الآن أعتني به، وأحميه من تسلط أمي قليلا. كما أنك الآن لو رأيت صديقتي وزوجها، لشعرت بالشفقة وقلت: زوج كهل، مستعد لفعل أي شيء لسعادة زوجته الشابة وطفلته التي جاءته على الكبر، لكن الحقيقة ليست كذلك. انظر يا وائل إلى كل هذه العائلات التي تملأ ساحة البريد المركزي. للوهلة الأولى تظن أنها عائلات سعيدة، لكنهم يخفون الكثير من المآسي خلف تلك الابتسامات. أنا أتأثر بمآسي الناس من حولي، لست كغيري، لست غير مهتمة. انظر يا وائل إلى ذلك الرجل المستلقي هناك، قد يكون ميتا ونحن نظن أنه مستلق. أتعلم ماذا حدث في العام الماضي؟ لقد مات رجل في ساحة البريد المركزي ولم ينتبه أحد لموته. من يأتي في الصباح يظن أنه نائم منذ الفجر، ومن يأتي في المساء يظن أنه نائم منذ الصباح. أتعلم أنهم لم يتفطنوا لموته حتى تعفنت جثته وفاحت رائحتها؟ وحتى عندما فاحت رائحتها، لم ينتبه له الذين جاؤوا في الصباح، وظنوا أنه مجرد قذر نائم منذ الفجر، أما الذين جاؤوا في المساء –وهم في الغالب أقل انشغالا- فقد اقترب منه أحدهم ليعطيه درسا في النظافة، لكن جثة الرجل أعطته وأعطت الجميع دروسا قاسية في حقوق الإنسان على أخيه الإنسان.
أحس وائل كأن الفتاة تتشاطر عليه، فشعر بغضب رجولي من تفلسفها الوقح فقال:

-يكفي من التشدق يا فتاة. أخبريني عن صديقتك. لأنها حقا في ورطة كبيرة، ورطة هي فعلا أكبر من ورطة زواجها برجل قذر. لكنك فقط لا تفهمين.
فقالت الفتاة بخوف:
-يا إلهي، ماذا يحدث لصديقتي؟
فقال وائل:
-لا شيء. ولكن خذي، ها قد كتبت لك عنواني في تل الياسمين، عليك أن تعطيه لها في أقرب وقت إن كنت تحبينها، ولا أريدك أن تأتي معها.
فقالت الفتاة: حتى لو أردت المجيء فلن تدعني أمي، فحتى فلسطين قد تتحرر يوما، أما أنا فلن تطلع علي أبدا شمس الحرية، سأبحث عن صديقتي كل يوم، وعندما أجدها سأعطيها عنوانك، ولكن أريدك يا وائل أن تعتني بها جيدا، فهي فتاة طيبة، وأنا لا أعتبرها صديقتي فقط، بل مثل أختي، ولكن هل سيدعها زوجها تأتيك.
فقال وائل مستاء من غباء الفتاة:
-متى تتعلمين أن ليس هناك زوج، فصديقتك في ورطة كبيرة، وقد أوفر لها المأوى إن استطعت.
فقالت: هل تعدني.
فقال: أجل.
فقالت:
-أبي دائما يقول أنكم أهل الصحراء لا تنكثون بوعودكم، وأنكم تسمون كلمة الوعد بالرصاصة، ما إن يتفوه بها الرجل حتى يصبح عاجزا عن الرجوع عنها، مثل الرصاصة عندما تخرج من المسدس لا يستطيع أحد إعادتها إليه.
سكتت الفتاة قليلا ثم استدركت:
آسفة فقد قلت لي أنك لست من الصحراء، ولكنني متأكدة انك تملك مثلهم شيمة الوفاء بالوعد. فجأة شدت الفتاة شعرها وكأنه آلمها فجأة وقالت:
-اللعنة، لقد وصلت أمي. ثم لوحت بيدها.
فنادت الأم من السيارة:
-حسيبة، هيا فقد حان وقت الرحيل.
فقال وائل مستنكرا:
-ماذا؟ اسمك حسيبة وليس لمياء؟
فقالت الفتاة معتذرة بابتسامة:
-آسفة، هل قلت لك أن اسمي لمياء؟ لقد نسيت ذلك.
فقال وائل غاضبا:
-عندما أعود إلى تل الياسمين فسأقول لهم أنني تناولت البوظة مع المسيح الدجال في ساحة البريد المركزي. لا أظنك تستطيعين التلفظ بكلمة صدق واحدة.
فقالت الفتاة مستفزة لوائل:
-أنا كاذبة، ها قد قلت كلمة صدق.
فقال وائل:
-لقد كذبت في هذه أيضا، أأنت كاذبة فقط؟ بل أنت دجالة ملفقة مريضة.
فقالت الفتاة بابتسامة:
-آسفة.
فقال وائل بعصبية:
-ألا يمكنك التوقف ولو قليلا عن الكذب؟ اللعنة، يبدو أنك في حاجة ماسة إلى طبيب نفسي.
فقالت الفتاة غاضبة:
-ليس بيدي حيلة، فماذا أفعل؟ لقد جربت الكثير من الحلول، لكن بلا فائدة، فوضعي يزداد سوءا يوما بعد يوم. خذ الأسبوع الماضي مثلا، أتعلم أنني رميت جهاز التلفاز خارج غرفتي وقلت له: أنا الوحيدة من

يقول الأكاذيب هنا؟ أليست هذه الغرفة في النهاية غرفتي؟ ألا تقول أمي دائما: حسيبة، نظفي غرفتك، أرأيت يا سيادة التلفاز؟ هي لم تقل نظفي غرفة التلفاز، بل قالت نظفي غرفتك. أم إنه في وقت التنظيف تكون غرفة حسيبة، وعندما يحين وقت قول الأكاذيب تصبح غرفة التلفاز؟ هل هذه قسمة عادلة يا وائل؟
هنا نفذ صبر الأم فقالت:
-حسيبة، أيتها الحقيرة، ألم أنهك عن التحدث إلى الغرباء؟
فقالت الفتاة على الفور وهي تنظر إلى وائل وترفع صوتها مسمعة أمها:
-وائل ليس غريبا يا أمي، فقد كان زميلي في المتوسطة، ولم يكن معي في نفس القسم. وذات يوم وبينما هو في حصة التربية البدنية، رمى أحدهم الكرة بعيدا خارج المتوسطة، فتسلق وائل ليحضرها، لكن الكرة كانت اختفت، فعاد إلى المتوسطة وتسلق ليجد نفسه أمام الناظر وجها لوجه، فاتهمه الناظر بأنه قد قفز من جدار المتوسطة هربا من الدراسة، وعبثا حاول وائل إقناعه بأنه لو كان هاربا لقفز إلى الخارج لا إلى الداخل، فقال له الناظر هات الشهود، لكن لم يكن هناك شهود، ببساطة، لأنه في اللحظة التي قفز فيها وائل ليحضر الكرة حدث زلزال داخل المتوسطة، ومات كل زملاء وائل مع الأستاذ، فلم يجد وائل من يشهد معه. حتى الورقة التي فيها دليل على أن قسم وائل كانوا وقتها في حصة التربية البدنية قد اختفت. لأن المدير كان يعمل في مكتبه المظلم على بعض الأوراق، وانقطع التيار الكهربائي فجأة، فأشعل شمعة للحصول على ضوء أكثر، لكن الريح هبت فالنافذة كانت مفتوحة وأسقطت الشمعة، ويا للمأساة، فقد فقد سقطت بالذات على تلك الورقة واحترقت، وبالتالي لم يعد هناك دليل يثبت براءة وائل فطردوه من المتوسطة، لكنه انتقل إلى الصحراء، واستطاع إيجاد متوسطة تقبله، لأنه في الصحراء لا يوجد اكتظاظ في المدارس كما يوجد عندنا.
فصاح وائل وكأنه اكتشف البارود:
-وعندما ضرب الزلزال الذي أهلك زملائي، كيف لم يجدوا جثثهم في الملعب وهم يرتدون بزات الرياضة؟ ففي هذا دليل على أن قسمي كان لديه حصة تربية بدنية.
دهشت الفتاة وقالت لوائل بصوت خافت:
-وائل، أنا أكذب على أمي، من أجل أن أقنعها بأنك لست غريبا، سايرني وحسب.
ثم قالت بصوت مرتفع لتسمع أمها:
-لم يصلح دليلا، لأنه في اللحظة التي قفزت فيها لتحضر الكرة نزل مطر شديد، فقرر الأستاذ توقيف الحصة، وبدل قسمك ملابسهم، وفي لحظة خروجهم ضرب الزلزال، فماتوا بملابسهم العادية، أما الأستاذ فلو وجدت جثته معهم لكان ذلك دليلا يثبت براءتك، ويثبت أنهم كانوا في حصة تربية بدنية، لكن جثته اختفت، أتعرف لماذا؟ لأن الريح أخذتها، أقصد تلك الريح التي قطعت التيار الكهربائي، وأسقطت شمعة المدير على ورقة رزنامة الحصص، وذهبت قبل ذلك أيضا بالكرة التي قفزت من الحائط لتستعيدها، لقد محت تلك الريح كل الأدلة. لذلك يا أمي فوائل ليس غريبا أبدا، فهو زميل قديم نستطيع التحدث إليه في ساحة البريد المركزي، بل نستطيع حتى أخذه معنا إلى الشاطئ إن أصر على ذلك. ويمكننا أن نشتري له ما يريد لأنه ضيف عزيز.
تعجب وائل من كذب الفتاة إلى حد الدجل، وصدق أمها إلى حد الوقاحة حين وصفته أمامه بالغريب، لكنه مع ذلك أشاد بصدق الأم وساءه عدم اقتداء ابنتها بها، وقال في سره: فعلا النار تلد الرماد. لكنه عذر الفتاة قليلا، لأننا نكذب عندما نخاف، والفتيات يخفن طيلة الوقت لذلك فهن يكذبن باستمرار. هنا تكلم الأب الذي بدا أبا حنونا فقال:
-حسيبة، هيا لنذهب، فلن نجد مكانا في الشاطئ، أما أنت أيها الشاب، فأظن أنك الأكثر حظا في قسمك، لأنك لم تطحن في ذلك الزلزال، ولم تذهب مع الريح مثل جثة الأستاذ، ولم تحترق بشمعة المدير، وإنما وقعت بين يدي الناظر فقط، أجل صدقني، أنت أكثر حظا حتى من تلك الكرة والورقة المسكينتين.
فقال وائل للأب:
-أتمنى لكم وقتا ممتعا.
ثم نظر إلى الفتاة التي هدأت فجأة حتى صارت مثل بركة من الزئبق وقال:
-أما أنت يا لمياء... أقصد يا حسيبة، فأتمنى لك وقتا ممتعا، وأتمنى أن تتبعي حمية ما لتنقصي من الكذب.

فتصنعت الفتاة ابتسامة تأدبا مع مزحة وائل، رغم أنها كانت حزينة جدا. فقد كانت تنتظر كلمة لم يقلها وائل، والأم والأب يحثانها على المغادرة، ووائل مستعجل جدا لا يفكر إلا في الذهاب إلى أصدقائه المتوحشين. أحست الفتاة أن الوضع محزن جدا، حتى إن رأسها آلمها، وأحست أن الأرض تحت قدميها تترنح مثل السفينة، وشعرت أن الشاطئ الذي ستذهب إليه باهت وكئيب مثل مبنى حكومي، وفضلت الذهاب إلى النوم على الذهاب إلى الشاطئ، وأحست برغبة في البقاء وحدها. لكنها تشجعت وقررت أن تضع حدا لكل هذا، أو أن تخفف من الحزن على الأقل، فأمسكت بيد وائل، ورفعت رأسها والدموع تملأ عينيها دون أن تسيل، وقالت بصوت مبحوح أقرب إلى البكاء:

-وائل، أيها الحقير، انظر إلي جيدا وأخبرني الحقيقة، هل أنا أشبه الشوكولاتة فعلا؟ انظر إلي.

استغرب وائل من هذا الطلب، وقرب وجهه من وجهها وتمعن فيها جيدا، فرأى عينيها الرماديتين الواسعتين مثل الماستين، وقد اغرورقتا بالدموع، واختفتا وراء خصلات شعرها الكستنائي الذي يعبث به النسيم، ورأى شفتيها الحمراوين المكتنزتين وقد ضمتهما ببعضهما بقوة بسبب الحزن. أحس وائل لأول مرة منذ التقاها قبل ساعات بأنه أمام امرأة، لا أمام طفلة شقية. فاحمر خداه من الخجل،وبدا على صوته بعض التلعثم وهو يقول:

-فعلا أنت تشبهين الشوكولاتة يا لمياء... أقصد يا حسيبة... أنت رائعة.

ثم أمسك برأسها وضمها إلى صدره. في هذه اللحظات، هدر صوت الأم مبحوحا لعينا مثل صوت ساحرة شريرة وهي تقول:

-حسيبة، اصعدي إلى السيارة أيتها الحقيرة.

فنظرت الفتاة إلى وائل وهي تمسح دموعها ثم قالت:وداعا. ثم استدركت: انتظر وائل. فذهبت إلى السيارة من جهة الأب وهمست في أذنه بشيء سرا عن أمها، ثم عادت ووضعت ورقة نقدية في يد وائل وقالت:

-وائل، أنا أقسم عليك أن تأخذ هذه، إنها هدية مني إليك، من أجل أن تستطيع لعن تلك الآلات التي يمجدها صديقها سمير.

فقال وائل: كلا لن آخذها.

فرمتها الفتاة وذهبت إلى السيارة، وبمجرد جلوسها على المقعد الخلفي للسيارة، شدتها أمها من شعرها، وسحبتها منه إلى الجهات الأربعة، ثم تركتها وهي تصرخ عليها وتؤنبها على حماقاتها. لكن رغم ذلك، فقد ظلت في نظر وائل امرأة، رغم أن أمها عاملتها كطفلة. ولوحت الفتاة إلى وائل بيدها ثم أطرقت برأسها في حزن، حتى غابت السيارة عن نظر وائل، شاهد وائل الورقة النقدية مرمية على الأرض، فتحرج كثيرا من أخذها، لأنه من أولئك القلائل معتنقي ذلك المبدأ الذي يقول: أن تضع جمرة في جيبك خير من أن تضع فيه أموال امرأة. لكنه قرر في النهاية أن يضع الورقة في جيبه، وأن يردها لها بمجرد وصوله إلى الديار، فلديه رقمها، ويستطيع شحن قيمة ذلك المبلغ في رصيدها الهاتفي. فرح وائل بهذا الحل الرائع. رغم أن هذا الحل سيجعله مشاركا بطريقة مباشرة في تمويل حملة لنشر الإشاعات عبر الهاتف. لكن وائل خمن في رقة غير معهودة أن أكاذيب تلك الفتاة لم تكن مؤذية أبدا، بل كانت مجرد أكاذيب بيضاء وبريئة، خمن بذلك وهو يمسح البوظة التي كانت تلطخ قميصه الذي يبدو أن الفتاة كانت قد اتخذته منديلا طيلة اليوم، حتى إن شفتين صغيرتين كانتا مرسومتين بالبوظة عليه، مسح وائل قميصه وهو يسير باتجاه مقهى الجزائر البيضاء.

الفصل الثاني:

انطلق القطار متجها إلى مدينة تل الياسمين، بعد أن أخذ الركاب أماكنهم على عجل. لكن رغم تلك العجلة فقد استطاع الشلة أن يجلسوا بالقرب من بعضهم، فقد جلس مراد مقابلا لعلي وسمير، أما سامي فقد جلس مقابلا لوائل ووليد، لأن سامي من عادته أن يترك مقعدا فارغا بجانبه أملا في اصطياد حسناء، لكن هذه المرة لم يخب أمله، فقد سمع صوت كائن في منتهى الرقة يسأله إن كان المقعد غير محجوز، فالتفت سامي على الفور زيادة في التأكد، فرأى فتاة شقراء ممشوقة القوام، قد بدا عليها التعب والتأثر من ذلك الجو العاصمي الخانق. فأجاب على الفور بابتسامة مهذبة:

-لا أبدا، فالمقعد غير محجوز.

فحاولت الفتاة عبثا أن تضع حقيبتها فوق درج الأمتعة، رغم أن حقيبتها لم تبد ثقيلة جدا حتى بالنسبة إلى حسناء –لكن ليس بالنسبة إلى حسناء متعبة قضت يوما عصيبا في العاصمة-، فهب سامي بكل تهذيب إلى وضع الحقيبة على الدرج وجلس، فشكرته الفتاة وجلست وهي تبدي ملاحظات عن شدة الحر، وأخرجت من حقيبة اليد قارورة عطر ورشت منها على ثيابها ووجهها، ودخلت مع سامي في حوار لطيف. بينما كان -في المقعدين المقابلين- وائل يسأل وليدا:

-ألم يكن من الأفضل أن نأخذ سيارة أجرة؟

فقال وليد:

-أنت تعرف سميرا وعليا، إنهما مهووسان بالإجراءات الأمنية. وقد تملكهما الخوف لما سمعا النادل يتحدث عن خطورة ركوب سيارة الأجرة بعد النيل من سمعة الحكومة. لا أدري لماذا يخافان. فقد أخذنا بكل إجراءات السلامة: أعطينا المتسول النقود، ثم أريناه أن لدينا حبوب مهلوسة، ومكثنا في المقهى مستسلمين لمصيرنا، ننتظر وصول السيارات السوداء، بل مكثنا وقتا كافيا –كمواطنين صالحين- لوصول أبعد تلك السيارات، بل أخذنا في حسابنا كل الاحتمالات، كوجود زحمة سير خانقة، أو مشاكل في الاتصال بين المتسول الطيب و تلك السيارات، أو أن تلك السيارات منشغلة بتفجير أدمغة أكثر أهمية وأفدح جرما. لقد انتظرنا السيارات بكل تهذيب ولباقة، حتى إذا عرفنا أنها لن تأتي، غادرنا المقهى، بل إننا لما غادرناه عدلنا عن شراء تلك الجرائد المعارضة، واشترينا تلك الجرائد التي رئيس تحريرها وزير الداخلية. لن يستطيع الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم الحصول على أكثر من ذلك، لن يعطيهم أكثر من ذلك حتى أشد المواطنين صلاحا واستقامة. مع أنني موقن ان تلك الإجراءات هي مجرد مضيعة للوقت إذا قارناها بالإجراء الذي اتخذته أنا، وهو إظهار الحبوب المهلوسة، إنها الإجراء الوحيد الذي أنقذنا ذات يوم، وأظنه أنقذنا اليوم أيضا.

هز وائل رأسه ملمحا بأنه مقتنع اقتناعا تاما بإجابة وليد. رغم أن لديه اعتراضات كثيرة، خاصة وأن وليد زعم أنه هو من أنقذهم بإظهار الحبوب المهلوسة، رغم ان وليد كان بطيء الفهم جدا، ولم يظهرها حتى همس وائل في أذنه بشيء، كما أن الفضل في إعطاء سمير المال للمتسول يعود أيضا إلى وائل، لكن وائل لم يشأ أن يرافع لإثبات ذلك، لأنه فضل أن يضحي بلقب البطل مقابل شيء واحد...الصمت، وكان يحتاج إلى الكثير منه، أو القليل من الحبوب المهلوسة، لكن وائل فضل الحل الأول، رغم صعوبة الحصول عليه، خاصة على شخص يجلس بالقرب من وليد، ومقابلا لسامي الزير وهو يتحدث إلى فتاة، ووراءه سمير وعلي اللذان سيطحنان بعضهما بالنقاش، ولا ننسى مراد، برميل البارود، الذي تكفيه شرارة واحدة لينفجر بالصراخ، مهما كانت هذه الشرارة صغيرة، كأن يقول له موظف القطار: أرني تذكرة. دون أن يقول: سيدي، أعطني التذكرة من فضلك. أو أن يقول له شاب: من فضلك لو جلست في ذلك المكان الشاغر لأنني أريد الجلوس مع صديقتي هنا، لأنه لا يوجد في القطار مقعدان شاغران متجاوران آخران. فهي إهانات لا تغتفر في نظر مراد. لذلك فوائل لن يحظى أبدا بالصمت. كما أنه لن يتناول الحبوب المهلوسة، بل إنه لم يتناولها منذ مدة طويلة، وكانت زلة منه فقط أنه تناولها. لأن وائل رجل عاقل، ويحرص كل الحرص على الحفاظ على عقله، لأن عقل الإنسان هو سلاحه الرئيسي -وأحيانا الوحيد- في مجابهة الأخطار، خاصة تلك التي تصدر من العقلاء، لأن الإنسان مزود بدفاع فطري ضد الأخطار الطبيعية. أما الأخطار البشرية، دائمة التطور والتحول، فلا يمكنه مواجهتها بتسعة أعشار عقل، بل يحتاج عقله كاملا، لأن نتيجة

الصراع كلها سيحسمها ذلك العشر الأخير. لكن وائل اعترف أن الحبوب المهلوسة ليست دائما غير ذات فائدة، وعاد بفكره إلى تلك الأيام، حين كان في الرابعة عشر من عمره... يا إلهي، إنه ذلك السن، حين يجن الآباء ويبدؤون في طرد الأبناء، أحيانا لأسباب تافهة، وأحيانا من دون سبب حتى. لكن الشلة وجدوا حلا لمواجهة جنون آبائهم، ولأن الشلة أيضا كانوا مقبلين على المرحلة الثانوية، فقد طلب سمير من والده أن يوفر له شقة خاصة به وبالشلة ليدرسوا فيها ويحضروا لامتحانات الدخول إلى الثانوية، فأصبح للشلة شقتهم الخاصة بهم. كانوا كلما طرد أحد من الشلة من بيته بات معه كل الشلة في الشقة، فقضوا غالب أيام السنة هناك. فقد استعملوها للدراسة، وأحيانا كمأوى، أو للألعاب الإلكترونية، وأحيانا في أشياء غير بريئة لدرجة أن العديد من الفتيات ما زلن يذكرن أنهن أعددن أول قهوة لهن في تلك الشقة. لكن الفتيان فيما بعد أصابتهم حمى المطالعة، ففي البداية كانوا يطالعون كتبا بذيئة كان ينتقيها سامي لهم بعناية، لكنهم فيما بعد ملوا من تلك الكتب، ونضج ذوقهم أكثر، ، لكنهم لم يعودوا يطالعون نفس الكتب، بل شيئا فشيئا أصبح لكل واحد مكتبته الخاصة ومذهبه الخاص. فسامي فضل الليبرالية، ولم يكن ليختار غيرها، لأن سامي من الصنف الذي يستحق البقاء، الصنف الأقوى. لكن سامي يزعم أنه اختار الليبرالية لأنه يؤمن بالنتائج فقط، والنتائج تشجع –حسبه- على اختيار الليبرالية دون غيرها، فاختار سامي الليبرالية، واعتنق كل مبادئها.
لكن رغم ذلك، عندما يكون سامي في السوق يبيع الأحذية من أجل الحصول على دخل إضافي، رغم ذلك، كان يطرد الأطفال الصغار الذين يبيعون أحذية مماثلة وبسعر أقل. لقد كان يبعثر بضاعتهم لأنهم عرضوها بالقرب من بضاعته، بحجة أنهم لا يتاجرون بل يستمتعون بوقتهم فقط، لأنهم يبيعون البضاعة بسعر الشراء كما قال. لذلك كان ينصحهم بممارسة هوايات أخرى لا تسبب الإفلاس للآخرين. فما داموا يقنعون بربح أقل ينفقونه في شراء الحلوى وبعض الترهات الطفولية فما يقومون به ليس تجارة أبدا، بل كل ما يفعلونه هو نقل البضاعة من المخزن إلى السوق لقاء أجر زهيد، فهم عتالون وليسوا تجارا بالمعنى الصحيح. أما هو فلا يرضى إلا بربح معقول، فلديه سجائر يجب شراؤها، وجسد عار يجب كسوته، كما أن لديه حبيبة مدللة تعتبر تلك الهدايا الرخيصة وذلك الغداء في المطاعم المتواضعة ضربا من الإهانة التي لا تغتفر. لذلك فسامي لم يدعهم يعملون، ولم يتركهم يمرون. كان يبعثر بضاعتهم في بداية الأمر، ثم اهتدى إلى حل آخر. لقد صادقهم، وصار يصطحبهم معه فأكسبهم عادة التدخين والتردد على المقاهي، ثم اشترى منهم بضاعتهم بمال أنفقوا جزءا منه في عاداتهم الجديدة، فاشتروا كمية أقل من البضائع بالمال الذي بقي لهم، وخفض أثمان بضاعته مؤقتا فقلل الطلب على بضاعتهم، فوجدوا أن ربحهم قد قل وأن حاجاتهم قد زادت –بسبب العادات الجديدة التي اكتسبوها- فباعوا بضاعتهم مرة أخرى لسامي، وأنفقوا ثمنها في حاجاتهم وأفلسوا، فاقترح عليهم سامي أن يعملوا عنده لقاء أجر يومي مضمون فقبلوا وأصبحوا أجراء عند سامي، فاحتكر سامي تجارة الأحذية في المنطقة الشمالية من السوق، وأصبح لديه باعة، فحصل على مزيد من الربح ومزيد من الوقت. وفرح سامي بأول نصر له يحققه في السوق. وكان يبرر فعلته بأن ذلك أفضل للجميع، فهو قد زاد ربحه وقل تعبه، والأولاد أصبحوا يحصلون على دخل أعلى وأكثر استقرارا، والزبائن صاروا يشترون من عند تاجر واحد يجدون عنده تقريبا كل علامات وقياسات الأحذية، بعد أن كانوا يشترون من عند عدة تجار يوفرون عددا محدودا من العلامات والقياسات. وهذا ما جعل تمسكه بالرأسمالية يزداد، وانبهاره بسحرها يكبر.
أما علي، ابن أسرة ثرية قادمة من جبال جرجرة، فقد آمن أن الإسلام هو الحل، وأن تلك الحلول المستوردة هي مجرد نظريات فشلت في عقر دارها. أما الحلول المحلية الأخرى –من قومية ووطنية- فهي إما هزات ارتدادية وردات فعل أثارتها تهديدات خارجية، وإما سبل حتمية فرضت علينا سلكها ظروف تاريخية، زالت مبرراتها بزوال تلك الظروف والتهديدات. كما آمن علي أن العقل الإنساني أكثر ضيقا ومحدودية عن أن يبني نظاما، فهو إن بنى نظاما اقتصاديا غزير الإنتاج فإنه سيرتكب –في نفس الوقت- مجازر أخلاقية في الجانب المتعلق بالتوزيع. وحتى إن استطاع أن يبني نظاما اقتصاديا متكاملا يوما ما –ربما بعد قرون- فلن يكون حتما متكاملا مع الحياة الاجتماعية، ويستشهد علي بأن تفشي البطالة –الذي هو أم الأمراض الإجتماعية- هو مظهر صحي في الرأسمالية، كما أن الرخاء الاقتصادي –المنشود اجتماعيا- يعتبر ظاهرة مرضية في النظام الرأسمالي حتى إن سدنته أسموه بالكساد. لذلك يقول علي أن القرآن الذي هو كتاب الله الوحيد الذي بقي سالما من التحريف، أنزله الله –عز وجل- رحمة للبشر، حيث

خاطبهم وبين لهم الحسن من القبيح، وما ينفعهم وما يضرهم، ونظم حياتهم، وحدد لهم فيه قوانين تجعل حياتهم أفضل وأسهل، شرع لهم مبادئ تشكل نظاما اقتصاديا عادلا يؤمن لهم رفاهيتهم وكرامتهم، وسطر لهم قانونا جنائيا معجزا يحل العدل بينهم ويحفظ أموالهم ودماءهم وأمنهم وكرامتهم وحريتهم، وأمرهم بآداب اجتماعية تضبط علاقة الفرد مع الفرد وعلاقة الفرد مع المجتمع وتحدد للجميع حقوقهم وواجباتهم، وحدد بدقة علاقة المواطن مع الدولة بشكل يضمن الأمن والرفاهية والحرية للفرد ويضمن الاستقرار للدولة، كما أن الله قد حرم عليهم الشرك والظلم والفواحش والمنكر وأمرهم بالعدل والإحسان وصلة أولي القربى، كما أن الإسلام قد اهتم بأمور الدنيا مثلما اهتم بالآخرة، فأمر الناس بكل ما سينفعهم في الدنيا والآخرة، وحرم عليهم كل ما سيضرهم في الدنيا والآخرة، لأن الله هو خلقهم، وهو أعلم بما ينفعهم وبما يضرهم، لأن الله يعلم كل شيء، ولو أن حبة خردل كانت في صخرة في الأرض، أو في السماء، لعلم الله بمكانها وأتى بها، فالله إن أمرنا بشيء فلأنه ينفعنا من كل النواحي على الإطلاق، وإلى الأبد، حتى لو ظننا بعقولنا الصغيرة المريضة أن ذلك الشيء قد يؤلمنا قليلا، فنحن لا نستطيع أن نعصي الطبيب حتى إذا وصف لنا دواء مرا، أو أمرنا ببتر أحد أعضائنا المريضة.

كما أن الله –عز وجل- قد قال عن ذاته المقدسة: (له الخلق والأمر)، فكيف يدعي البشر الذين لم يخلقونا أنهم يستطيعون أمرنا وتشريع القوانين لنا. فعلي مستعد للخضوع لقوانين وتشريعات البشر الوضعية لكن بشرط واحد بسيط، وهو أن يثبت هؤلاء البشر أنهم هم من خلقوه وليس الله، وإن لم يثبتوا ذلك فليس لهم الحق أبدا في تحديد ما يجب وما لا يجب. وإن كانوا مصرين على إملاء القوانين والتشريعات على الآخرين فعليهم أن يخلقوا جماعة من الناس، وعندئذ فلهم كل الحق في أن يملوا على مخلوقاتهم ما يفعلون وما لا يفعلون. أما هو، أي علي، فلا أحد يملي عليه التشريعات إلا الله، لأن الله هو الذي خلقه ولذلك فهو يدين لله وحده بالطاعة، ويدين بالولاء أيضا للحكام الذين يحكمون بقوانين الله الذي خلق عليا. أما الحكام الآخرون الذين يحكمون بإملاءات البشر الضعفاء مثل علي فهو لن يدين لهم بشيء من الطاعة أبدا. لأنهم مجرد عبيد لأولئك البشر الآخرين الذين يسنون قانونا ثم يبدو لهم بعد ذلك قانون آخر أحسن منه -أو أكثر مراعاة لمصالحهم وتماشيا مع نفسياتهم- فيلبثون هكذا إلى الأبد يشرعون وينسخون في حيرة واضطراب، فيعتنق البشر أحد أفكارهم ويقومون بالحروب من أجلها، ويقدمون الضحايا من أجلها، وبعد عقود يتبين أن تلك الأفكار كانت خاطئة، وأن دوافعها كانت نفسية أو مصلحية، وهذا ما لن يخدع به علي.

كما أن عليا يتعجب من حلم الله ورحمته بخلقه حين خلقهم فعبدوا الحجر والشجر، وحكموا قوانين البشر، مع أن عليا حين يكون في بيته –التي لم يخلقها علي ولكنه اشتراها أو بناها-، لكن مع ذلك فإنه يغضب أشد الغضب إن خالف أحد الزوار قوانين علي، كأن يدخل بحذائه إلى غرفة المعيشة، أو ينفض سجائره على السجاد. فتعجب من حلم الله على البشر الذين استخلفهم في الأرض لعبادته وتحكيم شرعه لكنهم عبدوا غيره وحكموا غيره.

كما أن عليا يقول أيضا أن القرآن هو الجزء الوحيد الذي بقي من كلام الله على وجه الأرض. فكل الكتب الأخرى التي أنزلها الله قد نالها التحريف والتبديل والضياع إلا القرآن، فالقرآن الذي يدرسه الصبيان في الكتاتيب الآن هو نفسه القرآن الذي كان يتلوه محمد (ص)، دون اختلاف في حرف واحد. ومخطوطات القرآن التي توجد في متاحف أوربا والتي كتبت بعد بضع عقود من وفاة محمد (ص)، خير دليل على ذلك.

كما أن لكل نبي معجزة، فإبراهيم ألقي في النار وخرج حيا، وموسى غلب سحرة فرعون بالعصا التي تحولت حية، وعيسى كان يشفي العمي ويحيي الموتى بإذن الله وأنزل الله عليه مائدة من السماء، أما محمد (ص) فمعجزته الكبرى هي القرآن، وهي -بعكس معجزات الأنبياء الآخرين- معجزة دائمة بدوام البشرية، يستطيع البشر رؤيتها في كل زمان ومكان. لأن رسالات الأنبياء الأوائل كانت خاصة بأقوامهم وبعصورهم، أما رسالة محمد (ص) فهي رسالة عامة موجهة للبشر جميعا، وفي كل زمن إلى يوم القيامة. فقد ورد في القرآن:(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين). ومن هنا كانت الحكمة في إنزال القرآن، كمعجزة دائمة باقية ببقاء البشر.

فهناك إعجاز تشريعي يتمثل في عدالة وصحة القوانين التي سنها القرآن، كالمواريث والحضانة وأحكام البيع وحقوق المرأة وآداب الاستئذان وحقوق الجار والوالدين وغيرها، كما أن هناك إعجازا بيانيا، حيث وصلت بلاغة الأسلوب القرآني درجة جعلت الكفار العرب يقفون عاجزين مشدوهين، وتحداهم الله –عز

وجل- في القرآن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يستطيعوا، ثم خفف عنهم وطلب أن يأتوا بعشر سور فقط فلم يستطيعوا، حتى طلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط أسلوبها يماثل الأسلوب القرآني فلم يستطيعوا كذلك. بل كانوا -رغم كفرهم واضطهادهم للمسلمين- يسجدون إجلالا لبلاغة القرآن التي اعترفوا بعجزهم عن محاكاتها.

أما الإعجاز العلمي فقد ذكر القرآن والسنة حقائق علمية كان من المستحيل على محمد (ص) في ذلك الوقت بوسائل ذلك العصر أن يصل إليها، مثل إثباته لحركة الأرض ودورانها حول نفسها في الآية: (وترى الجبال تحسبها هامدة وهي تمر مر السحاب)، وأثبت كروية الأرض في قوله: (يكور النهار على الليل ويكور الليل على النهار). وأثبت تأثير الجاذبية على المسارات في الفضاء، فكان القرآن إذا ذكر شيئا ينتقل على الأرض قال: يسير. وإذا ذكر شيئا ينتقل في السماء قال: (يعرج في السماء). ويعرج تعني السير في خط منحن. كما تطرق إلى تناقص الضغط كلما ارتفعنا إلى أعلى في قوله: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد إلى السماء). كما ذكر أن مدة حمل الجنين الحقيقية هي ستة أشهر، وقال محمد (ص) عن تخلق الجنين، أنه يكون نطفة أربعين يوما، ثم يكون علقة –دما جامدا- أربعين يوما، ثم يكون مضغة –قطعة لحم بحجم اللقمة- أربعين يوما. ثم ينفخ فيه الروح، أي أنه يصبح كائنا حيا بعد أربعة أشهر من الحمل. كما أن القرآن قد ذكر أن فرعون موسى قد حفظ الله بدنه إلى يوم القيامة ليبقى آية للبشر وعبرة للطغاة، فقال –عز وجل- مخاطبا فرعون أثناء غرقه: (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية). وفعلا هو الآن موجود في مصر يشاهده السياح القادمون من كل مكان، رغم أن الكتب السماوية الأخرى تطرقت فقط إلى موته دون التطرق إلى مصير جثته، وهذا ما جعل عالم آثار يسلم عندما يطلع على هذه الآية في القرآن. كما أن محمدا (ص) حين كان يتحدث عن جهنم قال أنها أوقدت ألف عام حتى احمرت، ثم ألف عام حتى ابيضت، ثم ألف عام حتى اسودت. وفعلا، فعلماء الفلك اليوم يصنفون النجوم حسب الحرارة التي تصدرها، فالحمراء أقل حرارة من البيضاء، أما السوداء فهي –نظريا- تعني حرارة غير نهائية، إذ أنها في الواقع غير موجودة، لأن الله ادخرها للكافرين في نار جهنم. كما أن الله –عز وجل- قد قال عن العسل: (فيه شفاء للناس). ويبدو أن البشرية ضائعة حين فرطت في فوائد العسل والتداوي به، وهرعت تسعى خلف تلك السموم التي يسمونها بالأدوية. رغم أن الله الذي خلق البشر وخلق الأمراض قد وصف العسل كشفاء. كما أن محمدا (ص) قد قال عن الحبة السوداء أن فيها شفاء من كل داء إلا الموت، لكن البشر بما فيهم المسلمون لا يستعملونها، ويقول علي أنه يتعجب من المرضى بأمراض مستعصية على الطب الحديث لماذا لا يستعملون العسل أو الحبة السوداء، فإن تعافوا ربحوا مرتين، مرة حين تعافوا، ومرة أخرى حين يعلمون أن هذا الدين هو الدين الحق.

كما أن الله –عز وجل- قال عن القرآن: (فيه شفاء ورحمة للمؤمنين) وهذه معجزة كبرى يستطيع أي إنسان مسلم أو غير مسلم أن يشاهدها عيانا -فمحمد (ص) معجزته القرآن التي هي معجزة خالدة- يكفيه أن يحضر شخصا أصيب بمس من الجن أو أصيب بسحر أو أصيب بلدغة عقرب، وليقرأ عليه ما شاء من الكتب الأخرى، وبعد ذلك فليقرأ القرآن، وإن لم يكن يحسن قراءته فليشغل تسجيلا صوتيا للقرآن. وكان علي يقسم بأن هذا الإنسان الذي يجري الاختبار إن لم يشاهد تأثير القرآن عيانا ومباشرة، فعلي مستعد لفعل أي شيء يمليه هذا الإنسان عليه، ولو طلب من علي أن يفجر رأسه بمسدس، لانتحر علي بدون تردد.

لذا فعلي يقول أن القرآن لا يوجد فيه خطأ ولا نقص ولا تناقض، وهو مستعد ليواجه علماء العالم كلهم، وليتحداهم ليبحثوا عن أي تناقض أو خطأ، مع قبوله بأن يشكلوا فريقا واحدا ضده، وبأن يلبثوا ما شاءوا من الزمن.

ويوقن علي بأن الكتب السماوية الأخرى كلها محرفة جذريا، وأن القرآن الآن هو الصلة الوحيدة بين الأرض والسماء. لأن التوراة حرفها أحبارا اليهود –الذين كانوا يحتكرونها دون العامة- حسب أهوائهم. أما الإنجيل، فبغض النظر عن أنه توجد منه عشرات الروايات المختلفة جذريا عن بعضها، والفرق بين الرواية والرواية الأخرى من الإنجيل كالفرق بين كتاب: (النظرية النسبية وجذورها) وبين كتاب: (كيف تسلقين بيضة). فأغلبها عندما يقرأها المرء يشعر كأن أحد الحواريين هو من كتب الإنجيل، ولا يمكن أن

يكون كلام الله، فهو يحكي عن أحداث وقعت لعيسى عليه السلام وأصحابه، وكأنه سيرة ذاتية لأحد الحواريين. أو كأن الحواريين أو تلاميذهم كتبوا كتبا لحفظ أحكام المسيحية ولتخليد كفاح المسيح وتلاميذه، وأوردوا فيها بعض ما حفظوه من الإنجيل، فمن جاء بعدهم من المسيحيين ظن أن تلك الكتب هي الأناجيل. وبما أن تلك الكتب -الأناجيل- كتبت بتلك اللغات القديمة، التي كانت لغات شعوب وثنية متخلفة، شعوب كان مركز الإله عندهم منحطا، إذ لم يكونوا يترددون في إطلاق صفة: (ابن الله) على امرأة جميلة أو على زعيم قوي، لذلك كانت لفظة -ابن الله- لا تمثل لهم إلا مجرد لقب مثل الكونت أو العظيم، ولم يشذ عن تلك القاعدة حتى الموحدون النصارى الذين جاءوا بعد الحواريين، فأطلقوا على عيسى (ص) لقب -ابن الله- وهم لا يقصدون ذلك حقيقة، بل يقصدون تعظيمه وتبجيله، واعتبروا ذلك اللقب من شاكلة: حبيب الله أو هبة الله أو صفي الله، وبعد أن جاءت الأجيال الأخرى، واعتنقت روما المسيحية، كان الرومان مشبعين بتلك العقائد الوثنية، فكانوا يعبدون كل ما يتحرك، أما المسيحيون فكانوا يعبدون إلها واحدا، فتوصل قسطنطين في الأخير إلى حل وسط يرضي الجميع، وهو أن يختزل الرومان آلهتهم إلى ثلاثة، وبالمقابل سيعبد المسيحيون نفس العدد بعد أن كانوا يعبدون إلها واحدا، رغم التصويت الذي صوت بالأغلبية على أن المسيح هو عبد الله ورسوله، لكن الرومان رفضوا ذلك، بسبب شعورهم بالتفوق على سائر الشعوب، لذلك فضلوا أن يكون رسولهم ابنا لله، حتى يتفوقوا على أصحاب الديانات الأخرى الذين رسلهم مجرد بشر. وبالتالي فالموحدون الذين اضطهدهم الوثنيون طويلا أقصوا، في حين تصدر الوثنيون -وعلى رأسهم قسطنطين- قيادة المسيحية ولوثوا صفاءها بعقائدهم الوثنية المتخلفة. رغم أن المسيحية التي لوثها قسطنطين لم تكن أيضا نفسها التي جاء بها المسيح، فقد حرفت قليلا بسبب أن المسيحيين لم يكونوا محظوظين جدا مثل المسلمين الذين شكل لهم محمد (ص) دولة حمت عقيدتهم وأبقتها صافية حتى تقوت وتأصلت ونبت عودها حتى صارت عصية على الرياح والصواعق، أما المسيحيون الأوائل فقد تعرضوا لاضطهاد عنيف من اليهود والرومان، وكانوا يمارسون شعائرهم في السراديب. وقصة الملك اليهودي معروفة الذي جمع المسيحيين –الذين كانوا وقتها موحدين يؤمنون أن المسيح عبد الله ورسوله- وحفر لهم خنادق، وأشعل فيها النيران، وصفهم في طابور، فمن رجع عن المسيحية أطلقه، ومن ثبت عليها رماه في النار، لكنهم اقتحموا الخندق كلهم، وهذه الملحمة وردت في القرآن في سورة البروج. أما فيما يخص تأليه المسيح، فيرجع ذلك إلى الوثنية المنتشرة آنذاك، كما يرجع أيضا إلى استغلالها من طرف يهودي، ذلك اليهودي عمل ما بوسعه لاضطهاد المسيحيين الموحدين، فلما وجد أن اضطهاده لهم لا يزيد أفكارهم إلا انتشارا، ادعى أنه رأى المسيح في النوم -مثلما ادعى قسطنطين بعده ذلك أيضا- فتظاهر باعتناق المسيحية، وهو أول من أعلن ألوهية المسيح، فأفسد بعمله هذا الديانة التي حماها الشهداء بدمائهم، وجعلها ديانة وثنية تعبد البشر، بعد أن كانت ديانة موحدة.

وقد تحرفت الأناجيل عدة مرات، أولا هي روايات متعددة متناقضة، ولا توجد معايير محددة لتحديد الإنجيل الصحيح. ثانيا هذه الأناجيل تعتبر الوحيدة التي قبلها قسطنطين، لأنه أحرق غيرها –التي تقول أن المسيح بشر- وبالتالي فأكبر الظن أن الإنجيل الصحيح قد أحرقه قسطنطين فيما أحرق من أناجيل تعارض عقيدته الوثنية. وحتى الأناجيل التي اعتمدها قسطنطين فقد تحرفت كثيرا بسبب تساهل المسيحيين الشديد في نسخ الأناجيل، وربما ذلك يعود إلى يأسهم وشكهم في صحته، كذلك يعود التحريف إلى الترجمة الخائنة حيث قد انتقل الإنجيل من لغة إلى لغة. أما القرآن، فقد نزل بالعربية، وبقي بالعربية، كما أنه جمع بعد وفاة محمد (ص) مباشرة في عهد أبي بكر بعد أن كان مكتوبا على الجلود والعظام، وفي عهد عثمان –بعد عشرين سنة من وفاة محمد (ص)- نسخ ذلك الكتاب إلى عدة نسخ، ومنع الأجزاء التي كانت متفرقة عند الناس من التداول مخافة أن يقولوا: هذا هو كل القرآن. كما أن أقدم نسخة للقرآن الكريم موجودة في المتحف تعود إلى أقل من مائتي سنة من وفاة محمد، أي منذ ألف ومائتي سنة، وهي لا تختلف في حرف واحد عن القرآن الموجود في زماننا هذا، أي أن القرآن حافظ على سلامته المطلقة منذ اثني عشر قرنا، فأكيد أنه حافظ على سلامته أيضا خلال القرنين اللاحقين لوفاة محمد (ص). ولا ننسى أن القرآن محفوظ أيضا بالأسانيد، فقد تلقاه شخص عن محمد، وتلقاه آخر عن هذا الشخص، وهكذا حتى تصل السلسلة إلى رجل من زماننا هذا، ويوجد آلاف الأشخاص في عصرنا الذين يحفظون القرآن بسلسلة من الرجال تصل إلى محمد (ص). وكلهم يحفظون قرآنا متماثلا لا يختلف في حرف واحد. كما أن سنة محمد (ص)

محفوظة بنفس الطريقة من تسلسل الرواة. وهناك دليل مادي على ذلك، وهي رسالة محمد (ص) إلى أحد الملوك، وهو المنذر بن ساوى، فقد روى فحوى تلك الرسالة أحد الصحابة الذي كان حاضرا حين أملاها محمد (ص)، ونقل نصها عنه شخص أخر ليرويها لشخص آخر، وهكذا حتى وصلت إلى ابن القيم، أي بعد ثمان قرون من وفاة محمد، وكتب نصها ابن القيم في كتابه، وحدث أن وجدت تلك الرسالة في أحد المتاحف اليمنية، فلما قورن نصها بالنص المنقول بالاسناد، وجد أنهما متماثلان إلا في كلمة واحدة، وهي: الله لا إله غيره، في مكان الله لا إله إلا هو، أي في كلمة واحدة ودون تبدل المعنى، رغم أن الرسالة كان بها عشرات الكلمات. وأكيد أن مصير تلك الأحاديث الأخرى التي رويت عن محمد (ص) هو نفس مصير نص تلك الرسالة، أكيد أنها صحيحة أيضا.

لكن رغم اعتناق علي للحل الإسلامي فقد كان يدخن، رغم أن الإسلام قد حرم التدخين، لأن التدخين يضر بالنفس، وحفظ النفس هو أحد المقاصد الخمسة التي اضطلع الإسلام بحفظها في كل تشريعاته، وهذه المقاصد هي: حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ النسل، حفظ العقل، حفظ المال.

أما سمير، فقد اعتنق الشيوعية، التي تهدف في المرحلة الأولى إلى نقل ملكية وسائل الإنتاج من الرأسماليين إلى الطبقة الكادحة. لقد اعتنق هذا المذهب رغم أنه أحد الرأسماليين، فهو يمتلك مصنعا -أو بالأحرى ورشة- لصناعة الآجر أنشأها له أبوه. ويقول سمير أنه اعتنق هذا المذهب لأنه تحديدا أحد الرأسماليين، أي أنه يعرفهم جيدا، ويعرف إلى أي درجة بلغوا من الغش والاستغلال والقسوة والنذالة والأنانية. وشاهد استعدادهم للدوس على أي شيء من أجل كسب مزيد من المال. فمثلا أحد معارفه يزود نصف المدينة بالحليب السائل، فلما رفضت الحكومة أن تزيد في سعر تدعيم الحليب، لم يجد أي حرج في أن يستعمل الغش، وأن يجعل الحليب أكثر غنى بالمياه، دون أن يخاف مصالح مراقبة الجودة، لأن مديرها ببساطة يبني قصرا جميلا في ضواحي المدينة، وتوقف البناء لأنه يعاني نقصا في السيولة، فلكي يرى قصره مكتملا جميلا لن يرفض قبول المساعدة من أصدقائه، ومنتج الحليب هو أحدهم. فرضي ذلك المسؤول أن يبني قصره بجزء من تلك الحريرات الناقصة من أجساد السكان المساكين. وكم حاول وائل عبثا أن يقنع سميرا أن الأكثر نذالة في هذه القصة هو المسؤول لا الرأسمالي، ذلك المسؤول الذي كان سيشكل أمثاله الجزء الأكبر من الجهاز الذي كان سيتولى تطبيق دكتاتورية البروليتاريا في الدولة الاشتراكية، في انتظار إقامة الدولة الفوضوية. فهل يؤتمن أمثال هذا على بيضة دجاجة في مدجنة حكومية، حتى يؤتمنوا على مصير شعب وأمواله؟

لكن سمير لم يقتنع، لأنه مؤمن بأن هذا المسؤول انتقلت إليه العدوى من الرأسماليين، لأن الذمم يشتريها الرأسماليون مقابل السماح لهم بامتصاص المزيد من الدماء. وحين يختفي الرأسماليون لن تكون هناك ذمم تشترى، لأنه لم يعد هناك أحد يستطيع امتصاص الدماء.

ابتسم وائل وهو يتذكر كيف أجاب علي سميرا مازحا:

-بل لأنه لم تبق هناك دماء، فقد أفنتها حملات التطهير والمجاعات والانتظار في الطوابير الطويلة طمعا في رغيف من الخبز. بل أنت مخطئ يا سمير إذا أوهمتنا أن الدولة الاشتراكية التي تسبق المرحلة الفوضوية ليس فيها شراء للذمم. فهناك الكثير من الناس المستعدين لتقديم رشوة مقابل ترقية أو خدمة صحية في المستشفى أو حتى وظيفة. فلا توجد وظائف تكفي الجميع حتى في دولة كهذه. كما أن هناك دوما (سلعا) أقل و (راغبين في الاستهلاك) أكثر. لذلك فإن شراء الذمم دوما موجود. إلا إذا طبقنا حل الإسلام لهذه المشكلة، وهو إصلاح الناس من الداخل، فلا يمكنك القضاء على الفساد بمراقبة الناس من الخارج، لأن الإنسان يستطيع التكيف مع المراقبة، بل إن المراقب أيضا قابل للفساد،يجب أن نغرس فيهم العامل الذي ابتكره الإسلام، وهو النقد الذاتي، أو التصحيح الذاتي، لكن هذا المراقب الذي نكلفه بمراقبة الناس ليس بشرا قابلا للإفساد، إنه الخوف من الله والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. إنه مراقب فعال لا يأخذ عطلة في الأعياد ولا يخدعه الإنسان، لأن هذا المراقب يسكن في مكان يعرف فيه نوايا الإنسان، كما ان هذا المراقب لا يمكن رشوته. وقد نجح هذا المراقب قديما. أتعلم أنه في حروب الفتوحات -حين فتح المسلمون نصف العالم في نصف قرن- غنم المسلمون مغانم عظيمة، والغنائم كانت تقسم بالتساوي بعد أن يذهب خمسها لخزينة الدولة، لكن المسلمين لم تواجههم أبدا مشكلة استئثار أحد الجنود بما يغنمه دون الجيش. بل كان كل الجنود تقريبا يحضرون ما غنموه إلى القائد ليتم توزيعه بالتساوي. وحدث ذات

يوم أن رأى عمر في الغنائم التي بعث بها إليه أحد قادته تاجا مرصعا بالجواهر الثمينة فقال: إن هذا الجندي الذي لم يستأثر بهذا التاج لأمين حقا.
لكنني لا أنكر المراقبة نهائيا، لأنه يوجد بعض الناس القلائل في الدولة الإسلامية الذين لا يخافون الله، ولذلك فيجب أن تكون هناك وسائل رقابة مشددة على الموظفين والمسؤولين، لكنني فقط أقول أنها لن تكون ذات نفع أبدا إن لم يكن عامل التصحيح الذاتي مغروسا في نفوسهم. واحذر يا سمير أن تظن أن هذا العامل –الذي يسمى أيضا بالورع- هو نفسه ذلك العامل العاطفي الروحاني المسمى بالضمير، أتظن أن الضمير لا يقبل رشوة؟ يكفي إن سرقت أموال أمة أن تبني بجزء صغير من ذلك المال مستشفى أو ملجأ للأيتام، وسيتركك تنام براحة، لأنه سيسكت بتلك الرشوة، لأنه مجرد شعور عاطفي ترفي. أما الورع أتعلم ماذا سيقول لك؟ سيقول لك سيدخلك الله النار، وسيحرمك من الجنة، يعذبك الله –أي هناك تهديدا جسميا ماديا- وسيمقتك الله –أي هناك تهديد بضرر معنوي- وسيقول لك لن أدعك حتى ترد المال كله لأصحابه، لأنه كما قال محمد (ص): [إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا] فالله لا يقبل الصدقة من مال حرام. أرأيت؟ الضمير يمكن خداعه ليسكت، أما الورع فلا، لان الضمير عاطفي يمكن التأثير فيه بسهولة، أما الورع فهو عقلاني.
ثم التفت وائل إلى سمير وعلي فوجدهما متناقشين فحمد الله لأنه لم يجلس بقربهما. ثم تذكر وائل تلك القصص الشنيعة التي حكاها لهم سمير عن الذين يسميهم بالقذارة. فقد حكى لهم عن أحد معارفه من المقاولين، الذي أشيع عنه أنه رغم ثرائه الفاحش فإنه يخرج من المقهى متسللا كالضبع دون أن يسدد الفاتورة، إنها وضاعة فعلا. وأضاف سمير:
-لقد كنت أظن أنها مجرد إشاعة استهدفه بها بعض الفاشلين في الفوز بالصفقات الحكومية التي كان يفوز بها هذا المقاول، لكنني دخلت معه ذات يوم إلى المقهى لإبرام صفقة. فقد كان فاز بصفقة لبناء حي سكني كبير في الضاحية الغربية، فطلب مني أن أزوده بما يحتاجه المشروع من الآجر. وتفاهمنا على السعر والوقت المحدد، لقد كاد يخنقني فعلا، فقد كان يتفاوض في كل شيء حتى في غداء العتال الذي يحمل الآجر من الشاحنة إلى ورشته. وفي النهاية، وبعد أن أخذت حماما من العرق وتحملت مصاريف النقل وأجرة العتال وغداءه، أتعلمون ماذا فعل؟ لقد انقص لي ألف دينار من الحساب الإجمالي. يا للنذالة. لقد قال لي حين أنقصها: وهذه الألف دينار سأنقصها وأعتبرك عزمتني على قهوة. وكأن الألف دينار مبلغ كبير. ثم قام من عندي بعد أن أصررت على أن أكون أنا من سيدفع، حتى رأيت وجهه مشرقا بالبشر، لأنه لن يخرج متسللا هذه المرة. وبعدما رحل، جاءني النادل وقال لي:
-لقد خرج ذلك السيد دون أن يدفع فاتورته فهل كان معك.
فقلت:
-أجل كان معي، وأنا من سيدفع، ظننت أن هذا مقهى محترما ولا يتهم زبائنه بالسرقة.
فقاطع سامي سمير:
-يا لك من خبيث يا سمير، أردت دفعه بهذا الكلام إلى أن يقص عليك قصته. أليس كذلك؟
فقال علي باستنكار:
-ما فعلته حرام يا سمير، لأنك سألت عما لا يعنيك. صحيح أنك لم تسأل النادل مباشرة عن قصة المقاول، ولكنك لمحت إلى ذلك، وهذا الفعل وحده حرام. لماذا تنقب عن مساوئ الناس؟
فقال سمير:
-أنا لم أنقب عن مساوئ أحد، لقد كان يجب أن ألوم ذلك النادل، لأنني شعرت أنه أهانني أيضا. فربما كان يظن أنني سارق مثله.
فقال علي:
-اعترف يا سمير. ألم تكن تريد أن يقص عليك قصته لإشباع فضولك أولا، وعندما تكتفي، تهدف إلى إشباع شيء آخر وهو الغرور. فتقول للنادل: يا إلهي، كيف استطاع فعل شيء كهذا؟ أيوجد من يفعل شيئا كهذا؟ تصرف غريب فعلا. فيقول لك: يا سيدي أنا أتعامل مع الكثير منهم هنا. أما أنت يا سيدي الكريم فلكرم أصلك وشرف نفسك تظن أن الناس كلهم مثلك. واسمح لي على جرأتي يا سيدي إن قلت لك أن هذا

الشعور الكريم هو الذي يدفع الناس الكرماء مثلك إلى أن يضعوا ثقتهم في غير محلها. اعترف يا سمير أنك أردت أن يقول لك ذلك.
فقال سامي:
-أكمل يا سمير، فأنا أحترق من الفضول.
فقال سمير:
-لقد قال لي النادل: آسف يا سيدي فأنا لم أكن أعنيك أنت، بل كنت أعني ذلك الرجل. فقد اعتاد على الخروج دون دفع الفاتورة. في البداية، ظننا أنه ينسى، لكن استبعدنا أمر النسيان فيما بعد، إلا إذا كان كثير النسيان جدا، ولا أظن ذلك أيضا. فكيف لا ينسى أبدا باب السيارة مفتوحا عندما يركنها. أو لا ينسى تلميع حذائه أو ترجيل شعره. فقلت للنادل: عن أي نسيان تتحدث. لقد عقدت معه للتو صفقة بأربعة ملايين دينار -وأظن أن مكعبات السكر التي وضعها في فنجانه أيضا أربعة- ، وقد بدت ذاكرته غير ضعيفة أبدا، خاصة حين تطرق إلى موضوع غداء العتال، وأنه يجب أن أتحمل أنا مصاريف غدائه. فقال النادل مذهولا: صفقة بأربعة ملايين؟ أنا آسف يا سيدي، وأبلغ صديقك المحترم أسفي. مقهانا في خدمتكم وبالمجان أيضا، ولن يزعجكما أحد بطلب تسديد الفواتير. فقلت له: يا رجل ما بك؟ ألن تحدثني المزيد عن ذلك الرجل؟ أقصد صديقي. فقال النادل: أنه رجل محترم، وأنت أيضا، سامحني، يبدو أننا قصرنا، انتظر لحظة. ثم صرخ في وجه رجل يبدو عليه بمجرد نظرة إلى ثيابه أنه متوسط الحال، من الناس الذين يعطون للبقال الدائن نصف مرتبهم، وينفد النصف الآخر في منتصف الشهر ليستدينوا من البقال مرة أخرى، وعندما يقبضون المرتب التالي يعطونه نصفه مرة أخرى. وهكذا دواليك، إنهم يعيشون على الكفاف، لا يشترون بمالهم إلا السلعة التي يبيعها البقال، ولا يدخرون شيئا. مساكين هؤلاء الأقنان ضحايا مؤامرة الأسياد، حين يعطوهم من المال فقط ما يكفي لإطعامهم اليوم من أجل أن يأتوا أحياء إلى المصنع غدا صباحا. مثلما نزود السيارة بالبنزين فقط من أجل أن تنقلنا، لا حبا لها. فهل رأيتم أحدا اشترى لسيارته فستانا، أو قدم لها هدية في عيد ميلادها، أو أوقفها أمام مطعم وقال لها بلطف: ماذا تريدين أن تتناولي يا عزيزتي غير البنزين؟ فهؤلاء الأقنان مثل السيارة تماما، حتى البقال أظنه مشاركا في المؤامرة، لأنه يراقب أموال الناس أين تذهب، فربما تذهب في أشياء هي ضرب من الترف كشراء كتاب أو سهرة في السينما. فأنا أتخيل البقال الخدوم يهتف إلى الأسياد في كل شهر قائلا بكل احترام: ألو، لا تقلقوا يا أصحاب السعادة، نصف المرتبات عندي الآن والنصف الآخر أنا أراقبه. ماذا؟ كلا كلا، لن يتكرر ذلك الخطأ مرة أخرى. أرجو من سعادتكم ألا تنسفوا عمرا قضيته في خدمتكم بسبب أن أحدهم اشترى كلبا الشهر الماضي. فقد تحريت عنه جيدا، ويبدو أن اللعين قد قبض بعض الدنانير من ميراث آل إليه من أبيه. لا تقلقوا سعادتكم لن يتكرر الخطأ ثانية. ثم رجع سمير إلى قصة المقاول: كنت أقول، وصرخ النادل في وجه الرجل الذي ذكرته آنفا وقال له: اللعنة، ماذا تظن نفسك فاعلا، تدخن السيجارة بوقاحة وتتحدث في الهاتف بصوت عال، بل لم تكتف بذلك، فظللت تنفث الدخان باتجاه السيد المحترم، أخبرني بربك، ماذا تظن نفسك فاعلا. فقال الرجل المسكين مدافعا عن نفسه بالمنطق، وقد كان أمله الذي علقه على المنطق كبيرا، ونسي أن مكان المنطق منحصر في تلك الكتب المليئة بالأرقام والكسور والأقواس، بل حتى الرياضيات قد طردت المنطق من بيتها مؤخرا. أقول فقال الرجل: أظن أنني في مقهى ولست في غرفة إجراء عمليات جراحية –ضحك الرجل بلطف وبلاهة حتى لا تزعج المزحة النادل ويظنها إهانة ثم أكمل- كما أنني لم أدخن حتى تحريت -كمواطن صالح- أن التدخين في المقاهي مسموح به قانونا، وبعد أن بحثت أيضا في جدران مقهاكم المحترم عن أي لافتة تمنع التدخين فلم أجد. بل إنني لم أكتف بذلك، فلم أدخن حتى رأيت الكثير من الناس يدخنون، وأنا أعلم جيدا أن هؤلاء الناس المحترمين لم يكونوا ليدخنوا في المقهى لو كان ذلك شيئا مستهجنا أو ممنوعا. فقال النادل باحتقار: انظروا إليه يتحدث مثل المحامي وحذاؤه مثقوب، أصبح مثقوبو الأحذية أيضا يعرفون القانون. فقلت للنادل: أبدا، الرجل لم يؤذني بسيجارته ولا بصوته العالي، بل يبدو أننا نحن من آذيناه، لذلك، فانا مستعد لتسديد فاتورته، راجيا فقط أن يسامحنا. فقال الرجل: كلا أيها السيد المحترم، لقد سامحتك دون أن تدفع فاتورتي، لأن فاتورتي يجب أن أدفعها أنا. لكنني قد سامحتك رغم أنك لم تخطئ معي حتى أسامحك. وصدقني لو كان معي مال إضافي لدفعت فاتورتك أيضا. لا لشيء إلا لأنك كريم النفس، وتعلم جيدا أن الإنسان الشريف يمكن أن يكون حذاؤه مثقوبا أو سترته

مرقعة. مع أنني أؤكد أنني لست ذلك الإنسان الشريف، لكنني أعرف الكثير منهم في حيي. ممن لا يحنون الرأس لمخلوق، مع أن بطونهم فارغة، ومع أن هذا المخلوق يمكن أن يملأ بطونهم بانحناءة واحدة منهم. أيها النادل، ها هو الحساب، ولا أظنني سأعود إلى هذا المقهى بعد الآن. ووضع الحساب على الطاولة وخرج. فقلت للنادل: ما بك؟ هل فقدت عقلك؟ كيف تهين زبونا هكذا؟ ينبغي أن تعامل الزبون بلطف حتى يعود مرة أخرى. فقال لي وهو يكاد يموت من الاحترام لي: بل إنه مع هذا ليس زبونا عاديا يا سيدي، فقد كان زبونا دائما للمقهى. أترى حوض السمك الكبير ذاك؟ تستطيع القول أننا اقتنيناه بأموال ذلك الزبون، فهو دائم التردد على هذا المقهى. فقلت له مستنكرا: هل فقدت عقلك؟ تفرط في ذلك الزبون المفيد جدا من أجلي أنا، مع أنني من النادر جدا أن أدخل هذا المقهى، من أجل أن هيأته لا تعجبك فقط. وهيأتي أنا الفخمة، ماذا استفدت منها؟ انظر. وحملت كأس القهوة وقربته من صدري وقلت: اشربي أيتها البدلة الجميلة، هيا اشربي، أرأيت؟ ليست هي التي تشرب. ثم شربت جرعة وقلت: أرأيت؟ أنا الذي أشرب وليست البدلة. كما أن ذلك السيد هو من كان يشرب لا حذاؤه المثقوب. يجب أن تتعلم إذا كلمك زبون أن البدلة لم تكلمك وإنما كلمك من فيها. حسنا، أخبرني، كيف ستتعامل مع ذلك المقاول السارق إذا دخل عندك ثانية؟ فرد النادل: آه... ذلك المقاول المحترم... أريد أن تنقل إليه تحياتي وتخبره أنه مرحب به في كل وقت، يستطيع تناول أي شيء وبالمجان أيضا. فأنا أعرف قهوته كيف تكون. مركزة جدا، وبأربعة ملايين... عفوا... أربعة مكعبات من السكر. فقلت له غاضبا: يبدو أنكم عبيد وتصرون على أن تبقوا عبيدا. يا رجل، أنا أقول لك إنه قد سرقك، وأنت تريد أن تخدمه بالمجان؟ وماذا تستفيد أنت من صفقته ولو عقدها بأربعة ملايير؟ أكان سيصلك قرش واحد؟ أما ذلك الزبون المحترم، الشريف، الذي كان يفيدك كثيرا، فقد طردته. أنتم عبيد، وستموتون عبيدا، وأخشى ألا تلدوا إلا العبيد. فقال لي النادل في ذلة وخنوع: اشتمني يا سيدي، أهني قدر استطاعتك، إن ذلك يسعدني، أجل يسعدني، بل سأكون في قمة السعادة لو لطخت يديك ومسحت بي الأرضية. أنا أستحق ذلك. بل أستحق أكثر من ذلك يا سيدي. أهني يا سيدي. اشتمني. لماذا سكت؟ إن ذلك يسعدني. لا ترحمني. أنا أستحق ذلك. كيف سمحت لنفسي أن أقول عن ذلك المقاول المحترم الأصيل تلك الأشياء الفظيعة؟ كيف اتهمته بالسرقة؟ قال سمير: عندها، رفعت حقيبتي ووضعت النقود على الطاولة وخرجت وأنا أقول في غضب هستيري: أنتم عبيد، وستموتون عبيدا، وأخشى ألا تلدوا إلا العبيد. والنادل يتبعني وهو يقول لي: أهني يا سيدي. اشتمني. إن ذلك يسعدني. وتبعني وهو يقول ذلك حتى خرجت وركبت السيارة وهو يتبعها ويقول لي أن أهينه وأشتمه وأن ذلك يسعده ولا يحزنه وأنا أقول له: أنتم عبيد، وستموتون عبيدا، ولن تلدوا إلا العبيد. فسأل وليد سميرا: وماذا فعلت بعد ذلك؟ فقال: طول الطريق وأنا أكرر: أنتم عبيد، وستموتون عبيدا، وأخشى ألا تلدوا إلا العبيد. حتى إنني ألفت منها أغنية على ما أظن. فقام سامي بمجون وسخرية وهو يرقص بيديه محاولا تلحينها. لكن وليد سأل سميرا مرة أخرى: وبعد ذلك؟ فقال سمير: وماذا تظن أنه حدث بعد ذلك؟ عدت إلى الشقة غاضبا وثريا، فمن الطبيعي أن يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي اكتشفت فيه سحر الهيروين، فبدت لي الحشائش الأخرى بالنسبة لها مجرد فنجان قهوة مركز ليس إلا، لكنها كانت زلة لن تتكرر، فقد أقلعت عنها.

وحكى لهم سمير أيضا كيف ذهب مع قريبه الغني إلى حديقة الحيوانات، حيث قرر قريبه أن ابنه -الذي اجتاز بنجاح سنته الثانية في المدرسة- يستحق جزءا من وقته الذي يخصص أغلبه للمال والأعمال. لذلك قرر أن يأخذ ابنه لحديقة الحيوانات. قال سمير: وبالصدفة، ذهبت في زيارة إليه في نفس اليوم، فطلب مني أن أذهب برفقتهما ثم نعود سويا إلى المنزل. فذهبنا إلى الحديقة. وأنتم تعلمون أنها حديقة حكومية، وأنهم يعفون الأطفال الذين لم يتجاوزا السادسة من دفع ثمن التذكرة. وكم كان الطابور طويلا ومملا. وأظنكم تعرفون رأيي في زيارة حديقة الحيوان. فأنا أرى أنه لا يوجد فيها ما يستحق عناء الزيارة. فسأجد القرد بشعا كما تركته آخر مرة، كما أنني قطعا لن أجد الأسد وقد برزت له قرون، ولن أجد أيضا أن الحمار قد أصبح فجأة زاحفا، كما أنني لن أجد جديدا كماموث أو ديناصور أو حصان يبلغ ارتفاعه شبرا. لذلك فقد كنت أنتظر في الطابور من دون شوق، وعندما وصلنا إلى شباك التذاكر قال قريبي لبائع التذاكر أن ابنه لم يبلغ السادسة وأقسم له على ذلك، وعندما دخلنا إلى الحديقة سألته: ألم تقل لي أن ابنك قد اجتاز السنة الثانية، ظننته قد تجاوز ستة سنوات. فقال لي: أجل لقد اجتازها، لكنني قلت العكس للموظف حتى لا أدفع ثمن التذكرة. الساقطون، دفعت لهم ثلاثة ملايين دينار كضرائب العام الماضي وما زالوا يريدون مني أن

أدفع ثمن تذكرة بستين دينارا. كل تلك الأموال تذهب إلى أولئك المعاقين والكسالى والمسنين الذين لا يقومون بشيء طوال اليوم إلا التذمر، لو أنهم مكان التذمر فعلوا شيئا مفيدا لكسبوا قوتهم. لكنهم متسولون ثقلاء لا ينتظرون إلا الحكومة التي تسلبنا أموالنا التي اكتسبناها بعرق الجبين لتوزعها عليهم، يا لهم من متسولين قذرين. فقلت له: ألاحظ أنك تكرههم أكثر مما يكرهونك، مع أنه كان ينبغي العكس. ثم ودعته وقلت له أن مزاجي ليس صافيا إلى درجة أن يسمح لي برؤية مؤخرة قرد، لذلك سأغادر وودعته.
أما الحكاية التي كان سمير يحكيها كثيرا فهي قصة سعيد الميكانيكي، ذلك الشاب المرح الذي كان في سن العشرين. خرج من الدراسة مبكرا، ثم تعلم عن أبيه مهنة ميكانيك السيارات، وكان أبوه يملك لأجل هذه المهنة مستودعا يقع على الطريق الرئيسية بالقرب من مسجد (عمر بن الخطاب). أظنكم تعرفون ذلك المستودع –قال سمير مخاطبا الشلة- فدائما عندما كان يحدث عطل في السيارة كنت أذهب إلى سعيد دون غيره، فهو شاب مرح ويتمتع بحس دعابة عال، فأجد عنده آخر أخبار الحي الذي هو غير بعيد من حينا، لذلك فأنا أعرف عددا كبيرا من سكانه، وبالتالي فقد كنت أضحك كثيرا بسبب معرفتي المسبقة بأبطال قصصه. مع أن قصصه لم تكن أبدا مؤذية أو مغرضة، بل كانت بريئة وبيضاء مثل قلبه. لقد حكى لي عن الكثير من المقالب، مثل الرجل الذي وضعوا له مفرقعة في سيجارة، وآخر دسوا له مسهلا قويا في الشاي حتى نفذت تلك المواد إلى جواربه، وحدثني عن صديقه الذي وضعوا له صمغا قويا على كرسيه، حتى خرجت الأمور عن السيطرة، وعندما اعتذروا له قال: دعوني من ذلك، فتفكيري الآن كله مركز على بطني الذي يقول لي: لقد تناولت وجبة ثقيلة في الغداء وقد حان الوقت لإفراغها. كما حدثني عن ذلك المثقف الذي جن لسبب من الأسباب، وذات صباح، قضى حاجته البيولوجية على باب مسكن أحدهم، وعندما خرج صاحب البيت انزلق وكسرت ساقه، فحدثت فوضى بين الجيران، وتبادلوا الاتهامات، وتشابكوا بالأيدي، والمجنون جالس بالقرب منهم، فلم يتمالك نفسه وتمثل بقول الشاعر: (رأيت الحرب يجنيها رجال. ويصلى حرها قوم براء) فعرفو أنه الفاعل. ثم تنهد سمير واكتسى وجهه فجأة بملامح جادة وكأنه استفاق من حلم جميل وقال: لقد خرجت عن الموضوع قليلا، لقد كنت أقول أن ذلك الشاب حدث معه أمر، فقد باع جاره -الذي كان مسكنه ملاصقا للمستودع- المسكن لمقاول هو أحد معارف أبي، لكن المقاول صار يدعي أن ذلك المستودع داخل في ملكية المسكن، وتلفظ بذلك الادعاء بعد محاولات فاشلة قام بها لإغراء الشاب ببيع المستودع، لكن بعد رفض الشاب المطلق للبيع، قرر المقاول أن يدعي ملكيته للمستودع لأنه ببساطة كان يريد أن يقيم في ذلك المكان مركبا متعدد المرافق، كان يريد أن يقيم نزلا ومطعما ومقهى ومحطة للوقود، وكان يريد أن يحول المستودع إلى مغسلة للسيارات، خاصة وان المكان يقع على الطريق الرئيسية. لذا كان يرى فيه مشروع العمر. وقد وكل لنهب المستودع أمهر المحامين في المدينة، الذي يكفي أن يسمع الخصم اسمه فقط ليتنازل عن القضية ويوفر أموال المحامي. ويشيع بعض الناس أن هذا الصنف من المحامين لا يربحون القضايا لأنهم يتمتعون بمهارات قانونية خارقة، بل لأن لديهم علاقات وخيوط مع ناس نافذين يستطيعون حسم القضية بمكالمة هاتفية. وسواء أبالمهارة أم بالنفوذ فقد تمكن المحامي من ربح القضية وصدر أمر بالإخلاء، لكن الشاب رفض الإخلاء، حتى استعان المقاول بالقوة العمومية لتنفيذ القرار القضائي، وعندما جاؤوا كان الشاب غائبا ووجدوا الأب فقط الذي قاوم الشرطة حتى يقال بأنه شتم أحدهم ووصفه بخليلة المقاول، مما جعلهم يعتقلون الأب ويؤجلون العملية إلى الغد. وفي الغد عادوا ووجدوا غاضبا جدا، فقد رش نفسه بالبنزين وهددهم بإشعال جسده إن اقتربوا، وكان رجال الأمن يعرفونه، حتى إن أحدهم كان يناديه باسمه في بعض الأحيان. واقترب منه أحدهم وقال: ليس الأمر شخصيا، لقد جئنا لتنفيذ قرار قضائي، وهذا عملنا، لذلك فابتعد وإلا اعتقلناك. فقال الفتى: إن اقتربت سأشعل نفسي. فقال له الشرطي: هل تظن أنك ستخيفني بقولك سأشعل نفسي؟ تفضل، هاهي الولاعة. فربما تكون ولاعتك لا تعمل جيدا. وناوله الشرطي ولاعة. لا أدري سبب تصرف الشرطي الأرعن. ربما لأنه يعرفه ويعرف أنه شاب رزين مرح متعلق جدا بالحياة، ولا يمكن أن يحرق نفسه. تناول سعيد الولاعة، وبدأ يتلفت يمينا وشمالا، ثم ألقى نظرة على المستودع خلفه، وبعد ذلك، نظر إلى وجوه الشرطة، تلك الوجوه التي تطفح بالسخرية واللامبالاة. وكأنه أحس أن ذلك التصرف من الشرطي كان استفزازا شنيعا له، وأنه ما كان ينبغي أن يقوم بذلك التصرف معه وهو الشاب اليائس الذي يشعر بالظلم والإهانة. لكن الشاب بعد ذلك تعجب حين رأى رجال الشرطة يحترقون وهم يجرون نحوه يحملون ستراتهم، فعرف

أن قدرة خفية تدخلت وأحرقت رجال الشرطة، ثم التفت إلى المستودع فوجده يحترق حتى إنه اشتم الرائحة، رغم أنه لم يكن هناك في المستودع ما يمكن أن يحترق، لكنه لاحظ في النهاية أن كل شيء يحترق، حتى السماء رآها تحترق، وبعد ذلك لم يعد يرى أو يشم شيئا فقد مات. ثم أخرج أبوه من الحجز ليشهد دفنه. أما المقاول، فقد حقق حلمه. وقد أخذني أبي ذات يوم إلى مطعم المقاول لنتغدى، وعندما وضع النادل الشواء ظننت أنني رأيت لحم الشاب المتفحم، فرفعت كأس العصير لأشرب فرأيت أن فيه دما بدل العصير، فهرعت إلى المرحاض أتقيأ ولم أعد إلى ذلك المطعم بعد ذلك. صدقوني يا جماعة، المال مرتبط ارتباطا وثيقا بالقذارة. ولا أدري، هل القذارة هي التي تصنع المال؟ أم المال هو الذي يصنع القذارة؟ سؤال تصعب الإجابة عليه، تماما مثل هل البيضة أولا أم الدجاجة؟ لكن لا يصعب الحكم أن الدجاجة والبيضة هما مرحلتان لشيء واحد. وكذلك المال والقذارة. هيا أخبرني يا علي، هل المال لا يقع إلا في أيدي القذرين المستعدين لاقتراف كل الجرائم من أجل أن يرفعوا قيمة ثروتهم من مليار دينار إلى مليار دينار ودينار، أم أن المال هو الذي يصنع القذارة، فيقع في يد الرجل النظيف ويحوله إلى رجل قذر، ويقع في يد القذر ويحوله إلى أكثر قذارة.

فقال علي:

-أنت بسؤالك لي عن أيهما كان الأول القذارة أو المال تذكرني بالخدعة التي كنا نخدع بها بعضنا في الصغر، عندما يقول أحدنا للآخر: واحد ضرب واحد، تساوي اثنان أم اثنين. ليسلم أنها صحيحة حسابيا، ويركز انتباهه على اختيار الأصح نحويا، أجل أردت أن تخدعني، وكأن ارتباط المال بالقذارة أمر مسلم به لكي نناقش فقط أمر أيهما أولا. أنا لا أوافقك في أن المال مرتبط بالقذارة دائما. فهناك أغنياء صالحون. لكنهم قليلون في وقتنا، لعدة أسباب، منها عدم شرعية وأخلاقية أغلب المعاملات، والتجاوزات الأخلاقية والدينية التي تواجه الفرد الذي يريد اكتساب المال. فأنت تستطيع أن تبقى منعزلا بثروتك عن النظام الاقتصادي الذي توجد به تلك التجاوزات، لكن ثروتك ستصل حتما إلى درجة لن تستطيع معها عزلها عن ذلك النظام. فلنأخذ الربا مثلا-الذي هو ظلم اقتصادي مجحف-، فانا أرى أن حكامنا يتعمدون تلطيخ كل المعاملات بالربا، حتى يحجم الناس الصالحون عن اقتحام مجال المال والأعمال، لأن الناس الصالحين يعتبرون خطرا إذا شكلوا قوة اقتصادية. لأنهم لن يعطوا للحكام رشى من أجل الحصول على صفقات، لذلك فالحكام يتعمدون نشر الربا من أجل ألا يثري إلا القذارة. ولكن رغم ذلك فهناك بعض الصالحين الذين تجاوزوا تلك العقبات، وكونوا ثروة بالحلال. وأعرف أحدهم مؤخرا دفع زكاة ماله نصف مليار دينار، مع أنه دفع الضرائب أيضا للحكومة، لكنه خاف من الله أن يعاقبه إن منع الزكاة، فقد دفعها بإرادته دون أي دافع آخر سوى خوف الله. وقد تقولون لي أن الحكومات بريئة، وأنها لا تنتخب القذارة من أجل إيثارها برؤوس المال. ألم تسمعوا بتلك القروض المخففة التي أطلقها بنك حكومي لدعم مشاريع الشباب وجعل الفائدة واحدا بالمائة؟ ما الفرق بين واحد وصفر بالمائة؟ لا يوجد فرق، لكنهم فضلوا أن يلوثوا ذلك القرض بفائدة ربوية رمزية من أجل أن يحجم الصالحون عن اقتحام مجال المال والأعمال. لأن الصالحون يعلمون أن ملكية المال هي وظيفة، وأن الله أعطاهم المال لينفقوه في أعمال الخير، كما أن الله -عز وجل- قال أيضا لهم: (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فينفق الإنسان من ماله بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير. ويوسع على نفسه في المأكل والملبس والمسكن والمركب، دون أن يكون في حاجة إلى أن يطلب أن تصنع له سيارة من فضة، أو أن يشتري طائرة خاصة بربع مليار دولار، لأن الله -عز وجل- قال: (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى). بل لو كان ذلك المقاول مسلما حقا، ولو كانت فيه ذرة من إيمان، لقام بحل يرضي الجميع، وهو أن يقيم مشروعه الذي أعترف أنا أنه مشروع مفيد للمجتمع. فالمجتمع يحتاج فعلا إلى مطعم ونزل ومقهى ومغسلة للسيارات، لكن كان من الواجب أن يتفاهم مع سعيد بالحسنى وأن يقرضه مالا لينشئ به سعيد مغسلة للسيارات تكون بجانب المركب الذي بناه المقاول، وهكذا سيخسر المقاول الأرباح التي قد تدرها مغسلة السيارات لكنه سيكون ربح رضا الله والأجر في الآخرة، وأيضا سيكون قد أقام مركبا متكاملا دون اللجوء إلى الظلم ودون أن يرى الزبائن بعد ذلك دماء في طعامهم. بل إن كان مصرا على نيل أرباح من مغسلة السيارات، كان يستطيع أن يقوم بعقد مرابحة، وهو شكل من أشكال التمويل الإسلامي الذي يعتبر بديلا عن القروض الربوية. حيث يشارك المقاول برأس المال، ويشارك سعيد بالمستودع وبقوة العمل،

ويتفاهمان على تقسيم الأرباح بينهما بنسبة معينة ترضي الطرفين، لكن عقد المرابحة المرابحة الذي اسلامي خالص يختلف عن عقود الربا في أن المقرض والمقترض يتقاسمان الربح، كما أنهما يتقاسمان الخسارة، حسب التي تفاهما عليها. ليس مثل القرض الربوي، أين يتحمل المقترض –الذي هو الطرف الأفقر- وحده الخسارة، أما المقرض –الطرف الأغنى- فربحه مضمون، سواء نجح المشروع أم لا. مما يؤدي إلى الغنى اللامتناهي للمقرضين، فمنذ ولادة الرأسمالية والمقرضون يزدادون غنى يوما بعد يوم لأن ربحهم مضمون، مما جعل الأموال تتكدس في خزائن قلة من البشر. كان على المقاول أن يكون رحيما، فهذه الرحمة هي التي جعلت الأغنياء والفقراء أخوة في الدولة الإسلامية الراشدة، ليس بينهم حسد ولا حقد ولا تكبر ولا ظلم. أتعلمون أن الجريمة تعرف على أنها احتجاج ضد التنظيم الاجتماعي السيئ؟ وهذا تفسير صادق فعلا لوصف معظم الجرائم. فماذا لو أصلحنا هذا التنظيم الاجتماعي وجعلناه حسنا لا سيئا. أتعلمون أن محمدا (ص) شاهد غنيا يمر بجانب فقير، فأبعد الغني ثيابه عن الفقير اشمئزازا منه، فقال له محمد (ص) غاضبا: ما لك؟ أخشيت أن يلتصق فقره بغناك، أم غناك بفقره. فندم الغني وقال: يا رسول الله، أشهدك أنني أتنازل له عن نصف مالي. فقال الفقير: كلا لقد سامحتك دون أخذ المال، لأنني أخشى إن صرت غنيا أن أصبح متكبرا مثلك. وهل تعلمون أن الأغنياء كانوا في عهد محمد (ص) لا يأكلون طعامهم في البيت، بل كانوا يتناولونه في الخارج مع الفقراء، وكانوا يظنون أن ذلك واجب، حتى أنزل الله آية تبيح لهم تناول طعامهم في بيوتهم، وهل تعلمون أن الفقراء والأغنياء في عهد محمد (ص) لم يكونوا يتنافسون على ملكية وسائل الإنتاج، بل كانوا يتنافسون على الآخرة، فقد جاء الفقراء إلى محمد (ص) وقالوا: يا رسول الله، إن إخوتنا الأغنياء أعطاهم الله أموالا، فهم يتصدقون بها على الفقراء، ويحررون بها العبيد ويزوجونهم، ويكفلون بها الأيتام، فسيفوقوننا أجرا يوم القيامة. فدلهم الرسول (ص) على كلمات تمجد الله إذا قالوها كان لهم مثل أجر الأغنياء، فسمع بذلك الأغنياء فصاروا يذكرون الله أيضا بتلك الكلمات، فجاء الفقراء إلى الرسول (ص) وقالوا: يا رسول الله، لقد سمع الأغنياء بذلك، وصاروا يفعلون مثلنا أيضا. فقال لهم محمد (ص): وماذا أفعل لكم، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. لكن محمدا أخبر الفقراء أن من رأى غنيا يفعل الخير بأمواله فتمنى لو كان غنيا ليفعل مثله، كان له من الأجر مثل ذلك الغني المحسن، وكذلك الفقير الذي يغبط غنيا على فعله المحرمات بأمواله سيكون له أيضا مثل ذنب الغني المسرف. فالأغنياء والفقراء في الإسلام لا يتنافسون على الدنيا الفانية التي هي مجرد معبر إلى الآخرة، فلو ارتحلت من بيتي إلى بيت آخر مجاور له يبعد بضع دقائق، على ماذا أركز أكثر؟ على الشاحنة التي استأجرتها لأنقل فيها الأثاث، هل فيها مكيف هواء أم لا، وهل هي مريحة أم لا، ويجب أن أشتري جهاز راديو أثبته فيها، وسأعيد طلاءها بلون أفضل، والمقاعد التي فيها مهترئة، لذا يجب أن أبدل المقاعد، ويجب أن أزينها ببعض الزهور. أم يكون تركيزي منصبا على البيت الذي أنا مرتحل إليه، والذي سأبقى فيه ما تبقى من حياتي. لذلك فالدنيا هي الشاحنة المستأجرة، والآخرة هي البيت. لذلك فالأغنياء والفقراء كانوا متنافسين على الآخرة وليس على الدنيا، فالآن لا يهم من ارتحل في شاحنة قديمة أو جديدة، ومن استأجر شاحنة فخمة، ومن استأجر واحدة أقل فخامة، فهي رحلة تدوم دقائق، لكن المهم هو البيت الذي هم مرتحلون إليه كيف يكون.

وبما أن الإسلام قد فرض على الأغنياء الزكاة وهي اثنان ونصف بالمائة من رأس المال كل عام، وخمس المحاصيل الزراعية، وإن كانت الزراعة مسقية يصبح مطلوبا عشرها فقط. وحرم عليهم الربا، فهم يقرضون المال دون فائدة لان تلك الفائدة هي ظلم، كما أنه حرم عليهم الاحتكار، ورغبهم في الإنفاق -ولن تحتقروا كلمة رغبهم إذا علمتم أن الكثير من الأغنياء المسلمين تصدقوا بنصف أموالهم وهم أحياء شبان أصحاء، وهناك عدد لا يحصى ممن كان يتصدق بثلث ماله للتكفير عن ذنب ما، أو فرحا ببشرى ما، أو فقط رغبة في التقرب إلى الله-، وحرم الإسلام كنز المال، بل أوجب إنفاقه واستثماره، وأخرج من دائرة الإيمان من بات شبعان وجره جائع، وأمر من له فضل زاد أو فضل مسكن أو فضل مركب أن يعطيه لمن لا زاد له أو لا مسكن له أو لا مركب له. بل إن عمر بن الخطاب حين رأى تفاوتا في الثروة بسبب التفاوت في العطاء قال: لئن عشت إلى العام المقبل، لأجمعن فضول أموال الأغنياء وأرده إلى الفقراء. أي أن الدولة الإسلامية إن استشعرت خطر التفاوت الرهيب في الثروة تستطيع أن تقتطع من رؤوس أموال الأغنياء قدرا لا يضر بهم وترده إلى الفقراء. وحدد الإسلام المواريث بطريقة تفكك رؤوس الأموال

تفكيكا، وألزم أرباب العمل بالإحسان إلى العمال، فقال محمد (ص): أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه. وبعد كل هذه الواجبات على الغني في الإسلام، فيجب أن تكون له حقوق أيضا، من أجل حفظ ماله. لذلك فقد حرم الإسلام السرقة، وحدد عقابا لها، وأوجب على الأجراء أن يتصرفوا في أموال مستخدميهم بأمانة، وأعطى للغني حقا في الزكاة، وهو حق الغارمين، فالغني المفلس تدفع الدولة دينه من الزكاة.
وبالتالي إذا نظرنا إلى الملكية في الإسلام نلاحظ أنها وظيفة، فلنأخذ الزكاة مثلا، فهي لم تكن ضريبة، أتعلمون كيف كان محمد (ص) يعاقب مانعي الزكاة؟ هل كان يضاعف قيمتها، أو يفرض غرامات على التأخير في الدفع، أو يحبس الممتنعين؟ أبدا، لم يكن يفعل ذلك، بل كان يعاقبهم بالامتناع نهائيا عن قبول زكاتهم. لأن الغني في الإسلام هو موظف، وعندما يؤدي الزكاة فهو يقوم بوظيفته، وعندما يمتنع عن أدائها، يفصل من وظيفته بتهمة الإهمال. ويتركونه وماله يفعل فيه ما يشاء مثل البهيمة. وهنا أريد أن أقول أن مانع الزكاة يترك إذا منعها بخلا، أما إذا أنكرها أو حدث امتناع جماعي عن أداء الزكاة فذلك موضوع آخر.
إن الإسلام حل المشكلة بين الأغنياء والفقراء من جذورها. إذ حرم التكبر والظلم من قبل الأغنياء، وحرم الحسد والحقد من قبل الفقراء، أي قضى على الصراع في قلوبهم أولا، ليختفي بعدها من أرض الواقع، لذلك يا سمير أنا لا أقول أن الأغنياء كلهم قذارة، ولكن فيهم القذرون وفيهم الصالحون، مع أن تلك القذارة يمكن إصلاحها في النهاية لتصبح سمادا مفيدا، فأمل الإسلام في تغيير الأفراد إلى الأحسن لا حدود له.
فقال سامي: لا أدري ماذا تقولان، غير أنني لا أقسم الناس إلى قذارة وطاهرين، فهذا ليس تقسيما عمليا أبدا. فأنا أرى مثلا أن هذا قذر وأنت تراه يا علي صالحا، أو قد يكون العكس. لذلك فلا يمكن القول أن هذا الإنسان نظيف وهذا قذر، لكنني أقسم الناس إلى صنفين: قوي وضعيف، قوي يملك مزايا تؤهله ليرتفع عن مكانة الأغلبية الضعيفة. ولا بد أن يكون بين هذه المزايا مزية أساسية، أن يكون قادرا على اتخاذ قرارات قد تتنافى مع ما يسمونه الأخلاق والمبادئ، وأن يكون قادرا في نفس الوقت على تحمل ما ينتج عن تلك القرارات من ضغوط نفسية قد تضغط على ضميره. لأنه إن لم يكن قادرا على تحمل نتائج قراراته فمن الأفضل له أن يبقى قابعا في الطبقة السفلى. طبقة الأغلبية الضعيفة. وبعد هذه المزية يأتي الذكاء ثانيا ثم العزيمة والشجاعة وغيرها من المزايا. أما تلك الأشياء التي تسمونها بالأخلاق والقانون فهي ليست إلا أوهاما تسيطر على الطبقة الضعيفة. ولو أنكم سموتم إلى الطبقة الأعلى لأدركتم أنها فعلا أوهام، ولبدت لكم مثلما تبدو لكم الآن جنية الأسنان، أو الغول التي تلتهم ألسنة الكاذبين. تلك الأشياء التي طالما أرعبتنا بها أمهاتنا في الصغر. فهي لا ترعبكم الآن لأن قدرتكم الفكرية الآن تقارب قدرة الأمهات. فماذا سيحدث لو قاربت قدرتكم الفكرية قدرة الأسياد الذين اخترعوا هته الأخلاق والمبادئ، ستضحكون كثيرا من تلك الخطب التي تعظ بتلك الأخلاق والمبادئ الوطنية واحترام القانون والأخوة والمساواة.
وستعلمون أن الأسياد أو الرعاة قد اخترعوا تلك الأشياء لسبب واحد، وهو لحماية القطيع –الذي هو ملك لهم- من بعضه بعضا. فمن الطبيعي أن يضعوا تلك الأشياء ليحموا أملاكهم من أن يفني بعضها بعضا. والسن التي يسموا فيها السيد من طبقة القطيع إلى طبقة الرعاة يكون غالبا في سن محددة وهي منتصف العقد الثالث، إنه سن الرشد الثاني، وبمجرد سموه سيتحدث عن تلك الأخلاق والمبادئ مثلما نتحدث نحن الآن عن جنية الأسنان. عندما تصبحون أسيادا ستعرفون أسرار أقرانكم من الأسياد الآخرين. وستتبدل نظرتكم إلى الأمور، وسيظهر لكم الواقع على حقيقته، بصورة رهيبة، وهذه الصورة الرهيبة تبرر خوف الناس من الولوج إلى ذلك العالم، مثلما يخاف الناس من الموت. لأنهم يرهبون رهبة عظيمة أن يتعرفوا إلى الحقيقة، ويفضلون البقاء في الحياة التي هي حلم جميل فعلا مهما بدت قاسية. وأنتم تسمونني بالملحد، ولكنني لست ملحدا، أو لم أصبحا ملحدا بعد، لأنني مازلت أخاف الموت، أي أنني ما زلت أؤمن أن هناك حياة بعده، والملحد الحقيقي لا يخاف الموت أبدا، لأنه يظن أنه فناء، والفناء لا يخيف بقدر حياة أخرى مجهولة، فيها مخلوقات أخرى وحقائق أخرى.
لذلك فالسمو إلى طبقة الأسياد يتطلب قلبا قويا. فمثلا أنت يا علي لن تصل إلى تلك الدرجة، لأن لك قلبا ضعيفا، لم يكن كذلك لكنه أصبح كذلك فجأة. إذ أصبحت تبكي كلما تذكرت ذلك الجرو الذي سلخته حيا في صغرك. تبكي وأنت تقول: أخشى أن يدخلني ذلك الجرو النار، لأنك تقول أن محمدا (ص) قال: (دخلت امرأة النار في هرة، لا هي أطعمتها، ولا سقتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض) لا أدري كيف تبكي

من أجل جرو صغير سلخته في صغرك حين كنت لا تفرق بين الجمرة والتمرة. انظر إلى الأسياد الحقيقيين ماذا فعلوا. انظر إلى ترومان كيف بخر عشرات الآلاف من اليابانيين في ثوان وبعد ذلك يطل على الناس والكاميرات وهو يضحك ويلوح بيديه وكأنه حمامة سلام. انظر إلى ستالين، يقتل رفاقه، ويذبح ثلث جيشه، ويبيد شعبه، وإذا حل الليل نام مثل الرضيع. لا تنظروا إلي هكذا، فأنا لا أؤيدهم، أنا أضرب أمثلة فقط، كما أنني لست من الأسياد، بل أنا خروف ودود، أنى لي أن أكون من الأسياد وقد تربيت في هذا المجتمع المسلم الذي يغرس في قلبك الضعف، مجتمع لم يقدم على مر التاريخ سيدا واحدا، لا يقدم إلا الخراف.اطمئنوا فلست سيدا ولا أظن أنني سأصبح سيدا، سأموت نعجة، أجل سأموت نعجة.

فقال علي غاضبا:

-هل تقول لي بأنني سأصير عظيما لمجرد أن أسلخ جروا، وأن أستمتع بسلخه أيضا، وأن أعيش حياتي كلها فخورا بسلخي لذلك الجرو. أنت مخطئ كليا يا سامي. أولا لقد قلت بنفسك أن السمو -بل الانحطاط- إلى مرتبة الأسياد هو أمر صعب جدا، وليس في متناول الجميع، لأن هناك ضغوطا نفسية قاهرة تصحب ذلك، أخبرني من غرس فينا تلك الضغوط النفسية، أكيد أنه الله. أي أن أولئك الأسياد هم الشاذون عن جنس البشر، وليسوا هم الكاملين الخارقين كما صورتهم. وثانيا، فليس بالتجرد من الأخلاق فقط يصبح المرء عظيما، فهناك أسياد عظام، من أعظم الأسياد على الإطلاق، ووصلوا إلى أعلى درجات العظمة، ليس لأنهم تجاهلوا الأخلاق، بل لأنهم كانوا أكثر الناس تمسكا بها. مثل الأنبياء عليهم السلام. وأستطيع أن أذكر لك منهم محمدا (ص)، الذي يصلي عليه الآن كلما ذكر ربع سكان الأرض، ويحترمه الثلاثة أرباع الآخرين. لقد كان على خلق عظيم. وهو قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. وكان يسميه أهل مكة قبل بعثته بالصادق الأمين. كان متكئا ذات يوم على حصير بال، وقد أثر الحصير في جنبه، فبكى عمر (ر) فسأله محمد (ص) عن بكائه فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من النعيم، وأنت رسول الله وتنام على هذا الحصير. فأخبره محمد (ص) بأن لهم الدنيا ولنا الآخرة، وما عند الله خير وأبقى. واجتمع ذات يوم مع قائده العسكري معاذ الذي كان بصدد إرساله في مهمة عسكرية، اجتمع معه في جلسة مغلقة ليوصيه، أتدري بماذا أوصاه يا سامي؟ لو كان عظيمك هتلر لأوصى قائده بذبح الأقوياء وترك الضعفاء لتسخيرهم لخدمة الجنس الآري. ولو كان عظيمك ستالين لأوصى قائده ببناء الستار الحديدي على الشعب، وقتل المعارضين، وتشغيل العمال والمسدسات فوق رؤوسهم. ولو كان رئيسا أمريكيا لأوصاه بقصف كل متحرك، وبفعل ما يشاء لتركيع العدو، وأن القواعد هي أنه لا توجد قواعد، فقط قاعدة واحدة مقدسة، هي الحرص على سلامة آبار النفط. لكن محمدا قال له لئن يهدي بك الله رجلا واحدا خير لك من كنوز الأرض. هذه وصيته الخالدة، مع وصيته الأخرى التي كان يودع بها كل قادته: لا تقتلوا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا راهبا في صومعة، ولا تقطعوا شجرة، ولا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم.... وهذا عمر بن الخطاب (ر) مر بشيخ يهودي يتسول فسأل عنه، لأنه لا يوجد متسولون في دولته، فقيل: شيخ يهودي افتقر. فبكى وقال: أخذنا منه الجزية صغيرا و ضيعناه كبيرا، عينوا له مرتبا في بيت المال. وأخذه إلى بيته وأعطاه ما يكفيه من القوت. وأظن أن ذلك هو أول ظهور للضمان الاجتماعي في العالم. وعلي (ر) رأى في أذني ابنته الحبيبة إلى قلبه زينب التي جدها لأمها محمد (ص)، رأى في أذنيها قرطين كان رآهما في بيت المال، فقال لها مستنكرا: أسرقتهما من بيت المال؟ سأطبق عليك عقاب السرقة. فجاء أمين بيت المال مسرعا وقال له: لقد دخلت إلى بيت المال فأعجبها القرطان، فظننت أنه يمكنني أن أعيرهما لها تتزين بهما ثم استردهما فيما بعد، فهي طفلة صغيرة. فعفا عنها علي ورد القرطين إلى بيت المال. وعمر بن عبد العزيز حين جاءه رسول من إحدى الولايات ليلا فسهر معه عمر على ضوء شمعة يسأله عن أحوال الرعية هناك، وعندما أكملا المباحثات، سأله الرسول: وكيف أحوالك وأحوال أهل بيتك. فقال له عمر: اسكت. ثم أطفأ الشمعة وأحضر شمعة صغيرة وأشعلها وقال: الآن اسألني ما بدا لك عن أحوالي، فتلك كانت شمعة من المال العام، أما هذه الشمعة فهي من مالي الخاص. وأظن أن الإسلام هو من بنى أول نظام حكم يفصل بين المال العام والمال الخاص، فقد كان الملوك يعتبرون مال الدولة ملكهم، لكن في زمن الخلافة كان الخليفة يأخذ مرتبا متوسطا يأخذه لقاء توقفه عن أنشطته الاقتصادية التي كان يزاوله قبل تعيينه، أما مال الدولة فيكون حراما عليه. فمحمد (ص) أخبر أن هناك حكاما سيأتون بعده وبعد أصحابه سيعتبرون المال العام ملكا خاصا، والرعية خدما، وتوعدهم بأشد الوعيد في الآخرة.

هؤلاء السادة رغم تقيدهم بالأخلاق والخوف من الله، لكنهم بلغوا أعلى مراتب السيادة والعظمة في الدنيا والآخرة. لكن من تحدثت عنهم يا سامي فقليل جدا منهم –ممن نجا من السجون والمقابر والمارستانات- وصل إلى مراتب عليا في الدنيا، أما في الآخرة، فأكيد أنهم في قاع الجحيم بسبب ما ارتكبوه من جرائم في حق الإنسانية. وإلا فأين ستالين وهتلر ونابليون وهولاكو، فإما أنها توجد حياة أخرى –وهي موجودة قطعا- وهم الآن في محكمتها أمام قاض عادل. وإما أنه لا توجد حياة أخرى –وهذا افتراض مستحيل- وبالتالي فقد فنوا مثلهم مثل أحد سائسي خيولهم، أي أنهم اصبحوا هباء، وأن أولئك الحمقى الذين يمجدون ذكراهم بالتماثيل والكتب إنما يمجدون هباء وعدما. وأستطيع إثبات وجود حياة أخرى -مع أنها لا تحتاج إلى إثبات- بالاقتباس من فكر أحد العرب القدماء الذين عاشوا قبل الإسلام، فقد عمر هذا العربي حياة طويلة رأى فيها الظالم يبطش بالناس ويأخذ الحقوق وينتهك الحرمات فيقول العربي: قريبا سينتقم الله منه ويجازيه، لكنه يرى أن الظالم يموت ميتة طبيعية عزيزا كريما بين أهله دون أي خطب، وتكررت هذه الملاحظة مع الكثير من الظالمين، فاستنتج هذا العربي بأنه لا بد أن هناك دارا أخرى بها محكمة عادلة سيمثل هذا الظالم أمام قاضيها ليقتص منه. استنتج وجود حياة رغم أنه كان في بيئة لم يرد في أدبياتها ولا في ثقافتها الإيمان بأن هناك حياة بعد الموت.

وقد صدقت يا سامي في موضوع الإلحاد، فالإنسان يمكنه أن يكون ولاعة، ويمكنه أن يكون قلما، بل يمكنه أن يكون جرارا، لكن لا يمكنه أبدا أن يكون ملحدا. لأن الملحد لا يخاف الموت، فهو يعتبره فناء، لا بابا إلى حياة أخرى، ولا يمكن للإنسان أبدا أن يعتبر الموت فناء، ولذلك فالإنسان بفطرته التي غرسها الله فيه مؤمن أن هناك حياة أخرى، مهما حاول التظاهر بغير ذلك، والدليل أنه يخاف الموت، لأنه يخاف الولوج إلى عالم آخر، ومشاهدة مناظر غريبة، وكائنات لم يألف رؤيتها، وحقائق طالما خدع نفسه بتجاهلها طيلة حياته. أجل، فجميعنا نخاف من الموت، حتى أولئك المنغمسين في أوحال الإلحاد والرذيلة. أتعلمون أن ستالين عندما حانت ساعته هرع إلى طلب القس الذي طالما كان يصفه بالدجال ليبارك روحه. حتى أولئك الذين يقتلون أنفسهم، لم يفعلوا ذلك جرأة على الموت، أو كرها للحياة، بل لأنهم وصلوا إلى درجة من الاضطراب العقلي والنفسي جعلتهم يخطئون في التقدير، ويظنون أن آلامهم التي دفعتهم إلى الانتحار هي أشد من الآلام التي قد يلقونها بعد الموت.

فقال سمير: أعجب منك يا سامي حين كنت صريحا جدا وكشفت عن الوجه البشع الحقيقي الذي يخفيه إخوتك في المذهب. لكنني أوافقك في أن الأخلاق والقيم وضعها السادة لتنظيم القطيع. أنا لا أنكر أن هناك طبقتان، طبقة مسحوقة تستغل طاقتها وثرواتها بواسطة هذه الأخلاق والقوانين، وطبقة متفوقة تثري من خلال الدوس على هذه الأخلاق والقوانين نفسها. لكنني أؤيد أن تقوم هذه الطبقة المسحوقة بالكفر بهته الأخلاق التي تقيدها وتجعلها عرضة للاستغلال من طرف الأسياد الذين يحررون أنفسهم منها ويلزمون غيرهم بالتقيد بها من أجل أن يثروا بسرعة، وهذا تماما مثل رجلين جلسا على طاولة القمار، أحدهما ملتزم جدا بقوانين اللعب، والآخر أعطى لنفسه حرية الغش، أكيد أن الغشاش هو الذي سيربح دائما. غير أنني أختلف معك يا سامي في نقطة، وهو أنك تحث بعض الأفراد على نبذ الأخلاق من أجل الإثراء بسرعة، أما أنا فأحث الطبقة المسحوقة على نبذ الأخلاق حتى لا يكون للسادة أي أفضلية عليهم. فهم يحدثوننا عن خلق الأمانة الذي يجب أن نتقيد به فقط من أجل أن يأمن السيد على أملاكه من خيانة أقنانه، ويحدثوننا عن خلق الصدق من أجل أن يعامل القن سيده بكل صدق، ويحدثوننا عن خلق القناعة من أجل ألا يتطلع القن إلى أجر أكثر من الأجر الذي أعطاه له سيده، بينما سيده لا يقنع أبدا من تكديس الأموال.

فقال علي بهدوء شديد:

-أنت مناقض لنفسك يا سمير، بعكس سامي الذي بدا متماسكا وصادقا إلى درجة أنه أخافني، فإنك قد أدنت نفسك بكلامك، فقد قدمت دليلا يدينك. أخبرني يا سمير، ما الذي يحملك على أن تطلب من الطبقة المسحوقة أن تنتفض؟ ما دخلك أنت إن افترس الناس بعضهم بعضا؟ لماذا تعنيك الطبقة المسحوقة مع أنك لا تنتمي إليها؟ بل بالعكس، إن استمرار الوضع القائم يزيدك ثراء ورخاء. فلديك شقة وسيارة ومصنع للآجر وحساب في البنك، وأنت ذكي ووسيم وألف فتاة تتمناك، وينتظرك مستقبل زاهر، فلماذا تهتم للطبقة المسحوقة التي لا تعنيك في شيء؟ ولماذا تنشد إقامة الدولة الشيوعية مع أن ذلك يعني أن أملاكك كلها ستؤمم،وستصبح فردا بسيطا فيه بعكس الآن. أليس الدافع الوحيد الذي دفعك إلى ذلك يا سمير هو دافع

خلقي؟ هو الإيثار وحب الناس والشفقة ونكران الذات والثورة على الظلم والغيرة على الإنسانية. فهذه القيم الأخلاقية هي التي جعلتك تهتم للطبقة المسحوقة. فلو نبذنا هذه القيم الآن لم يعد لديك مبرر للتمسك بمذهبك، لأننا إن نبذناها لم يعد هناك ما يلزمك بالتفكير بالطبقة المسحوقة. مع أنني أقر أنك تتمتع بهذه القيم الجميلة ويتمتع بها كثير من الاشتراكيين الصادقين. لكنني موقن بأن الطريق الذي تسلكونه ظنا منكم أنه الأصلح للبشرية هو طريق خاطئ تماما ومعاكس للفطرة، مع أن نيتكم في نفس الوقت قد تكون طيبة.
تذكر وائل كيف أن سميرا لم يجد جوابا، فقد أغاظته كثيرا لهجة علي الهادئة والمتزنة، حيث بدا علي مسيطرا جدا على الحوار، واكتسى وجه سمير بالاحمرار، وبدأ في الالتفات دون أن يستطيع النطق، لكنه نطق أخيرا، وبدأ في القفز بين المواضيع، حتى إنه وصف عليا بالإرهابي وعلي يضحك، واستمر سمير بالتطرق إلى مواضيع غير ذات صلة بالحوار، إذ ذكر عليا بمغامراته العاطفية قبل أن يعتنق الحل الإسلامي، وذكره بتلك الفتاة التي خدعها وغرر بها وتركها مثل البنفسجة الذابلة، لكن عليا كان يستقبل تلك الشتائم كلها بالضحك، مما جعل سمير يتمادى أكثر في شتائمه. وقد تعجب وائل كثيرا من غضب سمير، وظن أنه غضب ليس له ما يبرره، فعلي لم يقل شيئا يغضب منه، -أو هكذا خيل إلى وائل-، بل كل ما فعله علي أنه وصف سميرا بصاحب القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة. لكن يبدو أن عليا كان قد نسف للتو مذهب سمير بتلك الجمل الهادئة الخبيثة، أمر حين أدركه وائل جعله يشاهد باستمتاع تصرفات سمير، فسمير في تلك الأثناء يمثل رجلا دمر بناؤه من القواعد، لحظات لا يتاح للمرء مشاهدتها كل يوم، لذلك فقد استمتع وائل كثيرا. وخرج بعدها سمير وهو يلقي بشتائم ولعنات لاذعة، ويقول أن الشيوعية لم تمت، وأنها لم تسقط مع جدار برلين، وأن احتمال قيام الثورة لا يزال قائما ما دام هناك استغلال وسرقة، وبأن الظروف فقط لم تهيأ بعد.
ضحك وائل من تحمس سمير الشديد إلى نصرة أفكاره، مما جعل الشلة ينادونه أحيانا –حينما لا يكونون غاضبين- بـ: (شي غيفارا). لكنه استدرك أن سمير رغم ذلك فهو يثمل بفائض القيمة في اليونان. فائض القيمة الذي يدعي سمير أنه من حق العمال، لكن مع ذلك فسمير يثمل به في اليونان عندما يجتمع برفاقه الثوريين هناك. أولئك الرفاق الذين يسخرون من الحدود الإقليمية، ويزعمون أنها أبدا لا تستحق أن تشكل عائقا أمام تحقيق حلمهم المنشود. لأن هذه الحدود صنعها أمراء الإقطاع في أوربا من أجل اقتسامها، وصنعها سدنة الإمبريالية في الدول المستعمرة، من أجل استعباد الشعوب واستنزاف خيراتها وضربها ببعضها عند الحاجة.
تذكر وائل كيف كان يحاول دوما استفزاز سمير باتهامه بأنه يثمل بفائض القيمة في اليونان فيرد سمير غاضبا: أنا أستعمل جزءا منه من أجل لقاء زملائي الثوريين ويصب ذلك في صالح الشيوعية في النهاية. ثم يحدثه سمير كيف أن منهم أمريكيون أيضا، يرون أن أمريكا شركة وليست دولة، بل إنها عدة شركات، فيسمونها بـ: الشركات المتحدة الأمريكية. وكيف أن سمير متفائل جدا بضرب الرأسمالية في عقر دارها...أمريكا... وإذا قاطعه أحد الشلة بأن النظام الأمريكي ليس كرتونا يجيب سمير: كل شيء متوقف على إرادة الشعوب. وما أسهل تنظيم هذه الشعوب في زمن الإنترنيت والمواقع الاجتماعية. لكن وائل كان يستفزه بقوله: من حقك أنت أيضا ان تستعمل طرقا مكيافللية، وأن تنفق جزءا من فائض القيمة للالتقاء بأصدقائك الثوريين، لكنني لا أتحدث عن ذلك، بل أنا أتحدث عن مسالة الثمل بفائض القيمة هناك، نحن نعطيك الحق في مسألة انفاق المال للإلتقاء بأصدقائك لكن هل كان يجب أن تثمل يا سمير؟

أما مراد أو برميل البارود كما يسمونه، فقد كان شخصا متشائما جدا، ما إن تهديه الحياة لحظات سعيدة، حتى يجد بطريقة ما وسيلة لإفسادها. وقد كان ماهرا جدا في تلك المهنة التي هي إفساد اللحظات السعيدة. فمثلا، في الحفل الذي أقامه ببيته احتفاء باجتيازه للقسم النهائي، كان الجميع سعيدا، وكان مراد سعيدا أيضا. لكن وائل استغرب كيف كان مراد -حين بلغ قمة السعادة- يتلفت يمينا وشمالا وكأنه يبحث عن شيء أضاعه. وأخيرا، تبين أن مراد قد وجد ضالته. فحين قسمت الكعكة أخذ مراد طبقه غاضبا على غرفة الفتيات. لأن الحفل كان في قاعتين، قاعة لأصدقاء مراد وجيرانه، وقاعة مخصصة للفتيات اللائي دعتهن أخت مراد من الصديقات والجارات، ونادى مراد أخته وقال لها: ما هذا؟ هل دخل الشعر في المقادير المكونة للكعك مؤخرا. لكن أخت مراد لم تستطع رؤية الشعرة التي كان مراد يتحدث أنها موجودة في

الكريمة التي تغطي الكعكة. فبدأ مراد يصرخ ويقول: ليتني لم أتكل عليك واشتريتها من عند الحلوياتي. فقالت أخته: أنا أتساءل كيف وجدت الشعرة في طبقك وحده دون جميع المدعوين. فقال مراد: ماذا؟ هل تتهمينني بفبركة الأمر؟ أكيد أنهم وجدوا في أطباقهم حتى الديناصورات، لكنهم خجلوا فقط. وارتفعت أصواتهما، فقد وضع مراد أخته في موقف لا تحسد عليه أما ضيفاتها اللائي شرعن في تبادل همس خفي بينهن. فذهب وائل وسامي ليستطلعا الأمر. ثم قال سامي: أرني هذه الشعرة يا مراد. فبدأ مراد يقول له: انظر هناك...لا لا ... انظر هنا...كلا، بل إلى اليمين قليلا.... حتى رآها سامي، وعندما رآها تعجب فقال: كيف استطعت رؤيتها يا رجل؟ أكيد أنك استعنت بمجهر إلكتروني، ليست شعرة آدمية حتى، بل تكون سقطت من منديل أو شيء من هذا القبيل. وهذا أمر لا يمكن تفاديه حتى من قبل امهر الطباخين. وراحت الفتيات يصوبن وجهة نظر سامي. ثم قال سامي ضاحكا: عندما تتصرف هكذا يا مراد فهذا يعني أنك في قمة السعادة، فهذه طريقتك المثلى في التعبير عن شعورك عندما تكون سعيدا. فدعنا نحن أيضا نعبر بطريقتنا، هيا يا وائل، ارفع من صوت الموسيقى، فقد حان وقت الرقص والقهوة والشاي وتدخين السجائر. وأكمل المدعوون الاحتفال رغم غياب مراد، الذي خرج غاضبا من دون وجهة محددة.

لقد كان مراد قطعة من التشاؤم والتبرم. فلا يسرق انتباهه من الوردة إلا شوكها، ولا من النحلة إلا إبرتها. أما إذا حل الربيع، فإنه بدل الاستمتاع به يظل ينعته بفصل الحساسية والخمول. وإذا حدث وأن خرج في نزهة فكل ما يحتفظ به في ذاكرته عنها يقتصر على صورة متسول بائس رآه في أحد الزوايا مستلقيا على الكرتون، أو آلام طفيفة في المعدة أصيب بها بعد تناول وجبة فاسدة اشتراها من أحد الباعة المتجولين، أو أزمة حادة في النقل جعلته يعود إلى البيت سيرا على الأقدام. لذلك فكلمة نزهة تمتلك في ذاكرته سمعة عاهرة. وليس لها أثر طيب أبدا على نفسه. فعندما يسمع كلمة نزهة يعتريه اشمئزاز شامل تقف من كل شعرة في جسده وكأنما هب عليه نسيم بارد. أما عن طموحه، فهو متقلب بين الأحلام، مثل طوافة تتقاذفها الأمواج في المحيط. لكنه في غالب الأحيان كان يريد أن يكون كاتبا عظيما، كالرافعي أو دوستويفسكي أو غوته أو هيغو، لكن حلمه كان بعد ذلك يذوب كما يذوب الملح في الماء، عندما يمر بأحد باعة الرصيف الذين يعرضون كتبا قديمة مهترئة للبيع، ويجد البؤساء أو النظير مرميا مثل القذارة بين تلك المجلات الرياضية أو التي تعنى بأخبار الفنانين والموضة، فيبقى واقفا مستغرقا في لحظة من الهدوء والتأمل يتخيل دوستويفسكي راقدا هناك في تربته، بينما كتابه مرميا هنا على الرصيف. بل إنه تراجع عن حلمه ذاك بعد أن صار يقضي الشهر والشهرين، وأحيانا يمر عليه فصل كامل دون أن يسمع ذكرا لأولئك العظماء من أفواه من يسميهم مراد بالرعاع. بل ما يسمعه –سواء في المقاهي أو المدرسة أو الطوابير التي تقام أمام المخابز أحيانا أو في سيارة الأجرة- هو الحديث عن اللاعب فلان الذي انتقل من النادي أ الذي ينشط في الدرجة الرابعة إلى النادي ب الذي ينشط في الدرجة الثالثة.

أما الأمر الذي جعله يتنازل عن حلمه نهائيا فهو تلك الحادثة التي عاشها في إحدى الحافلات المتوجهة من وسط المدينة إلى حي البساتين حيث يقطن. فقد سمع بعض الرعاع -كما يسميهم- وهم يتناقلون بحماسة أخبار راقصة الإغراء فلانة التي قامت مؤخرا بشفط الدهون من مؤخرتها لتصبح أكثر انسيابية وتماسكا، وتضايق أكثر حين كان أحدهم يتحدث والدموع تملأ عينيه إعجابا بصديق هذه الراقصة -الذي كان بدوره يعمل بوابا في أحد بؤر القذارة، ليكتشف أحد المنتجين صوته الجميل، الذي كان أعذب إلى حد ما من صوت الحمار، فجعل منه مغنيا ناجحا- حين قام هذا الصديق بدعمها ومساندتها في قرارها شفط الدهون من مؤخرتها، بل إن مجلة أخبار الفنانين قد حصلت حصريا على صورة المغني وهو يمسك بيد صديقته الراقصة في رومانسية تبعث الدفء، أثناء تواجدها بغرفة العمليات قبل إجرائها العملية بدقائق، وبلغها رسالة الجمهور: [كلنا نساندك، فكوني قوية]. بل إن بعض الأخبار -التي لا تزال غير مؤكدة- تقول أن مجلة أخبار الفنانين قد فازت حصريا بحقوق نشر أول صورة لمؤخرة هذه الراقصة بعد إجرائها للعملية. كما أن هذه المجلة قد نشرت حصريا أيضا لقاء مع الطبيب الذي أجرى العملية. وقد سمع مراد أحد الرعاع الذين قرأوا المقال وهو يتحدث بحماسة مفرطة أن ذلك الطبيب كان يحب الدراجات الهوائية منذ صغره، وعندما حصل على شهادة الابتدائية اشترى له أبوه الذي كان فقيرا دراجة هوائية، لكن اتضح فيما بعد أن بها خللا، إذ كانت السلسلة تنزلق دوما عن المحور مما كان يضطره إلى النزول دائما لإعادتها إلى مكانها، لكنه كان سعيدا بدراجته، وكان سعيدا أكثر لأنه جعل أباه فخورا به. لينفجر أحد الرعاع بالصراخ

وهو ميت من الإعجاب بالطبيب: هل تتصورون؟ إن لونه المفضل هو اللون الأحمر، لأن اللون الأحمر يشعره بالقوة والفخر والتصميم.
ليضيف أحدهم بصوت حزين رتيب: لكن يبدو أن الطبيب المسكين لم تخل حياته من الأحزان. فقد استطاع لتوه اجتياز مأساة هجران زوجته له، التي هربت مع بائع البيتزا، ثم أرسلت إليه بأنها تريد الطلاق، لأنه أصبح لا يعجبها كما زعمت، لأن لديه شعرا على ساقيه، كما أن رائحة فمه غير محببة، بالإضافة إلى أنه لا يحسن الإصغاء إلى المرأة، ولا يتقن التكهن بأحاسيسها، بعكس بائع البيتزا، الذي يعرف بمجرد نظرة في عينيها كل ما تكنه من أحاسيس. إنها لا تستحقه أبدا، تلك الساقطة اللعينة المتكبرة. وكأنها المرأة الوحيدة في الدنيا.
لينفجر أحدهم بانفعال: لكن اللوم كله يقع على الطبيب.
فنظر إليه أصدقاؤه الرعاع نظرة استنكار وتأنيب فاستدرك ليقول: اللوم كله يقع عليه لأنه تنازل واختار ساقطة ليست من مستواه، فأعطاها فرصة لإهانته وتعذيبه.
عندها انشرحت صدور أصدقائه الرعاع وراحوا في حماسة يحيون صديقهم ويهنئونه على أنه لم يخطئ الصواب فيما قال.
كانت تلك الحادثة لا تشجع مرادا أبدا على أن يصبح كاتبا. فباستثناء تلك الحوارات الجميلة التي كانت تدور في مقهى الأصدقاء، وهو المقهى الذي يتردد عليه الشلة، لم يكن مراد يسمع ذكرا لأولئك الكتاب.
وتذكر وائل حين استفز مرادا بقوله: متى سنقرأ كتابك يا رجل، ألم تكتب شيئا بعد؟ فأجاب مراد مازحا: لم أريد الكتابة، فقد قررت أن أصبح راقصة. ثم حكى لأصدقائه حادثة الحافلة، واعترف لهم أنه لم يتمالك نفسه، فقام بالتحدث مع أولئك الرعاع، وكال لهم أقذع الشتائم، ثم قال لهم ناصحا بعد ذلك: ألا تخجلون من أنفسكم؟ خلقكم الله رجالا ثم تتحدثون مثل المعجبات، فعلا لا تنقصكم إلا التنورات القصيرة لترقصوا بباقات الزهور في أيديكم. ألا يشغلكم إلا الحديث بإعجاب عن مدى حب وإخلاص ذلك المغني لصديقته الراقصة التي شفطت دهون مؤخرتها. ربما تشاطرونني الرأي في أنه قد حان الوقت لتتخذوا حبيبة أو تقتنوا كلبا أو تشتركوا في إحدى جمعيات الدفاع عن حقوق ضفدعة الشجر المنقطة. لقد حان الوقت لتفعلوا شيئا يجعلكم تتوقفون عن الاهتمام بتلك التفاهات. لكنهم استمعوا إلي –قال مراد- من دون اهتمام، بل لم يردوا حتى على الشتائم وكأنني رجل مجنون. وصاح أحدهم: أيها السائق توقف، فسننزل هنا. وبدأوا ينزلون، لكن آخرهم نظر إلي باشمئزاز ونعتني بالمتخلف –هنا نظر الشلة إلى مراد باستنكار- حسنا، حسنا، لا تنظروا إلي هكذا، سأعترف، لم ينعتني بالمتخلف، فهو لم يقلها صراحة، لكن أكيد أنه قالها في سره، لأن نظرته كانت تشي بذلك، فضربته حتى بلع أسنانه، مهلا مهلا، أنا أبالغ، لقد انشقت شفته السفلى فقط، وقلت له: سأؤدبك لتحترز في المرة القادمة من نعت شخص محترم بالمتخلف، لكن الركاب فصلوا بيننا، وسارت الحافلة.
فقال سامي:
ينبغي أن تضع البلدية طوقا في عنقك يا مراد، لأنك أصبحت خطيرا جدا.
فقام مراد من مكانه وهو يصرخ:
هل أفهم من كلامك أنك تصفني بالكلب المسعور.
فقام سامي من مكانه وهو يضع يديه خلف ظهره ويعرض وجهه على مراد ويقول:
هيا يا مراد، حطم أسناني كما فعلت بذلك المعجبة، هيا، حطم أسنان صديقك.
فأجلسهما سمير، وقال وائل:
أظنك يا مراد تقسو على أولئك الناس قليلا، فهم مخدرون كليا، يقضون كل وقتهم في تداول أخبار الفنانين والرياضيين، وينفقون أموالهم في شراء تلك المجلات الصفراء، ومشاهدة البرامج الهابطة، هم مخدرون لا لوم عليهم، إنما اللوم يقع على تلك المجلات والقنوات التي تسرق الأموال بتلك الحيل الشيطانية. فأنا مثلا، أشاهد المباريات وأستمع الأغاني، لكنني لا أبالي أبدا بمعرفة خبايا الحياة الخاصة للاعب أو المغني، لأنه شخص عادي مثلي، حياته مليئة بالتفاهات مثل حياتي. لكنني أهتم قليلا بالقراءة عن حياة الزعماء والعظماء الذين غيروا مجرى التاريخ، لأن حياتهم -غالبا- غير عادية. بل إنها بقدر ما تكون تافهة بقدر ما تبعث فيك الأمل لتقول لنفسك: انظر، لقد كان يملك من العيوب مثلما تملك أو أكثر، وانظر

ماذا استطاع أن يفعل. وأنا أرى أن من يملك صوتا جميلا، أو قدما ماهرة، فليس لسيرته الذاتية أي دخل في ذلك تماما مثل العارضة التي تملك جسدا ساحرا.
فقال مراد الذي بدا عليه أنه هدأ قليلا:
أنا لا أقسو عليهم لأنني أكرههم، بل لأنني يحزنني أن أرى أبناء أمتي يخدعون بتلك المجلات والقنوات الماسونية. هل ضحى مليون ونصف مليون بطل بأرواحهم من أجل أن يقضي أحفادهم أوقاتهم في التمني لتلك الراقصة أن تشفى مؤخرتها سريعا لتعود إلى الحلبة، وتكسف كل الراقصات الشريرات اللائي يغرن منها ولا يتمنين لها الخير أبدا، ويبتهلون من أجل أن تعود إلى سابق مجدها التليد، إلى الأيام الخوالي، لما كانت تدخل إلى الفندق من الباب الأمامي، لتخرج الراقصات الأخريات كلهن من الباب الخلفي وهن يحملن أمتعتهن...يا إلهي، ماذا يحدث لابناء وطني التعساء؟ ما إن يخرج محتل حتى يدخل آخر...بالأمس الفرنسيين واليوم هذه الراقصات الماجنات...هل الاحتلال أمر مقدر على هذا الوطن؟ أين تلك الآمال الحالمة التي كان يحتضنها الشهداء في صدورهم وهم يساقون إلى المقصلة مثل الخراف؟ هل كانت تلك الآمال مجرد وهم آخر؟ أخبروني بالله عليكم، أصحيح أن منجم تندوف لم يستغل بعد؟ لمن يخبئون حديده يا ترى؟ أولئك السمان أصحاب الكروش المنتفخة. ماذا ينتظرون ليصنعوا حاملة طائرات أو غواصة أو حتى برادا أو دراجة هوائية؟ ألم تكفهم خمسون سنة ليتعلموا صنع ذلك؟ أظن أن خمسين سنة هي مدة كافية للإنسان ليحسن صنع شيء ما؟ حتى الحيوان يجيد صنع الكثير من الأشياء. فالخلد يحفر أنفاقا بطول مائة متر، والقندس يبني سدودا رائعة، والنحلة تبني في أيام مدينة تأوي عشرات الآلاف من بني جنسها، وهته البالونات البشرية غير قادرة على صنع شيء. أما الشعب فهو مخدر كليا. هل قدمنا تلك التضحيات كلها من أجل أن نجلس خاشعين، نقضي النهار نبتهل لتنجو مؤخرة تلك الراقصة؟ ماذا يحدث لك أيها الوطن الجريح. آه من أولئك السمان الخاملين. أكيد أنهم الآن يتقاسمون حصص الاستيراد والصفقات العمومية وجوازات السفر الدبلوماسية، بينما شعبهم مخدر سكران، كل ما يشغل باله هو مؤخرة تلك الراقصة. فمن سيبنيك أيها الوطن الجريح؟ من سيحميك؟
وائل لا يسعه إلا التبسم عندما يذكر بكاء مراد على الوطن، فمراد شوفيني محترق، مهووس -وربما يكون محقا- بفكرة أن الجزائر دولة واعدة، تتوفر على كل مقومات النهوض التي تؤهلها لترقى إلى مقام الدول العظمى. ويمنحه الجرأة على قول هذا، ما تتمتع به الجزائر من قوة بشرية، ومواد طاقوية، خاصة المتجددة منها كالطاقة الشمسية التي تجعل مراد يتنبأ أن تكون الجزائر روسيا المستقبل. كما أنها تتمتع بثروات معدنية وفيرة، وأراض زراعية شاسعة تفوق مساحة فرنسا، ومناخ متنوع، هذه الثروات التي تمكنها من إعالة عشرة أضعاف سكانها الحاليين، أضف إلى ذلك التاريخ الثوري والباعث على الفخر الذي سطره شعبها منذ الأزل، والذي جعل الجزائر مقبرة للغزاة، وحضنا دافئا للفاتحين، لكن مراد كان دائما عندما يذكر هته المقومات بفخر وسرور يسكت قليلا ثم يقول بحسرة: أولئك السمان أصحاب الكروش المنتفخة، ألم تكفهم خمسون سنة ليتعلموا صنع شيء ما؟
وعندما حدثه وائل -لإغاظته طبعا- عن منجم اليورانيوم المكتشف حديثا في الجزائر، لاحظ هالة السرور تدثر وجهه مثل الطفل الصغير، لكنه لم يلبث أن شرع في البكاء بحرقة -مثل الطفل الصغير أيضا- وهو يقول: لكن ما فائدة ذلك؟ ما فائدة ذلك يا وائل؟ حتى ندم وائل على إخباره، لأنه ذهب إلى وليد وطلب منه بعض المهلوسات، وبات الليل كله وهو يهذي بالتفاهات ويقول: لماذا أخبرتني يا وائل؟ لماذا أخبرتني؟ الحسرة تأكل قلبي. أحس كأنني رجل عاجز متزوج من حسناء. يا لها من حسرة تأكل قلبي. وعرف الشلة تأثير تلك النقطة بالذات -أي موضوع ثروات الجزائر غير المستغلة- على مراد فصاروا يتجنبونها كثيرا في حديثهم إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك. فرغم أن مراد رجل عنيف جدا، وأصغر شرارة هي كافية لجعله ينفجر مثل برميل البارود، لكنه يكفي أن تذكر له اسم منجم غير مستغل، وحجم الاحتياطي به، حتى يضعف مراد ويتلاشى.
لكن رغم ذلك، فإن مراد يؤذي وطنه أحيانا. فبحكم أنه متوسط الحال -فأبوه موظف متقاعد- فهو يحتاج كباقي أقرانه إلى مصروف خاص، لذلك فقد عزم هذا الصيف -إن لم يلتحق بالجيش- على سياقة الشاحنات ذوات الوزن الثقيل. وهو في الظاهر سيقود مقطورات زفت الطرقات، لكنه في الحقيقة سيهرب فيها سجائر ذات علامة أجنبية، وهو بذلك يدمر علامات السجائر الوطنية من أجل المرتب الذي سيتلقاه من

أباطرة التهريب لقاء عمله كسائق، إذ يعادل ذلك المرتب خمسة أضعاف مرتب السائق العادي، لأنه عمل يتطلب ذكاء وشجاعة كبيرين، وعندما يسأله وائل عن نيته تلك، يجيبه مراد: إن أموال الشركات الوطنية للتبغ -التي هي حكومية- تذهب إلى حسابات بنكية خارجية، أو إلى بناء قصور على شاطئ البحر، أو في أحسن الأحوال، تنفق في تمويل حفلات الرقص، وإنشاء مشروعات يستفيد منها صنفان: المسؤولون الذين يحصلون على هدايا من طرف الفائزين بهذه المشاريع، وهؤلاء الفائزون الذين يكونون غالبا من الشركات الأجنبية المشرفة على الإفلاس في وطنها الأم. ولكنني عندما سأهرب هذه السجائر، فأنا أتيح لشعبي البسيط أن يستمتع بهذه العلامة الرائعة من السجائر، ولن تكون حكرا على علية المجتمع.

أما وليد، فقد كان ورقة بيضاء ناصعة، باستثناء بعض الأسطر التي خط فيها حزب البعث أفكاره. فوليد كان قوميا عربيا، لا يتأخر بعض رفاقه أحيانا -خاصة عندما يحتدم النقاش وتخرج الأمور عن السيطرة ويفقدون أعصابهم- لا يتأخرون عن وصفه بالنازي العربي. فوليد يفتخر بانتمائه إلى الشاوية، وقبائل الأوراس بالتحديد، تلك القبائل القوية التي لا يستطيع أي مؤرخ إقصاءها من مسرح تاريخ شمال إفريقيا، منذ الكاهنة وكسيلة، إلى بن باديس وبن بولعيد. ويستد وليد في أفكاره القومية -التي تلقى استنكارا كبيرا من زملائه وأحيانا تقابل بالاستهزاء- إلى أن العرب جنس متفوق على سائر الأمم، صنعوا الحضارة في بابل،-. واخترعوا اللغة، فانتقلوا بالإنسان من الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، فبالتالي وهبوا للبشر المميز الأعظم لهم عن الحيوان. وإذا سئل وليد عن دليله على أن العرب هم من اخترعوا اللغة يقول: الأمر سهل، أنتم تعلمون جيدا أن أصل الكثير من اللغات يعود إلى العربية القديمة، فهاهي الإنجليزية تحصي أكثر من ثلاثة آلاف كلمة ذات أصل عربي، وهاهي الفرنسية، إذن فاللغات اللاتنية والجرمانية لديها أصول عربية، أي أن تلك الشعوب تعلموا اللغة عن أجداد العرب، ثم تحورت قليلا تلك اللغات بسب العزلة والظروف التاريخية، أي أن العرب هم أول من تكلم اللغة، ثم نقلها عنهم الشعوب الأخرى، أي أن أصل اللغات واحد. وهو اللغة العربية القديمة، التي يحتوي قاموسها على عدد هائل من الكلمات، وألفباؤها هي التي تتقاسمها معظم اللغات الآن. ثم يبدي لهم وليد أمثلة عن كلمات لاتنية وما يقابلها بالعربية، فمنهم من يتعجب، ومنهم من يكذب الأمر ويقول أنه مجرد صدفة. كما أن العرب قد اخترعوا الكتابة فمحوا عن الإنسانية أميتها، ووهبوا للبشر تاريخا. في الوقت الذي كان غيرهم -وخاصة الأوربيون الذين يصفون العرب اليوم بالمتخلفين المتوحشين عباد الشهوات- يأكلون لحوم البشر. وبنوا حدائق بابل المعلقة والأهرامات –فوليد لا يترك مناسبة دون أن يفصح باقتناع شديد بأن الأقباط عرب-. كما أن العرب هم أول من انتقل من مرحلة الإنسان الصياد إلى مرحلة الإنسان المزارع، فهم من أول من مارس الزراعة. فباختراعهم للغة وللكتابة وللزراعة والحضارة، فهذا يعني أنهم أول جنس تحضر، أي أنهم أسرع الأجناس تطورا. فبوصف العرب جنسا مفوقا، فقد أصبحت الشام والعراق ومصر لا تكفي متطلباتهم الكثيرة. فهاجر جزء منهم من الشام إلى إلى شمال إفريقيا قبل الميلاد، لكنهم انعزلوا عن قومهم، فتطورت لغتهم العربية إلى اللغة البربرية. كما أن العرب الذين هاجروا من الشام إلى الجزيرة العربية، تطورت لغتهم أيضا إلى عربية قريش، التي نزل بها القرآن، والتي أصبحت فيما بعد لغة كل العرب إلى اليوم. كما أن وليد دائما يتحدث في غضب شديد عن أولئك الذين يعتبرون الفتح الإسلامي لمصر وشمال افريقيا احتلالا. فيقول أن عرب الجزيرة انطلقوا من الصحراء لتوحيد العرب كلهم في دولة واحدة. فحاربوا أولا قبائل الجزيرة ووحدوها، ثم حاربوا عرب الشام وعرب مصر -الأقباط- وحاربوا عرب شمال افريقيا -البربر- أي أن الحرب بين العرب والبربر والأقباط كانت حرب أبناء عم، هؤلاء يريدون الإنفصال، وأولئك يريدون الوحدة العربية. فانتصر أخيرا الذين يريدون الوحدة، فوحد عرب الجزيرة جميع العرب، وكل مرة كان صنف من العرب ينفرد بالحكم، فمرة عرب الجزيرة وأحيانا العراق أو الشام أو مصر، وأحيانا البربر الذين دان لهم كل العرب عدا العراق في عهد الدولة الفاطمية، والمرابطين البربر الذين بنوا دولة امتدت من اسبانيا إلى السينغال، المهم أنهم حملوا جميعا هم توحيد العرب في دولة، وبالتالي لا يهم من يحكم. كما أن وليد يدعم أفكاره أيضا بخصوص تفوق العرب، بأنهم في القرن السابع بعد الميلاد، حين توحدوا وتوفرت لهم أسباب معينة، انتفضوا وفتحوا نصف العالم، وأثروا تأثيرا كبيرا على النصف الآخر. كما أنهم ليسوا كالغزاة الآخرين، فأولا هم رحماء، نفوسهم أسمى من أن تفكر في اضطهاد الآخرين، وثانيا، فنصف العالم الذي فتحوه في نصف قرن احتفظوا به إلى الأبد، وصبغوه بصبغتهم، أما الغزاة

الآخرون كالمغول فقد سقطت دولهم في جيل واحد أو اثنين، والإسكندر ماتت دولته بموته. وهتلر لم يصمد سنتين. فالحفاظ على المستعمرة أصعب بكثير من الحصول عليها. كما أنهم هم من أنقذ الحضارة كلها -بل استمرار الوجود البشري- في معركة عين جالوت حين دمروا جحافل المغول، وأوقفوا زحفهم الرهيب على الأراضي الأخرى، فقد أنقذوا العالم وأوربا على الخصوص من الفناء المحتوم، بعدما كان الأوربيون يظنون أن القيامة قد حانت، وأن المغول هم يأجوج ومأجوج الذين تحدثت عنهم الكتب السماوية. هذا دون ذكر النهضة العلمية والحضارية التي بعثوها، فقد علموا أوربا الجاهلة التي كانت تعج بمحاكم التفتيش، والرهبان الذين لا يترددون في إحراق شخص يشتبهون في كونه شيطانا، لأنه أعرج أو أعور أو أبرص، بينما كان الأمويون في ذلك الوقت يوظفون لكل أعمى أو مقعد رجلين يهتمان به لقاء مرتب من الدولة. قلت لقد علموا أوربا كيف تحترم الأقليات ولا تذبحهم، وعلموا اوربا الطب والصيدلة، وأفهموها بعد جهد أن الكيمياء ليست سحرا، وأن الفلك ليس تنجيما، كما أفهموهم أن المصاب بمغص لا يكفي أن نرسم له صليبا على بطنه ليشفى، بل لا بد أن يقوم شخص ما أيضا بإعطائه بعض الأعشاب المنقوعة في الماء. كما انهم نوروها بتراثهم التشريعي، فاقتبست منه أغلب قانونها المدني، لأن فقهاء أوربا لم يجدوا أعدل ولا أغنى من ذلك التراث، وذلك الأثر يلاحظ بصفة كبرى في المدرسة القانونية الفرنسية، التي فيما بعد أخذ عنها العالم تشريعاته، فالمدرسة الفرنسية هي مجرد وسيط. أما العلوم الفيزيائية فقد سرقها علماؤهم بوقاحة منا، إذ أن القانون الأول لنيوتن الذي اكتشفه غاليلو والمسمى بمبدأ العطالة، قد اكتشفه قبلهم بقرون ابن سينا وذكره في كتابه بصراحة، ويزول كل تعجب عندما يعلم المرء أن غاليلو كان مكبا على كتب ابن سينا يطالعها في الدير، وهذه المعلومة تؤكدها كل المراجع التي تتناول سيرة غاليلو. ويضيف وليد أن العرب هم من ينبغي أن يقودوا العالم، بصفتهم أولا جنسا متفوقا، وثانيا لأن العالم لم يشهد فاتحا أرحم منهم كما يؤكد ذلك حتى المؤرخون الغربيون. ثم يقول وليد: أنا لم أقل أن على العرب أن يبيدوا غيرهم، أو أن يستعبدوا غيرهم، بل أنا أؤمن أن عليهم أن يعيشوا مع سائر الشعوب في سلام، ولكن القيادة يجب أن تكون للعرب، لانهم جنس متفوق ورحيم في نفس الوقت، وبالتالي سيقودون الإنسانية إلى كل خير، وسيحررونها من الطغاة الذين يحكمون هذه الشعوب من اجل استعبادها واستغلالها بالشمولية أحيانا، وبالديمقراطية أحيانا أخرى. كما أن اليهود قد سيطروا على كل مقدرات العالم، فلا يستطيع أي إنسان في العالم أن يوجه أدنى نقد لليهود، وبالمقابل يستطيع السخرية من المسيح في الفاتيكان، وشتم بوذا في الصين، ووصف الرئيس في القصر الرئاسي بالخائن. لكنه لن يستطيع التفوه بأدنى كلمة مشككة في الهولوكوست. لأن اليهود هم الحاكمون الحقيقيون في الغرب، ينشرون الرذيلة والإلحاد لاستعباد الشعوب اللاهثة وراء شهواتها، فالأحرار محتاجون جدا إلى مساعدتنا نحن العرب، لأن اليهود أبناء عمنا، فهم جنس متفوق مثلنا، ولكنه جنس شرير، فنحن وحدنا نستطيع إيقافهم عند حدهم، لكن لا تظنوا أننا نحن العرب سنبيد اليهود مثلما فعل الألمان -أو مثلما قيل لنا أنهم فعلوا- فتلك الجرائم ليست أبدا من أخلاقنا، ولم تكن يوما كذلك.

فقال علي:

قد أوافقك بخصوص المآثر التي ذكرتها للعرب والبربر والأقباط قبل الإسلام، لكنني أعارضك بشدة في المآثر التي نسبتها إليهم بعده. لأنك سارق لعين يا وليد، فقد سرقت مآثر الإسلام ونسبتها إلى العروبة. فكل ما أنجزه العرب بعد الإسلام فإنما أنجزوه لأنهم مسلمون، لا لأنهم عرب. والدليل أن الشعوب الأخرى كانت تنجز مثل إنجازاتهم -وأحيانا أكثر- عندما تعتنق الإسلام، أي أن السر يكمن في الإسلام لا في العروبة. أما ما ذكرته عن إنقاذ العرب للحضارة وللوجود الإنساني من جحافل المغول، فاسمح لي أن أقول لك أنك كاذب لعين مزيف للتاريخ. لأن القائد الذي سطر ملحمة عين جالوت كان تركيا، وكذلك قادة جيشه الآخرون كلهم كانوا أتراكا وشراكسة ولم يكن فيهم عربي ولا بربري ولا قبطي. ولا تنس الأتراك وإنجازاتهم لما اعتنقوا الإسلام وأقاموا الدولة العثمانية، وكانت دولة رحيمة أيضا لا تقل رحمة عن دولة العرب، والدليل أن الشعوب شرق أوربا غير المسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية ذات يوم، كانوا يطلقون في لغتهم على العثمانيين وعلى العدالة نفس اللفظة. ولا أدري ما لذي كان سيحصل لجنسك المتفوق -العرب والبربر والأقباط- دون الدولة العثمانية التي قامت في الوقت المناسب، لتحمينا من تيمورلنك والصليبيين من إسبان وبرتغال وبيزنطيين. ولا تنس المغول -أعداء الحضارة كما سميتهم- لما

اعتنقوا الإسلام أنشأوا حضارة عظيمة، فهم من بنى تاج محل في الهند الذي لا يقل عظمة عن الأهرامات أو حدائق بابل. كما أنهم أقاموا دولتهم في الهند على التسامح مع الهندوس، ولم تقم الفتنة بينهم وبين الهندوس إلا بعد الإحتلال البريطاني للهند. هذا التسامح الذي يتعجب المرء من صدوره عن المغول الذين قبل إسلامهم كانوا يمرون بعاصمة الدنيا بغداد، التي عدد سكانها يبلغ المليونين، وعدد المساجد فيها يتجاوز مائة ألف، والحمامات مثل ذلك، زاخرة بالتحف العمرانية والمدارس الأدبية والعلمية، يمرون بها، فيبيدون مليونين من سكانها المليونين، أي لم يتركوا رضيعا ولا شيخا ولا امرأة، وجمعوا الكتب التي وجدوها ورموها في نهر دجلة، حتى صنعوا جسرا من تلك الكتب، وجرت دجلة أياما بماء أسود من حبر الكتب. ومنذ ذلك العهد اختفت بغداد عن الساحة إلى اليوم، قلت إن المرء يتعجب أن يقوم قوم قتلوا بغداد بلا رحمة، ودون أن تستطيع مفاتنها أن تغريهم بالإبقاء عليها لامتلاكها على الأقل، ثم بعد ذلك يقومون ببناء حضارة صارت مثلا في التسامح والتقدم المعماري، فتاج محل هو معبد بناه الملك المغولي المسلم لزوجته المشركة. فهذا يعني أن الإسلام هو السر في تحضر العرب والبربر والأتراك والمغول وغيرهم. الحضارة بمفهوك أنت يا وليد، أما أنا فلدي مفهوم آخر للحضارة. أما عن حديثك عن النهضة العلمية، فهي إسلامية وليست عربية محضة، فابن سينا الذي ذكرته لم يكن عربيا، كما أن معظم العلماء في اللغة والحديث والطب والفقه والفلسفة كانوا من الفرس. كماأن صلاح الدين البطل العظيم كان كرديا، وكذلك ابن تيمية الفارس الفقيه الفيلسوف المجدد. فقال وليد في لهجة غاضبة:

الأكراد عرب أيضا أيها الأحمق. فقال علي متحديا:

هيا أخبرني من أين جئت بهذه المعلومة؟

فقال وليد بثقة: من كتاب الكامل للمبرد، وسأحضره لك، كما أنهم ينتمون إلى ضبة بن مرة، أي انهم أبناء عم تميم، القبيلة العربية المشهورة، وسموا أكرادا لتكردهم بالجبال. كما أنه ينتمي للعرب أيضا البربر والأقباط والبربر والأثيوبيون.

فقال علي بهدوء:

يا وليد، يا حبيبي وليد، لا يجب أن نشترط أن يكون الأكراد عربا حتى نجعلهم إخوة لنا، أنا أفهم شعورك يا وليد، لكن يمكن أن نتخذهم إخوة دون الحاجة إلى تلفيق الإدعاءات، ودون ضمهم إلى الجنس العربي بالقوة. أنا أعلم أنك تجتهد لتضع بيننا وبينهم رابطة لأنك تحبهم وتريد أن يكونوا منا، لكنهم منا يا وليد دون الحاجة إلى ذلك. لأن هناك رابطة تجمعنا بهم وهي الإسلام، كما أن هذه الرابطة تجمع أيضا بين البربر والعرب، فانا أعترف لك بأنني أرجح أن البربر من العرب، ولكن يا وليد لا حاجة لنا لإتعاب أنفسنا لإثبات رابطة كهذه، مادام يجمع بيننا رابطة الإسلام التي هي أكثر قوة ومتانة. والتي طالما جمعت بيننا وبين الزنوج والفرس والترك والألبان والشيشان والأقباط والمغول والهنود وكل المسلمين في العالم. كما أن هناك أملا كبيرا يملأ فؤادي ويجعلني أتوقع أن تجمع هذه الرابطة يوما ما بيننا وبين الإيطاليين. فقد آن الأوان لهم أن يعتنقوا هذا الدين ويحملوا رايته كما فعلت الشعوب الأخرى.

فصرخ وليد غاضبا:

ماذا؟ تتدخل في معتقداتي وتزعم أنني واهم لأنني قلت بأن الأكراد من العرب ثم تقوم في وقاحة بضم الإيطاليين إليك دون أي دليل؟ فأنا على الأقل قدمت دليلا.

فقال علي:

لقد بشر محمد (ص) بهذا، وأظن أن هذا هو الوقت المناسب لذلك. فربما سيرحم الله المسلمين على ما هم فيه من الذل والضعف، ويهدي الإيطاليين كما هدى قبل ذلك الترك. لكن هذا لا يعني أن نقف نتفرج وننتظر الآخرين، بل يجب علينا أن نقوم بفعل ما يجب فعله لحماية أنفسنا -نحن المسلمين- من الإبادة المنظمة التي تمارس علينا منذ ضعف الدولة العثمانية إلى اليوم. فربما ستتأخر تلك النبوءة قرنا أو قرونا، وعندما يكون هناك أشخاص أسماؤهم: محمد ماركوني، أو عمر دي روسي، عندها سترى كيف يعود مجد الإسلام.

لكن وليدا كان ينفجر ضاحكا ببلاهة وعفوية ويقول: أنت مجنون ياعلي، أنت مجنونا كليا، بل أنت أكثر جنونا مني.

لقد كان وليد صفحة بيضاء حقا، متفائلا ومنشرح الصدر دوما، بل حتى في الصباح الباكر في الأيام الشتوية كان يستطيع الضحك. ميزة كان يتمتع بها وليد، وطالما حسده عليها مراد، فكثيرا ما كان يغار من ضحكة وليد البلهاء التي كان مراد يعجز عنها فيتمثل بقول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله، وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وكان يبدو على وليد أنه يحتفل كل يوم حتى إنه كان يقول:

أنا أحتفل لأن الشمس طلعت اليوم من المشرق.

كما أنه كان كثير الاختلاط بالناس، سريع عقد الصداقات، ويعلق مراد بأنه يفعل ذلك لأنه بليد الذهن ولا يمكنه التفطن في حال وجه إليه شخص إهانة، والناس مجبولون على حب الأشخاص المتقبلين للإهانات. لأن مراد لا يحبذ الإختلاط بالناس كثيرا، لأنه يقول أن الناس ما إن تخالطهم حتى يقللوا من احترامك. وما دام هناك خياران فقط: إما مخالطتهم وضربهم، وإما اعتزالهم، فقد فضل مراد الخيار الثاني، وهو اجتنابهم ما أمكنه ذلك، وخاصة اجتناب الثلثين الأحمقين -كما يسمهم مراد- أي النساء والصبيان لأنه لا يمكن ضربهم، فمراد لا يعرف الكثير من النساء باستثناء أم وأخت وحبيبة وبعض القريبات. أما وليد، فوصف مراد له بعدم فهم الإهانات فصحيح نوعا ما، لكن وليد حتى لو اكتشف إهانة موجهة إليه -مع أن هذا نادر الحدوث- فهو لن يعتبر الأمر خطيرا جدا، ولن يصنفه في خانة الأشياء المصيرية. كما أن ذاكرة وليد حنونة جدا معه، بل إنها تدللة إلى درجة الإفساد. فهي لا تحتفظ له إلا باللحظات الجميلة. فهو مثلا عندما يتذكر موت جده أثناء طفولته يشعر بسعادة غامرة، رغم أنه بكى كثيرا على جده الذي كان يحبه كثيرا، ويدللة، وكان يوفر له حصانة ضد عقاب والده، حين كان جده يتدخل بصوته الجهوري ويقول بأن وليد طفل صغير ولا يزال حليب أمه بين أسنانه. فرغم أن وليد حزن جدا لوفاة جده لكنه كان يشعر بالسعادة بمجرد تذكر وفاته لسبب وحيد، وهو أنه في المأتم الذي أقيم على جده قامت ابنة خاله الطبيب -التي كانت أيضا طفلة- بمواساته على حزنه، وشفعتها بقبلة التي كانت أول وأحلى قبلة لوليد، وأخبرته أنها تحبه، وأنه يجب أن يكافحا من أجل حبهما، لكنها انتقلت بعد ذلك مع عائلتها إلى الخارج، ويبدو أنها كانت منها نزوة طفولية فقط، قوتها تلك النجومية التي كانت تحيط بوليد في مأتم جده، الحفيد الوحيد المدلل لدى جده المتوفي. لأن الفتاة يبدو عليها أنها نسيت وليدا.

أما المثال الثاني الذي يثبت أن ذاكرة وليد لا تحب أبدا أن تعكر مزاجه، فهو الرحلة التي قام بها إلى العاصمة لاقتناء مجموعة من الهواتف النقالة، من أجل أن يعيد بيعها في مدينة تل الياسمين لتأمين بعض المصروف. فالعاصمة بها سلسلة من المحلات لبيع الهواتف النقالة يؤمها التجار من كل أنحاء البلاد، لأنهم لن يجدوا أسعارا أرخص من تلك الأسعار التي تعرض بها هذه المحلات بضاعتها. لذلك، في صباح شتوي باكر، أخرج وليد محفظته ودس فيها من النقود ما يكفي لملء حقيبة صغيرة من الهواتف، وكان قد استلف النقود من سمير، وركب الحافلة المتجهة إلى العاصمة، وبمجرد وصول الحافلة إلى محطة العاصمة، استقل وليد حافلة النقل الحضري، فقد كان كل همه أن يذهب إلى سوق الهواتف ويتزود بالبضاعة، وبعد ذلك يقرر، هل يعود رأسا إلى الديار، أم يحجز غرفة في الفندق، ويضع فيها حقيبة الهواتف، ويمضي ليلة صاخبة في الحانة احتفالا بصفقته، مع أنه كان متأكدا بأنه سيميل في النهاية إلى الرأي الثاني، كما كان يفعل دائما. فقد كان وليد مدمنا على الكحول، إلى درجة أن أصدقاءه ينعتونه ببرميل الكحول. نزل وليد من الحافلة، وكانت السماء تمطر، والأرض مليئة بالبرك والأوحال. ندم وليد لأنه لم يحضر المطرية، وقال في نفسه (دائما أنسى، متى أتعلم أنه حين يكون الجو صحوا في تل الياسمين فهذا لا يعني بالضرورة أنه كذلك في العاصمة. كيف نسيت ما حدث معي المرة الماضية، عندما تشاجرت مع قابض الحافلة، لأنه عاملني طول الطريق كزبون من الدرجة الثانية، لا لشيء إلا لأني كنت مبللا من رأسي إلى قدمي، الحيوان المتخلف، قال لي: عندما تنزل، من من الزبائن سيرضى بالجلوس على مقعد مبلل. وكأنه كان متأكدا من أنني سأنزل دون أن أجفف مقعدي، لقد احتفظت بالجريدة من أجل ذلك فقط... لكن يا وليد، أظن بأن قابض الحافلة من حقه أن يغضب، إذ كيف تنسى دائما مطريتك، أنت لست إنسانا أبدا يا وليد، أنت مجرد حيوان آخر) أكمل وليد طريقه، لكنه فجأة تعرض إلى حفنة ماء سقطت عليه من ميزاب، فأنعمت عليه بحمام بارد، فقدر وليد حجم ذلك الماء الساقط بلترين، لكنه بعد أن خطا بضع خطوات، ظن أنه قد بالغ قليلا في تقدير حجم تلك الحفنة بلترين، فأي ميزاب هذا الذي يصب لترين دفعة

واحدة. كان ليحتاج قطرا كبيرا ليفعل ذلك. فالتفت وليد بفضول لينظر إلى ذلك الميزاب، لكنه تراجع وراح يوبخ نفسه: (أنت لست إنسانا أبدا يا وليد، أنت مجرد حيوان، كيف تريد أن تنمي قدراتك الحسابية في ظرف كهذا؟ لو أحظرت معك مطرية لكان الوضع أفضل. انظر حولك، إلى ذلك الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة لكنه يحمل مطرية في يده. حتى الصبيان أذكى منك يا وليد. لست إلا نكرة حقيرا مدمنا) لكنه تعثر في بركة من الماء، رغم أنه كان يمشي على الرصيف، لأن الرصيف كان مقعرا في أحد المواضع، مما جعل المياه تتجمع فيه، فقال وليد في نفسه: (أعرف جيدا ماذا تريد، تريد أن تلقي باللوم على الحكومة. أليس كذلك؟ أخبرني أيها الحيوان المدمن، هل الحكومة هي من قالت لك أن تنسى حذاءك الآخر ذا النعلين السميكتين، الذي كان ليصلح جدا في يوم كهذا اليوم؟ أحيانا لا أفهمك أبدا يا وليد، كيف تحضر بحذاء مثل هذا إلى العاصمة؟ لا أدري كيف تفكر؟ هذا إن كنت تفكر أصلا) ثم خطرت لوليد فكرة لامعة، لكن لبساطتها أشعرته بخيبة أمل كبيرة في قدراته الذهنية. إذ قدر أنها يمكن أن تخطر حتى في ذهن حمار، فكيف لم تخطر على باله في المرات السابقة؟ بل حتى في هذه المرة أمكنه أن يحكم بأنها جاءت متأخرة جدا، وذلك بعد أن ألقى نظرة على ثيابه المبللة. لكنه عزم على تنفيذها. فراح يقلب بصره بين جانبي الطريق، باحثا عن أي محل يبيع المطريات. واستمر على هذه الحال وهو يقرأ لافتات المحلات حتى قرر أنه لا داعي لذلك، فقد وصل إلى سوق الهواتف.

دخل وليد إلى المبنى الذي كان يعج بالناس حتى إن الجو كان في الداخل دافئا، وسار في رواقه الطويل، الذي تتوزع على جانبيه محلات تعرض على واجهاتها الزجاجية أحدث الهواتف، فراح وليد يتأملها في حماسة كبيرة أنسته لوهلة أنه شخص مبلل. ثم انقلبت الحماسة إلى حسرة حين رأى هاتفا من نفس طراز هاتفه الفاخر الذي كان يعجبه كثيرا، لكنه شربه في إحدى الحانات. لذلك فقد قاوم نفسه وقال: (لا تفكر حتى في ذلك، تريد أن تشتري هذا الهاتف ثم تفعل به مثلما فعلت بأخيه من قبل. أنا متأكد من أنه لن يدوم عندك إلا أياما، ثم تبيعه بنصف الثمن. لن تخدعني هذه المرة) ثم لبث ساعتين وهو يطوف بين المحلات، حتى وقع اختياره أخيرا على أحدها. فدخل المحل، وطلب من البائع أن يجهز له البضاعة، التي كانت عبارة عن هواتف بسيطة لانها رائجة عكس الهواتف الفاخرة. ثم قفز وليد إلى واجهة المحل، وتناول هاتفا يشبه هاتفه الذي باعه منذ أيام بثمن بخس، وقال للبائع مبتسما:

-أما هذا الهاتف فهو للإستعمال الشخصي، لذلك يجب أن تراعيني جدا في ثمنه. كما أنني ضيف أيضا، وحق الضيف إكرامه.

فابتسم البائع وقال:

سأخفض لك ستمائة دينار من ثمنه. وهذا سعر لم أبع به من قبل، لذلك أرجو أن تبقي الأمر سرا بيننا...قلت...أنك ضيف...من أي مدينة أنت؟

فقال وليد بحماسة وابتسامة:

-من مدينة تل الياسمين يا سيدي.

فقال البائع:

-مرحبا، أهلا بك. يروق لي كثيرا أهل تل الياسمين. يا لهم من أناس طيبين؟ فقال وليد مستفسرا لكن بتردد:

-أنت...لا...تقصد أنهم أغبياء بقولك طيبين أليس كذلك؟

فأجاب البائع على الفور نافيا:

كلا، إطلاقا. بل أنا أتعامل معهم كثيرا، وقد لاحظت أنهم لا يغشون ولا يكذبون أبدا. كما أنهم لا يتمسكنون أمام الباعة لينقصوا لهم الثمن مثل باقي المشترين الذين يستجدون عطف البائع ويحكون له سيرهم الذاتية ويملأونها بالقصص المحزنة من أجل أن ينقص لهم مائة أو مائتين.

فضرب وليد بسعادة على كف البائع ثم قهقه وقال:

اعذرني على تشكيكي في نواياك، لكن لدي أصدقاء يزعمون دائما أنني بليد الذهن لا أتفطن للإهانات، وقد ظننت توا أنك وجهت إلي إهانة.

فقال البائع بلهجة جدية:

أنا أرى أنه يجب ألا يكترث الإنسان كثيرا للتعليقات. خاصة تلك التعليقات التي تستهدف أشياء ليس للإنسان يد فيها.
فأجاب وليد بحماسة -دون أن يتفطن إلى أن البائع قد وجه إليه إهانة لاذعة دون قصد منه- فقال:
وأنا لدي الرأي ذاته أيضا، انظر إلي، هل أنا سمين؟
فقال البائع:
لا ألاحظ ذلك.
فقال وليد:
لكن أصدقائي يقولون لي أنني سمين، وربما أكون سمينا حقا، لكنني ممن يعمل بالمبدأ القائل: كن سمينا كما شئت، المهم أن تكون سعيدا. ثم أردف وليد وهو يشير بأصبعه ويقهقه:
وأن تكون حبيبتك سعيدة أيضا، فذلك أمر ضروري.
ثم قال البائع بعد أن أكمل ضحكه:
يبدو أن أصدقاءك حريصون جدا على إبداء ملاحظاتهم التي تتعلق بمظهرك.
فقال وليد:
أنت لم تسمع شيئا بعد يا رجل، هم لا يكتفون بذلك، بل يزعمون أن الجميع يسرقني. فيقولون بأنني عندما أخرج من بيتي ذاهبا إلى وسط المدينة لشراء بعض الأغراض، فقابض الحافلة يسرق، والإسكافي يسرق، والبقال يسرق، ونادل المقهى يسرق. والمتسول يسرق، الجميع يسرقون عندما يخرج وليد للتبضع.
فقال البائع: ليسوا على حق في ذلك، فمثلا، ها أنذا لم أسرقك، بل تعاملت معك بأسعار لم أبع بها من قبل.
فقال وليد مازحا:
بأسعار لم تبع بأقل منها، أم لم تبع بأكثر منها؟ أنت لم تحدد.
فانفجرا بالضحك والبائع يقول وهو يحاول استرجاع أنفاسه:
كلا، كلا، بل لم أبع بأقل منها من قبل، أقسم لك. يا لك من ظريف فعلا.
فقال وليد:
كان علي أن أسأل، فربما أنت تسرقني أيضا، فما الذي يضمن لي أنك تشكل استثناء في هذا العالم؟ أتعلم أنني أشعر أحيانا بأنني فعلا أسرق ولا أدري؟ فقد سرقني متسول عدة مرات. التقيت مرة بشيخ كبير فقير، فشكا لي فقره وكثرة عياله، فأعطيته نصف ما عندي، ثم التقيت بعد ذلك في مفترق الطرق بعجوز مسكينة فآثرتها بالنصف المتبقي من مالي. ثم التقيت قريبا من الحانة بكهل مقعد يرتجف من البرد، فلم أجد إلا معطفي لأعطيه له. ودخلت الحانة، بلا نقود. إلا ما يكفي لكأسين. وعندما شربتهما، جلس يشرب معي على الطاولة شاب يلبس معطفا مثل معطفي، فرأى هاتفي، فأعجبه واشتراه مني. أتعلم بكم بعته إياه.
فقال البائع: بثمانية آلاف؟
فقال وليد:
أبدا، بل بثلاثة آلاف. لقد عرف اللعين حاجتي لنقود توصلني إلى الثمالة. فعرض علي بيع هاتفي، لقد بعته وبقيت من دون هاتف إلى الآن، وأنا متأكد أنني سأبيع هذا أيضا، وقد كنت قررت أن أبقى من دون هاتف، لكن شيئا ما وخزني -وأظنه أسفل ظهري- وجعلني أشتريه، وأنا متأكد أن نفس الشيء سيخزني يوما ما ويجعلني أبيع هذا الهاتف لثمل آخر.
فقال البائع:
عجيب أمر هذا الشخص، كيف استطاع خداع الناس وهو ثمل. أنا أتساءل فعلا، ماذا يستطيع هذا الحقير أن يفعل عندما لا يكون ثملا؟
فأجاب وليد: ربما يسرق المصارف. وشفع وليد جملته بقهقهة حمقاء، ثم راح يقول بعد ذلك بلهجة حزينة:
لكنك ستتعجب يا سيدي المحترم إن قلت لك أنني لم أحقد عليه أبدا بعد فعلته. بل كنت أشعر نحوه بالشفقة. حتى إنني بعدما لقيته مرة أخرى في الحانة، دعوته لاحتساء بعض الأكواب على حسابي، وعندما انتشى راح يتفوه ببعض التفاهات، ويقول أنه سرقني أربع مرات في يوم واحد، فعرفت أن المتسولين الثلاثة كانوا شخصا واحدا هو الشخص الذي اشترى هاتفي مني بأموالي. وجاءني يلبس معطفي ولم أعرفه. لذلك فقد غضبت كثيرا، خاصة عندما نعتني بالأبله، فوجدت نفسي مضطرا لتهشيم أنفه، واسترجعت بالقوة

معطفي الذي سرقه مني، انظر، لقد تمزق قليلا من قوة جذبي إياه، أنت لا تعتبر ضربي له فعلا أهوجا؟ أليس كذلك يا سيدي؟
فقال البائع:
كلا، كلا، بل أظن أن ما فعلته هو عين الصواب. تفضل يا سيدي هذه الورقة، ففيها كل الحساب بالتفصيل، وها هي الحاسبة أمامك.
فقال وليد:
كلا، كلا يا سيدي، أعطني المجموع فقط، فأنا أضع فيك ثقتي المطلقة، بل حتى لو كنت تسرقني أنت أيضا الآن –وأنا متأكد أنك لا تفعل ذلك- فأنا أرى انك تستحق ذلك، وأنا أفضل أن يسرق نقودي بائع طيب ظريف، على أن يسرقها ثمل حقير، أو قابض حافلة متجهم.
فقال البائع:
لديك خيارات أخرى أفضل يا سيدي، مثلا، لماذا لا تعمل على ألا يسرقك أحد من هؤلاء، حتى لو كان ظريفا وطيبا.
فقال وليد بعصبية:
أتظن أنكم تسرقونني دون علمي؟ أبدا يا سيدي. لكنني أرى –خاصة عندما لا أكون مفلسا- أن النقود أحقر من أن تجعلك تخيب أمل شخص محتاج إليها أكثر منك. لكن الذي يغضبني يا سيدي هو أن يقابل ذلك الشخص إحسانك بشتمك ووصفك بالأبله....أهذا هو المجموع يا سيدي؟
فقال البائع:
-أجل، وقد قررت أن أخصم لك منه ألف دينار. وأتمنى أن تكون هذه الألف التي خصمتها ضمن النقود التي تنفقها في الإحسان إلى الناس، لا ضمن النقود التي ستؤول إلى الحانة.
فشكر وليد البائع، ثم وضع يده في جيب بنطاله ليخرج المحفظة، ثم وضع يده عبثا في الجيب الثاني. وراح يفتش جيوبه وقد تملكه الفزع، ثم صرخ: نقودي. لقد ضاعت نقودي.
فطلب منه البائع أن يفتش جيوب معطفه جيدا. لكن بينما كان وليد يفتش معطفه اقترب منه البائع وهمس في أذنه:
أتنظر إلى ذلك الشاب؟ إنه نشال محترف، لقد لا حظته يقترب منك عدة مرات. والآن، انظر إليه كيف يرمقك بنظرات مريبة. إن لم يكن هو، فأكيد أنه يعرف شيئا. لكن لا تدخلني في الموضوع، مفهوم؟ فلدي عائلة. اقترب منه خفية ثم أمسكه....
لكن وليد لم يدع البائع يكمل حتى وثب وثبة هوجاء وهو يصرخ:
أوقفوا اللص. لقد سرق نقودي.
فتنبه اللص وفر هاربا مستغلا الزحام والكتل البشرية التي كان يغص بها الرواق، مما جعل وليد يندم لأنه لم يدار اللص. فقد كان من الأجدر أن يقترب من اللص في هدوء، ثم يمسكه في زاوية ويفتشه. لكن وليد لم ييأس، بل انطلق يعدو خلف اللص، وكان اللص يتفادى الاصطدام في خفة ورشاقة، ويشق طريقه بين الحشود مثل الحية. أما وليد، فقد اتخذ مسارا مستقيما وهو ينفض الناس من حوله نفضا كما تنفض القطة الماء عن جسدها. لكن سرعته كانت تتناقص بذلك الاصطدام ولا شك. ثم انتقلت المطاردة إلى خارج المبنى. وتبع وليد اللص الذي كان أسرع منه. واكتشف وليد حينها أين تكمن الروعة في أن يكون الإنسان نحيفا. واستمرت المطاردة. وكان اللص يحاول تضليل وليد بالزج به في الأزقة الضيقة، والممرات المتشعبة، التي كان يبدو أنه يعرفها جيدا. لكن وليد كان لا يزال يقاوم. وكان بين الحين والحين يصرخ في جمع من الناس ويطلب منهم أن يعترضوا طريق اللص، لكن الناس كانوا خائفين. واستغرب وليد ذلك الخوف من شباب ضخام مفتولي العضلات يقضون معظم أوقاتهم في التمارين العضلية. فكان وليد يصرخ فيهم: لأي شيء تدخرون عضلاتكم أيها الجبناء، ألم يحن وقت استعمالها بعد. لكنهم كانوا يواصلون طريقهم بلا مبالاة. فأصر وليد على اللحاق باللص بعدما يئس من أية مساعدة. وزاد من سرعته إلى درجة أن المسافة بينهما أصبحت ثابتة إن لم تكن تتناقص. لكن وليد انزلق بينما كان يهبط سلم الدرج الإسمنتي. فالجو كان ماطرا، وحذاؤه ذو النعلين الملساوين لم يكن مناسبا للعدو في طقس كهذا. سقط وليد مباشرة

على الأرضية الإسمنتية بدون مرونة تذكر، وكأن جسمه من رصاص. ولحسن الحظ، فإنه لما انزلق، لم يكن تبقى له من السلم إلا درجتان، وإلا لكانت وقعت كارثة.
استطاع وليد أن يقوم بعد أن كان اللص قد انساب في أحد الأزقة مثلما تنساب الحية في جحرها. وقد خضع في النهاية لحقيقة أن اللص قد نجا، وأن نقوده قد ضاعت. ونفض ما التصق بثيابه من الوحل –الذي لم يكن في الحقيقة وحلا، وإنما كان خليطا من الحصى الدقيق وفتات الإسمنت- ثم ألقى وليد نظرة على ركبته التي أحس بأنها سحقت، لكنها لحسن الحظ كانت سليمة، غير أن جلده كشط في مواضع منها وفي مواضع أخرى من ذراعيه، وكان يشعر بأن أحشاءه قد امتزجت ببعضها من تلك الصدمة. وسار وليد على غير هدى، وبلا هدف، بل يتسكع وحسب. ولم يشأ أن يحمي نفسه من المطر –الذي كان يزداد غزارة- رغم وجود الكثير من الخطوات لفعل ذلك. لكنه كان يشعر بلذة نفسية رائعة ونشوة عارمة وهو يسير تحت المطر دون حائل بينه وبينه. بل كان لا يبذل أي جهد يذكر من أجل تفادي ميزاب أو بركة أو حتى سيارة مسرعة نحو غدير قريب منه. كان يحدث نفسه: أنا الغريق فما خوفي من البلل. لقد شعر في تلك اللحظة – وكما لم يشعر من قبل- أنه حر طليق، بل شعر أنه في أسمى درجات الحرية. لذلك فقد ترك الحرية لماء المطر في أن ينصب على كامل جسمه دون أية مقاومة. لكن معدة وليد في هذه الأثناء أفسدت ارتقاءه الروحي وأعادته إلى الأرض وذكرته: إنك لم تأكل شيئا، والساعة تقارب الواحدة زوالا، فابتلع شيئا أيها الحقير.
سار وليد على غير هدى حتى استوقفه مكان ما. لقد كان مطعما، فوقف يتطلع من الواجهة الزجاجية إلى الزبائن وهم يأكلون ويمرحون، وكان الباب الزجاجي مغلقا، فقد كان الجو باردا في الخارج، خمن وليد ان الجنة تشبه هذا المكان، وأحس بشوق عارم إلى الجنة، فحدث نفسه: ربما علي إعادة النظر في بعض مبادئي القومية من أجل أن توافق الإسلام، فلا أريد أن أحرم من الجنة. ثم راح وليد يتفرج على أطباق الزبائن وهو يستمتع بمشاهدتها استمتاعا قد يفوق استمتاع آكليها. وتساءل وليد: لماذا لم أكن سعيدا كفاية حينما كنت أدخل هذه المطاعم؟ في المرة القادمة يجب أن أسعد أكثر. وازداد شعور وليد بالبرد حتى إنه بدأ يرتجف. فخمن أن الجو دافئ جدا داخل المطعم، لأنه رأى الزبائن كلهم وقد نزعوا معاطفهم وعلقوها، فشعر بغضب شديد عليهم وقال في نفسه: الحمقى، لو كنت مكانهم لما نزعت معطفي. بل كنت سأبقيه على جسدي من أجل الحصول على مزيد من الدفئ. بل إن وليدا تمادى –في لحظة حماسة- وقطع على نفسه وعدا بأنه لن ينزع معطفه حتى لو شعر بالحر، بل إنه سيرتديه حتى في الصيف. وتساءل –في تقريع شديد لنفسه- كيف تجرأ على لبس تلك الملابس الخفيفة لوحدها في الصيف دون أن يضع فوقها معطفا. وعزم بأنه إذا ذهب إلى الشاطئ في الصيف القادم فإنه سيأخذ معه الكثير من الأغطية من أجل أن يتدثر بها ما إن يخرج من الماء، بل إنه تراجع وأقسم أنه لن يدخل إلى الماء أبدا، بل سيكتفي بالاستلقاء ومشاهدة الحمقى كيف يغطسون بتهور في الماء. لكن نادل المطعم شوش أفكاره بصراخه الفظ:
ماذا تريد يا سيدي؟ بماذا أستطيع أن أخدمك؟
فقال وليد مترددا:
لقد كنت... لا شيء... لقد اتفقت مع صديقي أن نلتقي في هذا المطعم، ويبدو أنه لم يحضر بعد.
فنظر النادل الفظ إلى وليد نظرة قاسية جامدة وكأنه ينظر إلى متشرد وقال في لهجة جافة:
لا أظن أن صديقك سيحضر.
ففهم وليد أن النادل يطلب منه الرحيل، فرحل واستوقفته حانة. فقام على بابها ينظر إلى الناس، وزاد حنينه إلى الجنة، كان يفكر في لو أن الجنة كانت مثل هذه الحانة فقط –في روعتها وهنائها ودفئها وأمانها وسرور أهلها- لكفاها، لكن الجنة أفضل –قطعا- من هذه الحانة، فازداد شوقا إلى الجنة. ثم قرر وليد أن يدخل الحانة، فربما يجد شخصا طيبا أو ثملا يدعوه إلى كوب أو كوبين مثلما كان وليد يفعل من قبل مع المعدمين، أو ربما سيعطيه مالا يعود به إلى البيت، أو يشتري به على الأقل طعاما.
دخل وليد إلى الحانة، واختار طاولة كان يجلس عليها رجل تبدو عليه علامات اليسر والغنى، فجلس وليد بجنبه بعد أن استأذن، فقال الرجل ببرود: اجلس. ثم راح يعب الخمر، وبقي وليد ينتظر ويحتال كيف يبتدئ حوارا ممتعا مع الرجل. فقال وليد:
هل أنت من العاصمة يا سيدي؟

فأجاب الرجل بضجر:
أجل.
فقال وليد:
أنا أنصحك يا سيدي بأن تكون حذرا، خاصة في الأماكن المزدحمة، وإلا، فسيحدث معك مثلما حدث معي منذ قليل.
انتظر وليد من الرجل أن يسأله بلهفة عما حدث معه، ثقة بلغت بوليد إلى درجة أنه جهز نفسه للتمنع والتدلل، حتى إنه حضر جملا مثل: إنها قصة طويلة. ومثل: لا تشغل نفسك بذلك. لكن الرجل لم يكلف نفسه عناء السؤال، بل ظل صامتا، ينظر في نقطة ثابتة أمامه وهو يحتسي الخمر. فاضطر وليد إلى أن يتنازل ويبدأ في حكاية قصته، مضيفا إليها بعض الظرف والفكاهة، محاولا جهده أن يروق للرجل، وخمن أن الرجل إن وجده ظريفا، فقد يصطفيه نديما له، وقد يساعده ببعض المال. فلطالما شرب الظرفاء أموال وليد في الماضي. لكن الرجل أوقف وليد موضحا له أنه غير مستعد لسماع هذه التفاهات. ونصحه بأن يذهب إلى الشرطة ويقص عليهم هذه التفاهات، لأنهم يتقاضون رواتب لقاء ذلك، أما هو فلا.
لا حظ وليد أن الرجل يتحدث بخبث مثل صائغ يهودي مراب رغم أنه شرب أكثر من خمس كؤوس وقال للرجل في تعجب:
عجبا، ألا تصابون في هذه المدينة بالثمالة. لو أن عابر سبيل جاءني –حتى لو لم أكن ثملا- لأعطيته كل مالي، دون أن أطلب منه دليلا على صدقه.
ثم بدأ يصرخ:
لماذا تشربون ما دمتم لا تسكرون؟ كان من الأفضل أن تشربوا العصير، فهو على الأقل ألذ طعما، وأقل ضررا، وأرخص ثمنا، كما أنه مشروب حلال لا يغضبه –وأشار إلى السماء-، وأردف والدموع تملأ عينيه:
أنا لا أستطيع ذكر اسمه المقدس في مكان كهذا، فاسمه المعظم لا ينبغي أن يذكر إلا في أعظم الأماكن قداسة، كما أنه لا ينبغي أن يلفظ اسمه إلا الناس الطاهرون الأتقياء.
فجاءه رجلان ضخمان، وأحاطا به وقال له أحدهما وقد أمسك بمعطف وليد:
آسف يا سيدي، فأنت تضطرنا إلى أن نطلب من الخروج، لأنك تؤذي الزبائن. فلا يعقل أبدا أن تثمل في حانة الصفاء، ثم تأتي لتعربد في حانتنا المحترمة. يفوزون هم بمالك، ونحظى نحن بعربدتك ومشاكلك.
هذا ليس عدلا.
وقال الآخر:
كم هم قذرون أصحاب حانة الصفاء تلك. إنهم يطردون زبائنهم عندما يثملون، لا يهمهم إلا المال.
فأبعد وليد يد الرجل عن معطفه بعنف وقال:
حتى أنا لا أرغب في البقاء دقيقة واحدة هنا، ابتعدا عن طريقي، واحترقا مع حانتكما في الجحيم.
خرج وليد يجر أذيال الخيبة، خرج ببطن فارغة وجسد مبلل مرتعش وقدمين أحس بأنهما تعفنتا مما أصابهما من الماء، وراح يتسكع في أحياء العاصمة من دون هدف محدد، ثم اجتاز زقاقا ضيقا طويلا مخصصا للراجلين فقط، وقد توزع باعة القماش على طرفيه، لكنهم لم يعرضوا بضاعتهم ذلك اليوم بسبب الأمطار. تذكر وليد أنه تصرف تصرفا أحمق جدا حين جمع كل أمواله في تلك المحفظة. حتى القطع النقدية كان يكدسها بغباء هناك. وتذكر أنه عندما دفع ثمن التذكرة لما صعد إلى الحافلة التي نقلته من المحطة إلى سوق الهواتف استخرج قطعة نقدية من فئة الخمسين دينارا من المحفظة وأعطاها للقابض، وحين رد له القابض الباقي وهو ثلاثون دينارا، أعادها بحماقة إلى المحفظة أيضا. وراح يغمغم في حسرة: (لو أنني أعدتها إلى جيبي لكنت الآن أملك ثلاثين دينارا، ولاتصلت بها ببعض أصدقائي ليأتي من أجلي إلى العاصمة وينتشلني من هذا الجحيم، بل كنت سأبقي بعد المكالمة –إن لم أكثر الثرثرة- ما يكفي لشراء أربع سجائر أستمتع بتدخينها مثل الملك وأنا أنتظر صديقي) ثم لمحت لوليد فكرة بدت رائعة لأول وهلة: لماذا لا يبيع معطفه بثلاثين دينارا ليتصل بها بأحد أصدقائه؟ لكنه فكر أنه سيموت من البرد قبل أن يصل صديقه، ثم ظهرت له فكرة أخرى جعلته يوجه لنفسه لوما شديدا، إذ قال: (ماذا؟ معطف جديد اشتريته منذ أسابيع بخمسة آلاف دينار، تريد بيعه بثلاثين دينارا، ما أغباك يا وليد. لماذا اخترت سعر ثلاثين دينارا

بالذات. أحيانا لا أفهمك يا وليد. تستطيع بيعه بأكثر من ذلك بكثير. بألف دينار مثلا، وبذلك ستتصل بصديقك سمير ليأتي ويقلك بالسيارة إلى البيت، وفي أثناء انتظارك لصديقك ستقوم بالذهاب إلى ذلك المطعم وتتناول وجبة دسمة تبعث الحرارة في جسمك المتجمد، ثم تذهب بعد ذلك رأسا إلى تلك الحانة الجميلة وتقضي فيها وقتا رائعا ريثما يصل سمير، ويقلك إلى الديار. لكن وليد قرع جبينه بكفه وقال: (ما أحمقك يا وليد، بألف دينار تستطيع شراء تذكرة إلى تل الياسمين، فلماذا تريد استدعاء سمير وإتعابه، وتبذير المال في الحانة، لا أدري كيف تفكر. هيا لنجرب مع ذلك البائع)

ذهب وليد إلى أحد باعة القماش وألقى عليه التحية، ثم أضاف بشيء من الدعابة –التي لم يفقد حسها وليد بعد-:

أنا أعلم يا سيدي أن اليوم هو يوم نحس بالنسبة إليك، لأنك لم تستطع عرض بضاعتك، لذا فأنا أعرض عليك صفقة العمر.

فقال البائع وهو يحدج وليدا بنظرة ارتياب ويجيل بصره فيه طولا وعرضا ويتحسس الهراوة التي كانت في كفه بأطراف أصابعه:

وما هي صفقة العمر هذه؟ ها.

فقال وليد انظر إلى معطفي، معطف جميل أليس كذلك؟ كما أنه جديد لم ألبسه إلا أياما، وبصفتك بزازا فأنت تستطيع تخمين ثمنه. وأريد أن أبشرك يا سيدي بأن هذا المعطف سيكون ملكك الخاص منذ اليوم، وتستطيع أن تفعل به ما تشاء، أن تبيعه أو تلبسه أو تهبه أو حتى تحرقه. أجل سيؤول هذا المعطف الجميل المصنوع من الجلد إليك، لكن مقابل ثمن زهيد جدا، أريد ألف دينار فقط. وصدقني، أنا لم أبع بهذا السعر من قبل، لذلك أريد أن يكون الأمر سرا بيننا. –اقتبس وليد العبارتين الأخيرتين من كلام بائع الهواتف- ثم ضرب وليد على كتف الرجل مشجعا:

هيا يا رجل لقد راعيتك جدا في ثمنه.

لكن الرجل ظل ينظر بارتياب شديد إلى المعطف وهو يجيل بصره فيه صعودا ونزولا ويمسح شعر شاربيه بأصبعيه ويغمغم: (لماذا يريد أن يكون الأمر سرا بيننا، ها، أمر مريب فعلا) ثم لفت نظره تمزق عرضي في المعطف ناحية الإبط، فتمسك بثياب وليد وصاح:

لص، لص، لقد سرق هذا المعطف، لقد سلبه بالقوة من أحدهم.

أسكت وليد الرجل بقبضة يده التي طوحته أرضا، ثم لاذ بالفرار لأنه رأى الباعة مسرعين نحوه، فعرف وليد بسهولة أنهم قادمون لشيء آخر غير إلقاء التحية. فقد شاهد عصيا غليظة في أيديهم لو ضرب البغل بإحداها لمات. واستطاع أحد الباعة الدهاة –ممن كان يتابع الأحداث من بعيد- أن يكمن لوليد على الرصيف، ويضربه بالعصا على كتفه بمجرد مروره، لكن وليد أكمل العدو دون أن يلتفت إلى ألم الضربة، رغم أنه كان ألما مريعا. بل إن وليد كان يبتسم حين تذكر ذلك التطور السريع في الأحداث، بل ذلك الانقلاب في الأدوار. فمنذ ساعات كان يتقمص دور القط، وها هو الآن يلعب دور الفأر، لكنه كان مظلوما في كلا الدورين. فلم يخف استياءه وتعجبه من هذا العالم الغريب. فاستعاد في ذاكرته تلك القصة الطريفة، عن ذلك الريفي الذي زار المدينة فأحاطت به زمرة من الكلاب فانحنى إلى الأرض ليحمل حجرا فوجده ملتصقا بالأرض –لأنه كان بلاطة من الرصيف الذي ظنه الريفي حجرا- ثم انحنى ليرفع آخر فوجده ملتصقا أيضا، وهكذا حتى قضت الكلاب وطرا من لحمه، فخرج من تلك المدينة في الحال وهو يعرج ويقول: لعن الله من يعود إليهم، يطلقون الكلاب ويربطون الحجارة.

ثم سمع وليد الباعة خلفه يقولون:

هيا لنعد إلى بضاعتنا فقد يكون ذلك كمينا، ربما شركاؤه يسرقون الآن بضاعتنا بعد أن استدرجنا هذا اللص.

ففرح وليد بالأمر لذلك قرر أن يتوقف، لكنه فضل أن يجري قليلا ليبتعد عن أنظار المارة الذين رأوا الباعة يطاردونه، وعندما يبتعد عنهم يتظاهر أمام المارة الآخرين الذين لم يشاهدوا شيئا بأنه يمارس الرياضة وعندما يتوقف يتظاهر بممارسة بعض التسخينات، ثم يكمل طريقه، لأنه عندما يتوقف فجأة سيثير ارتياب الناس، ففضول الإنسان لا يمكن إشباعه أبدا. والفضول –حسب وليد في هذه اللحظة- هو أسوأ آثام الإنسانية وأقبح عيوبها. وهو الذي يحفز على الكثير من الأخطاء الأخرى التي أبسطها الارتياب

بالناس، وخاصة الغرباء، فكل غريب مريب.وعندما توقف وليد وتظاهر بممارسة التسخينات وأكمل طريقه ماشيا، راح يشبه بحماسة هذا التضليل الذي قام به بغسيل الأموال، مما جعله يعترف بصعوبة محاربة تلك الجريمة، فمنذ وهلة كان يعدو عدو لص متشرد مطارد بالهراوات، وبعد ذلك أصبح يعدو عدو مترف يحرق الحريرات الزائدة بالرياضة. لقد غسل عدوه كما يغسل الآثمون أموالهم. واجتاز وليد أخيرا ذلك الشارع الذي كاد يكون قبره. ليدخل في ساحة فسيحة تغص بباعة السمك المتجولين. وعندما شاهد السمك علق بينه وبين نفسه بأن نجاته من هراوات باعة القماش أمر يستحق الاحتفال فعلا، لكنه مفلس تماما. ثم غمغم: (العين بصيرة واليد قصيرة، لو كان لدي مال لأقمت حفلة رائعة، فلا يوجد أفضل من طبق من السمك يشرب المرء بعده شيئا من الخمر. ذلك هو النعيم فعلا) وبدأ العرق الذي ألجم وليدا من الرأس إلى القدمين يتبرد. فأحس وليد بأنه على وشك التجمد، فبالإضافة إلى العرق فقد كان وليد مبللا تماما، وبدأ النسيم البارد يهب، بل إن الرعد بدأ يقصف منذرا بأن السماء ستمطر ثانية، مما جعل وليدا يحتار جديا في مكان يحميه. فلاحظ مكتبة مغلقة يبدو أن صاحبها أفلس، فصعد الدرج ثم اتكأ على باب المكتبة، وبدا لوليد أنه محمي تماما، سواء من المطر أو من النسيم البارد، فاستلقى وليد وتكور مثل العنكبوت السامة، ثم تكونت فكرة غير مطمئنة في رأسه: ألن يأتي أحد أولئك الباعة صدفة ويراني هنا. قد يدعو أصدقاءه ثم يحاصرونني، عندها سأكون كمن يصكه بغل في دار ضيقة. ثم استبعد هذا الاحتمال لأن الباعة مشغولون الآن بحراسة بضائعهم، كما أن هذا المكان بعيد جدا عنها، لذلك لن يخاطروا بترك بضائعهم من أجل ملاحقة لص. استاء وليد من كلمة لص، وراح يغمغم: (ما هذا العالم الغريب؟ يطاردون الأبرياء ويفسحون الطريق للصوص. عندما كنت أطارد ذلك اللص كانوا يفسحون له الطريق وكأنه سيارة إسعاف، لم يكن ينقصه إلا أن يرافقه موكب الشرطة، وأن تسير دراجة أمامه ودراجة خلفه والشرطة تقول: أفسحوا الطريق لمعالي اللص المحترم، التزموا أقصى اليمين. أما أنا فقد كانوا يعترضونني، ويصطدمون بي خاصة في ذلك الرواق. بل إنني شاهدت شابا وهو يقدم رجله محاولا أن يسقطني) ثم خمن وليد أن ذلك الشاب ربما كان يعلم براعة ذلك اللص في التملص، فأراد أن يوفر على وليد عناء الجري خلفه لمسافة طويلة. لكن وليد استدرك: (يا لغبائك يا وليد، لقد كان شريكا للص وحاول مساعدته بعرقلتك. كم كانوا منظمين) ثم هبت نفحة من الذكاء فجأة على وليد –فوليد لم يكن غبيا تماما ولا ذكيا تماما، بل أحيانا تأتيه أفكار رائعة- فتبينت له خطوط المؤامرة. فراح يخمن: (يا لها من مؤامرة رهيبة. الآن تذكرت. لقد حبكت خيوطها منذ وصولي إلى العاصمة. ومنذ كان ذلك الشاب في الحافلة يراقبني بحذر شديد وأنا أخرج نقودي وأدخلها بغباء في المحفظة أمام الناس كلهم، ورآني أين وضعت المحفظة، لقد كان الأمر مخططا له منذ البداية، بل إنني متأكد من أن ذلك اللص الذي طاردته لم يكن يحمل محفظتي معه، بل كان يريد تضليلي وحسب، وإلا فلماذا يبقى بقربي بعد أن أخذ المحفظة، كان عليه أن يبتعد. لكنه كان يريد تضليلي وإلهائي عن شريكه الذي كانت محفظتي بحوزته، وكان منشغلا ببعض الفرائس الأخرى، فخاف من أن أتعرف على شريكه الذي راقبني في الحافلة، يا إلهي، لقد كان كل شيء محبوكا بدقة، كم كان أملهم كبيرا في ذكائي. وأخيرا سرقني أشخاص من دون إذني، يا لهم من لصوص منظمين فعلا، عداء ماهر ونشال فنان ومعرقل ماكر، لو كان رجال الشرطة يتمتعون بربع تنظيمهم لما حدثت سرقات. أتمنى أن ينفقوا أموالي في أشياء مفيدة للمجتمع وألا ينفقوها في الثمالة، فربما تكون لديهم أم مريضة، أو إخوة صغار أيتام)

نفخ وليد في يديه ثم أضاف: (البرد شديد جدا، لا أدري كيف سيصبح الطقس عند حلول الليل. ابن اللعينة، لو ترك لي ألف دينار لكنت الآن في البيت –ثم استدرك- يا وليد، ما دخل أمه المسكينة في الموضوع، فربما هي الآن تعاني الأمرين من جنوح ابنها. بل هو وحده، هو وحده اللعين الحقير المتسكع، أجل، هو وحده اللعين ولا دخل لأمه في الموضوع) ثم شعر وليد بألم الضربة التي حصل عليها في شارع الأقمشة. فراح يخمن بأنها ضربة مؤلمة فعلا، لكنها كانت ضعيفة جدا مقارنة بتلك العصا المستعملة. فتمنى لو أنه يملك نقودا ليذهب إلى ذلك البائع الذي ضربه ويشتري منه شيئا ما، ليثبت له أنه ليس لصا، لأن اللصوص لا يشترون، وبعد أن يطمئن إليه البائع ويصبح مهيئا لتقبل نصيحة من وليد، يقوم وليد بتنبيهه –بلهجة شديدة- على أنه يضرب كفتاة، وأنه آن الأوان ليقوم ببعض التمرينات. لأنه بعضلات كهذه لن يستطيع

حماية رزقه من اللصوص. لكن وليد راح يؤنب نفسه بعنف ويقول: (كيف تفكر في هذا؟ لن تضع قدميك القذرتين في ذلك السوق مرة ثانية، أتريد أن تموت؟)
كان لا يزال على مغيب الشمس الكثير من الوقت، لكن المغيب الفعلي كان قد بدأ باكرا، كما هو الحال في كل المدن ذات البنايات الشاهقة. وكانت الريح الباردة تهب لتجمد الدماء في عروق وليد، أعانها على مهمتها البلل الذي كان يلجم وليد من أعلى رأسه إلى أخمصي قدميه. فراح وليد يرتجف ويرتجف، ورغم نومه فقد كان يحس بالبرد إحساس المستيقظ، ويبدو أن الحمى قد اكتنفت وليد، ظروف اجتمعت لتجعله غير متصل بهذا العالم.
فجأة أصبح وليد عاجزا عن الحراك. إذ صار مشلولا تماما، أما قدماه فقد بردتا ويبستا وأصبحتا كقطعتي جليد، وبدأ جسمه يتجمد رويدا رويدا، من الأسفل إلى الأعلى، وأصبح التنفس يغدو أكثر صعوبة مع الوقت ، حتى خيل لوليد لوهلة أنه يتنفس من سم إبرة لا من منخرين. وجثم ضغط هائل على جسمه حتى بدا له كأن السماء أطبقت على الأرض وأنه بينهما، أو كأنه في قاع المحيط.
أدرك وليد حينها قوة الإنسان على التحمل، فضغط كهذا لا يمكن حتى لأصلب المعادن أن تتحمله، كما أن ذلك الاختناق كان سيقتل أقوى البهائم الموجودة على وجه الأرض. هذه حال وليد الجسمية، أما حاله العقلية فهي تدعو إلى العجب. فقد لاحظ أنه يتمتع بالوعي التام، بل إن وعيه يزداد عظمة، وحواسه تزداد صفاء وجودة، وحين خمن قليلا وجد أن حواسه لم تعد خمسة فقط، بل جزم بأنه اكتسب حواس أخرى أكثر فعالية، ورغم أنها جديدة عليه لكنه كان يتحكم بها ربما أكثر حتى من تحكمه بالحواس القديمة.
أما ذاكرته التي أصبحت مثالية، فبفضلها، لم يعد يخفى عليه شيء من ذكرياته، بل إن تفاصيل حياته اليومية أصبحت ماثلة أمام عينيه بكل أجزائها، حتى أنفاسه التي استنشقها أو زفرها طيلة حياته يستطيع إحصاءها والتمييز بينها، بل وتسمية كل منها باسم علم متميز بحيث صار يميز بينها أفضل من تمييزه بين أصدقائه الخمسة علي ووائل وسمير وسامي ومراد. فقد أصبح لكل لحظة في حياته وكل نفس وكل حركة ذات وكنه. والأعجب من ذلك أن ذاكرته وسعت ذلك كله وبسهولة، فأحداث حياته الآن بتفاصيلها الصغيرة ولحظاتها القصيرة ماثلة أمام عينيه لا في كتاب من صفحات كثيرة، ولكن في كتاب من صفحة واحدة كبيرة، يرى كل سطورها وحروفها ونقطها في لحظة واحدة.
ليس هذا كل شيء، لم تتسع ذاكرته وحسب، ولم تزد حواس أخرى فقط، فهناك شيء آخر زاد، إنه العلم. لقد أصبح وليد يعرف كل شيء، وبطريقة مختلفة عن المعرفة السابقة. كأن يعرف الإنسان أن هذا الأمر تافه وذاك مهم، فوليد أصبح يعرف درجة تفاهة الشيء التافه، وكذلك إلى أي مدى ذاك الأمر مهم. وكم هذا الشيء قبيح، وما مقدار حسن هذا الأمر الحسن. لقد أصبح وليد يعرف كل شيء وبطريقة مختلفة أيضا. ومن بين أقسى الأمور التي أصبح الآن يعرفها والتي عصرت قلبه عصرا هي أنه الآن يحتضر.
امتلأ قلب وليد بالشفقة والأسى على نفسه المسكينة، لأن الموت زاره في وقت غير مناسب على الإطلاق، في وقت كان غافلا جدا عن المهمة التي خلق من أجلها – فوليد أصبح يعرف الآن أنه خلق خلقا لا كما كان يظن أنه مجرد تراكم لأحداث سابقة تصادفت لتنتج إنسانا اسمه وليد- وبما أنه خلق فهذا يعني أنه يوجد خالق، والخالق تقدس اسمه لا يعبث، بل يوجد سبب لخلقه وليدا وغيره من الناس، وهو مهمة واحدة: خلقهم ليوحدوه وليعبدوه دون أن يلومهم إن سعوا لتوفير الموارد التي تتيح لهم العيش الكريم، أو إن أشبعوا شهواتهم وغرائزهم التي غرسها فيهم ما لم يخرجوا عن القواعد التي حددها لهم في الكتب التي أنزلها على بشر مثلهم اختارهم عن علم ودراية ليبلغوا إخوانهم بأمانة ما أمرهم به وما نهاهم عنه، وليعلموا عباده أحسن الطرق التي ترضيه عنهم، وليحذروهم من الطرق التي تسخطه عليهم. في حين أنه والكثير من البشر غيره ظلوا يقنعون أنفسهم بنظريات ادعوا أنها علمية مع أنها لا علاقة لها بالعلم من قريب ولا من بعيد. لأنها وضعت من طرف ملحدين عاشوا قبل التطور العلمي ليبرروا الالحاد. وعدما ماتوا حاول الملحدون بعدهم أن يبنوا أساسا علميا للنظريات الملحدين الأوائل الجهلة. أي أنها نظريات مبررة علميا بالقسر. سابقة للتطور العلمي. وليست ناتجة عن ذلك التطور.
أصبح وليد يعرف قصة الخلق، حين خلق الله جده الأول آدم في السماوات، ثم أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه أبى ورأى في ذلك ذلا وجرحا لكبريائه، لأنه كان يرى أنه أفضل من آدم،

فطرد الله إبليس من رحمته. وحقد إبليس على آدم وطلب من الله أن يعطيه فرصة ليثبت أن آدم وذريته هم عصاة لله لا يستحقون فضله، فأعطاه الله تلك الفرصة مبينا له أن هناك من بني آدم من هو أهل لذلك التكريم، وهم المطيعون لله، أما من يتبع إبليس ويخون تكريم الله له، فقد أقسم الله بعزته أنه سيدخله النار مع إبليس. وأول نجاح لإبليس كان في إغوائه لآدم وحواء وتحريضه لهما على الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها. فأخرجا من الجنة وأهبطا إلى الأرض. ثم زرع الحسد والقتل والرذيلة في الأرض، ثم ابتكر شيئا آخر أكثر من المعصية، وهو الشرك بالله، الذي لا يغفره الله للعبد الذي يموت وهو يعتنقه، لأن الله قد يغفر للعبد إذا مات وهو يفعل كل المعاصي، أما إذا مات مشركا فقد حرم الله عليه الجنة ومستقره في النار إلى الأبد.

وابتكر ابليس للبشر الأوائل عبادة الأصنام والشجر والبقر والأجداد والصور والقبور والنيران والمياه والطبيعة. ثم جعل اليهود يعبدون العجل. أما النصارى، فبعد أن فشل في القضاء على عقيدتهم بإبادتهم التي كان يقوم بها اليهود وحكام روما بإيحاء منه، وجد مبتغاه عند بعض أتباعه من قساوسة النصارى الذين حرفوا النصرانية الصحيحة الموحدة، وجعلوها وثنية مثلثة مثلها مثل الوثنية الرومانية.

وعندما جاء الإسلام زين للعرب المشركين محاربته بكل الطرق الإرهابية لكنه فشل. وبعد قرون، نجح في تضليل بعض الفرق الإسلامية وجعلهم يعظمون أقرباء الرسول ويطلبون منهم الحاجات بدل الله، وجعل بعضهم يشركون الموتى من الصالحين والأنبياء في طلب الحاجات إلى الله، فيطوفون بقبورهم ويطلبون منهم الشفاعة لهم عند الله، تماما كما كان يفعل العرب مع الأصنام قبل الإسلام. وجعل بعض المسلمين يلحدون في أسماء الله فيعطلون بعض صفاته وينالون من قدسية الله، وهذا إلحاد جزئي بالمقارنة مع الإلحاد الكلي حين ينكر الملحد كلية وجود الله، أما الملحد جزئيا فيؤمن بوجود الله لكنه ينكر بعض صفاته، ربما عن حسن نية، لأنه يظن أن بعض الصفات لا تليق بجلال الله، فيعطلها رغم أن الله وصف ذاته بها في القرآن. وقام ابليس بحمل قوم على الإعتراض على أحكام الله والتحدث في القدر. ونشأت القاديانية أو الأحمدية الذين يتبعون متنبئا دجالا يدعى غلام أحمد صنعه الإستعمار البريطاني في الهند ليهدم الإسلام. ثم توصل إبليس إلى نشر الإلحاد وانكار وجود الله بالكلية وجعل البشر آلهة يحكمون أنفسهم كما يشاءون. بل إنه توصل إلى درجة جعل جزء من البشر الذين كان مطالبا بالسجود لجدهم في الماضي يهبطون إلى التصريح أنهم عباد للشيطان، يتقربون إليه بالطقوس والشعائر ويسجدون له.

وتعجب وليد من إبليس، كيف أنه لا يملك أي تأثير في العالم المادي، إذ انه لا يستطيع أن يزحزح قشة من التبن مقدار إصبع، لكنه يستطيع أن يمحو مدينة عن وجه الأرض بأيدي أتباعه البشر الذين يزين لهم الحروب بغرس العنصرية والقومية في قلوب الشعوب، وغرس نزعة السيطرة والزعامة في قلوب القادة. وتذكر وليد بعد فوات الأوان كيف كان إبليس يبعث إليه أعوانه ينفخون في صدره ويملئونه بالكبر والفخر. ويزينون له تلك الفكرة، أن العرب هم أقوى الأجناس وأكثرها تفوقا، وأن العالم كله متآمر عليهم كي لا ينهضوا، لأن نهضتهم تخيف العالم كله. وكان أعوان إبليس يطربونه بتلك الأشعار الغنائية التي تمجد العرب وترفعهم إلى مصاف الآلهة. مما جعله ينسى الإسلام بل يرى فيه أكبر عائق لتحقيق فكرته. لقد ورد في القرآن : (يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأصبح عند المسلمين بلال العبد الحبشي أكرم من العباس عم النبي، لأنه سبقه إلى الإيمان بالله، آية لطالما تلاها عليه علي ليثنيه عن السقوط في شرك البعثيين والناصريين والبومدينيين، لكن وليدا كان معرضا متكبرا لا يتسع قلبه إلا لحب الحسناء الساميّة التي هي العروبة، ولا يلهج لسانه إلا بتمجيدها وذكرها وتقديسها، ثملا نشوان غالب الوقت بجمالها ودلالها. لكن الآن وهو مقبل على مكابدة أهوال تدك الجبال، هل يستطيع العرب أن يغنوا عنه شيئا من العذاب؟ وليد يعرف أنهم لن يستطيعوا أبدا، وإن استطاعوا فلن يريدوا.

لقد ضاع كل شيء، ويل لوليد، ثم ويل لوليد، ثم ويل لوليد. كم كان غبيا متهورا وأهوجا. كيف سولت له نفسه أن يعادي الجبار وأن يتحداه بالمعاصي والكفر والإعراض عن آياته؟ الجبار الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي خلق ملائكة غلاظا شدادا لا يعصون الله ما أمرهم ويبطشون أشد البطش بالذي يموت عاصيا لله كافرا به. ما خطب وليد، وماله، وماذا دهاه حين كان حيا سليما؟ بكلمة منه كان سيغير مصيره الأبدي، من حالة إلى حالة، من مجابهة ملائكة غلاظ شداد ينكلون به في نار الجحيم، إلى الإنغماس في

ملذات الجنة، والاسترخاء في منتجعاتها. بكلمة واحدة لا تأخذ عشر ثوان من وقته ولا قرشا واحدا من ماله، إنها لا إله إلا الله محمد رسول الله.
شعر وليد أنه أعظم البشر خسرانا على الإطلاق. صحيح أنه كل يوم هناك عشرات الآلاف من البشر يؤخذون على غفلة مثله، ويصدمون أيضا بتلك الحقائق الفاجعة التي جهلوها أو ظلوا يتجاهلونها طول حياتهم، لكنه أكثر خسرانا منهم، لأنه كان عند المنبع ولم يشرب. فقد ولد مسلما موحدا مثل كل البشر، غير أنه ولد لأبوين مسلمين. لقد كان محظوظا جدا عكس غيره الذي يولد لأبوين غير مسلمين، فيقومان بتلويث إسلامه الفطري بالشرك او الإلحاد او التثليث. أما وليد الذي ولد مسلما مثل جميع البشر لكنه ولد لأبوين مسلمين حافظا على إسلامه الفطري، وكان يحظى بصديق مثل علي ينصحه ويعظه، وولد عربيا، أي يستطيع بسهولة قراءة رسالة الله الوحيدة غير المحرفة التي هي القرآن. كل هته الفرص أضاعها وليد واختار الشقاء الأبدي. ومما زاده كمدا وندما أن يعرف أشخاصا كثرا ولدوا لآباء غير مسلمين حرفوا إسلام أبنائهم الذي ولدوا عليه وأنشئوهم على عقائد الآباء الضالة. لكن هؤلاء الأبناء استطاعوا بالبحث والتدبر العودة إلى عقيدتهم الفطرية الأولى التي هي الإسلام. تلك العقيدة التي ولد عليها كل إنسان دب على هذه الأرض، والتي دعا إليها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. وكانت كلما تحرفت تعاليم نبي مع مرور الزمن -لتلائم مصالح طبقة معينة- أرسل الله نبيا آخر يعيد الناس إلى العقيدة الصحيحة الأولى –وبالطبع تقوم تلك الطبقة بمحاربته بشتى الوسائل لتبقي على مصالحها- لذلك لم يكن الأنبياء يُستقبَلون بالورود، بل كان بعضهم يُقتل، وبعضهم يُنفى، وبعضهم يُضطهد. ورغم أن العقائد الفاسدة كانت تتصادم فيما بينها، إلا أنها كانت تتوحد في مواجهة العقيدة الصحيحة، لأن العقائد الفاسدة أنشأت أو حرفت لحماية مصالح جماعة، أي لو أن أصحاب المصالح تفاهموا وتقاسموا المصالح فلن يكون هناك صدام بينهم، فالبصمة البشرية واضحة في تعاليم تلك العقائد. أما العقيدة الصحيحة فهي إلهية، أي عادلة تشمل الجميع برحمتها حتى الحيوان والنبات، ولا تقبل المداهنة في مبادئها، فلذلك هي تشكل خطرا على أصحاب المصالح، وتجعل غالبا كل العقائد يتحالفون ضدها. مثلما حدث مع المسيح حين تحالفت ضده الوثنية واليهودية المحرفة، ومع محمد حين تحالفت ضده اليهودية المحرفة والنصرانية المحرفة والوثنية.
لقد كانت آخر الديانات المحرفة هي النصرانية، والتي صححها محمد وجاء بالإسلام الذي هو نفسه المسيحية الأولى الموحدة التي دعا إليها عيسى، وهما أيضا عين اليهودية الأولى التي دعا إليها موسى، وهته الديانات الثلاث هن الحنفية الأولى التي دعا إليها إبراهيم، أي أن جميع الأنبياء جاءوا بديانة واحدة هي إسلام اليوم الصحيح. لأن هناك طوائف تدين بإسلام محرف مثلما حرفت الديانات السماوية السابقة، فهناك من هو مثل النصارى يغالي في اقرباء محمد كما غالى النصارى في عيسى، وهناك من يستغيث ويتشفع بقبور الصالحين كما كان المشركون العرب يفعلون مع الأصنام، وهناك من يعطي للحاكم أو العالم مكانة النبي فيجعل قول العالم وفعل الحاكم مثل قول وفعل النبي لا يناقش في ذلك، وهناك من هو خارج عن الإسلام كلية فلا يعترف بقوانين الإسلام أو يعتبرها غير صالحة لكل زمان ومكان، أو من يبعد الدين عن الحياة ويحبسه بين جدران المسجد. وهناك الملحد الذي ليس له علاقة بالإسلام إلا في كون والديه مسلمين. وهناك القاديانية التي صنعتها المخابرات البريطانية في الهند لتحطيم المقاومة الاسلامية الشرسة التي واجهتها بريطانيا هناك.
فالإسلام وإن تعرض لمحاولات داخلية أو خارجية لتحريفه إلا أنه صمد وبقي قطاع واسع من المسلمين على الإسلام الصحيح، ولم يشذ إلا أقلية. وكل ما يحدث هو أن هذه الأقلية يزداد حجمها واحيانا ينقص حسب ظروف المسلمين، وحجمها عموما لا يزداد إلا في فترات الاستعمار والضعف. فالاسلام هو آخر الديانات وهو محفوظ من التحريف، ففي كل جيل هناك طائفة واسعة تعتنق الاسلام الصحيح الذي ينجيها من النار، وينبري من هذه الطائفة فئة صغيرة تدافع عنه ينصرها الله.
ومثل الديانات السماوية مثل رجل رسم لوحة وعرضها على الناس وتركهم، وبعد زمن عاد فوجد أن أحدهم زاد خطا، وآخر زاد نقطة وآخر رسم دائرة فقال: هذه لم تعد لوحتي. وأعاد رسم نفس اللوحة كما كانت قبل التعديلات التي وضعها الناس. وذهب ثم عاد بعد زمن فوجد الناس قد عبثوا بها مثل الأولى، فرسم لهم مرة أخرى نفس الرسمة وقال: أما هذه فسوف أحميها. ووضعها خلف شباك يجعل الناس يطلعون عليها ولا يستطيعون تبديلها. فصار للناس ثلاث لوحات، اثنتان مشوهتان وأخرى محمية، وبعد

زمن أصبح الناس يختلفون في أي اللوحات هي للرسام المشهور. غير أن العقلاء استدلوا بوجود الشباك على صحة نسبة اللوحة إلى الرسام. واستدلوا على أن اللوحتين الأخريين رغم أن الرسام هو من رسمهما لكنهما لم يعودا ينتميان إليه بعد رؤيتهم لتلك الخربشات الطفولية عليهما التي لا يمكن أن تعود للرسام.
استفاقة وليد من غفلته كانت متأخرة جدا. لأن وليدا كان قد مات.
فتح وليد عينيه فوجد نفسه في غرفة جدرانها مبنية بحجارة ضخمة. وكانت الارضية والسقف من نفس الحجارة. كان وكأنه في الأهرام. لم يرد وليد أن يقوم ليبحث عن مخرج ما في هته الغرفة المصمتة المغلقة. لأنه يعرف حقيقة هذه الغرفة. ويعرف أنه ما من مخرج. ويعرف أن ما سيحدث في هذه الغرفة إن كان سيئا فكل ما بعده هو أسوأ منه وأشد هولا وكل مخرج من هذا المكان يؤدي إلى أماكن أفظع. وإن حدث في هذه الغرفة شيء حسن فكل ما بعده هو أحسن منه. والخروج منها سيؤدي إلى أماكن أرحب أفقا. وألذ حياة وأكثر نعيما. ووليد يعرف جيدا ماذا سيحدث. فراح يدعو بالويل والثبور. وراحت كل عضلة في جسده ترتجف من الهول القادم. وللأسف لن يكون من الآن وصاعدا إلا الهول يتبعه هول أشد منه وأفظع. كان قلب وليد مليئا بالوحشة والخوف. يترقب القادم من الأحداث.
وبدأ وليد في سماع خطوات ثقيلة تقترب. تلك الخطوات التي سمعها كل من سبقه إلى الموت. إنه هو. إنه صاحب المطرقة. يمشي بخطوات لو كان وليد حيا لانخلع قلبه ومات من الرعب. لكن لا مجال للموت مرتين. وصار الرجل الفظيع ماثلا أمامه. كان طويلا غليظا شديدا. وجهه يبعث الرعب في قلوب الناظرين. وكأنه محترق. لم ير وليد قبلا منظرا أبشع ولا أشد هولا من هذا المنظر. زادت فرائصه ارتعادا وامتلأ قلبه وحشة ورعبا. وعرف أن كل من سيراهم سيكونون أبشع من هذا وأشد بطشا. التفت الرجل ونظر إلى وليد فجأة فقفز وليد رعبا من حدة نظره واصطدم بالسقف وسقط مستلقيا لدى رجلي الرجل دون حراك. كان الرجل يحمل مطرقة ضخمة لو ضربت بها الجبال لسقطت هباء. قدر وليد أنها كبيرة جدا على أن يضرب بها جبل. لكنه قدر أنها ليست كبيرة أبدا على نفسه المسكينة التي كانت تدعى للإيمان بالله وحده. لكنها كانت تعرض وتنسج الحجج الواهية نسجا لتبرير إلحادها. مع أنها لم تكن مطالبة بالكثير. كان الرجل يلهو بمطرقته كما يلهو الطفل بلعبته. وراح يزمجر بصوت لا تضاهيه أعتى المحركات:
-من ربك؟
وليد يعرف الإجابة السهلة. ربي الله. لكنه كلما جاء ليقولها يكاد لسانه يقول ما اعتاد قلبه على الاعتقاد به في حياته. فيكاد يقول: ليس لي رب. الصدفة أوجدتني. لكنه كان يخاف من قول ذلك. لأن المطرقة تلوح فوقه مثيرة ريحا كالإعصار. فيحاول جهده أن يقول ربي الله لينجو من المطرقة لكنه يجد لسانه موشكا على قول ليس لي رب. الصدفة أوجدتني. فيحجم في اللحظة المناسبة عن الكلام. وبعد محاولات عدة اهتدى وليد إلى إجابة يقدر على قولها بلسانه وقد ينجو بها من ضربة المطرقة أو على الأقل يخفف بها من الضربة لأنها مؤدبة قليلا بالنسبة للاعتراف بحقيقة عقيدته في الدنيا. فراح وليد يقول بصوت يائس مرتعب:
-هاه هاه لا أدري. هاه هاه لا أدري.
والغريب أن كل ميت شقي قد اهتدى إلى هته العبارة المؤدبة قبل وليد. لأنهم لا يمكنهم بأية حال من الأحوال أن يملكوا الجرأة للتصريح بما كانوا يعبدون من دون الله أمام ذلك الرجل المرعب. وفي نفس الوقت ألسنتهم لا تقدر أن تقول ربي الله لأنها ماتت على غير ذلك. وكان صاحب المطرقة قد سمع هذه الإجابة من كل الأشقياء السابقين. وقد سمعها للتو من وليد. فغضب غضبا جارفا -غضب يظهر جليا في حركة المطرقة- من هذا الشقي الذي رمى بنفسه في المهالك من أجل شيء بسيط بخل على نفسه به. وهو الايمان بالله. فالرجل يرى أنه لا يحق له أن يشفق على وليد وهو الذي لم يشفق على نفسه وأقحمها في معاداة الجبار. لذلك فقد غضب غضبا شديدا ولوح بالمطرقة عدة مرات وهو يقول: لا تدري؟ لا دريت ولا وفيت. ثم ضربه بها بأقصى قوته ليصيح وليد صيحة ظن أن الكون كله سمعها. يا له من ألم لا تقارن به كل آلام الدنيا. لو قدر وليد أن يطير من ألم الضربة لطار. ولكن هيهات. هو حبيس لهذا الجلاد. لبث وليد مدة طويلة وهو يصيح من ألم الضربة ربما سنين أو أشهر هو لم يقدر حساب الوقت الذي كان يمضي بطيئا جدا وكانت كل ثانية تمر ثقيلة وكأنها سنة. وبمجرد أن بدأ جسده يتعافى كرر الرجل عليه السؤال:
-ما دينك. وكالعادة بدل أن يقول : الإلحاد حاول قول الإسلام لكنه لم يستطع فأجاب:

هاه هاه لا أدري. هاه هاه لا أدري.
ويعيد الرجل ضربه وحين يتعافي يسأله عن نبيه ويتكرر الأمر.
وبقي وليد يتألم من الضربة الثالثة التي حطمت كل جسده. لم يكن يريد أن يتعافى ويذهب الألم. لأنه يعرف أنه ما إن يتعافى حتى يأتي عذاب أكبر منه. فرضي بذلك القيح والحمى والعظام المفتتة مخافة عذاب أشد نكاية.
وفعلا فقد صدق تخمين وليد فقد قال له الرجل:
-انظر. لو أنك آمنت وقلت تلك الكلمة انظر المسكن الذي كنت ستسكنه إلى الأبد.
وفتحت كوة من الغرفة التي كانت تطل على مكان أقل ما يقال عنه أنه أكثر حلم بديع يمكن أن يراه المرء. لقد رأى أنهارا تجري فوق الأرض دون مجرى ثم تهوي مياهها في شلالات بديعة. كانت بعض الأنهار تتكون من ماء صاف. وبعضها من لبن أبيض. وبعضها من النبيذ الأحمر. وبعضها من العسل. لم ير وليد أصفى ولا أروق من تلك الأنهار. ورأى القصور المعلقة المبنية بلبنات الذهب والأخرى المبنية بلبنات الفضة. ورأى قصورا أخرى على شكل قبة منحوتة من ماسة مجوفة. ورأى الانهار تجري تحت تلك القصور. ورأى وليد رجلا مثل فلقة القمر لم ير رجلا ولا امرأة في مثل جماله من قبل. رآه مستلقيا على أريكة على ضفة أحد الأنهار قد اصطف الآلاف من الخدم في صفين كل منهم يسوق مائدة ممتلئة بأنواع الطعام تختلف عن المائدة الأخرى. ورأى بنات متبرجات في أحسن تبرج جمالهن يخطف الألباب ولو لم يكن وليد ميتا لمات من رؤية جمالهن. كانت البنات جالسات على الضفة يتسامرن ويضحكن. ينتظرن أيهن يدعوهن الرجل إلى أريكته. لكنه مشغولا بشرب النبيذ الذي كان يبدو أنه قد أعطاه نشوة لا توصف. جعلته ينسى نحيلات الخواصر مليئات الأرداف واسعات العيون باسمات الوجوه اللواتي كن ينتظرن دعوته إلى أريكته. تفرس وليد في إحداهن التي يبدو أنها كانت تحكي في براءة لأترابها عن نوع من النبيذ شربته مع حبيبها –الذي هو الآن جالس على الأريكة- حيث راهنها حبيبها أيهما يعب أكثر من الكؤوس ولأن ذلك النبيذ كان نوعا قويا يقال أنه أهداه لحبيبها صديقه من درجة الشهداء فإنهما قد مرت سنين وهما مستلقيان متعانقان لم يقربا بعضهما. لتضحك ضحكة عذبة لا تضاهيها تغريدة البلبل. لأن تلك الضحكة كانت تجعل القلب يقفز في صدر السامع. ثم أضافت لأترابها: هل تتخيلون أنني من ذكرته بأن يلمسني. ورحن يضحكن من حكاية الفتاة التي بدت لهن طريفة جدا. لكن وليدا كان مركزا على الفتاة نفسها التي كان مستعدا ليقسم بأن عينيها أوسع من الفنجان الذي تحمله. ومع ذلك، فعندما تضحك تضيق عيناها وتصبحان مجرد قوسين يحملان تلك الرموش الطويلة مثل رموش البقرة. والعجيب أنها حين تضحك بسعادة بالغة توشك دمعتان صافيتان على الخروج ولكن بمجرد توقف صاحبتهما عن الضحك تعود الدمعتان من حيث أتيتا. وسرق نظر وليد ذلك النعيم على بشرتها الصافية. وكأنها ليست مكونة من خلايا بل من حجر كريم سائل. وأصغر قذاة كانت ستظهر جلية لو سقطت على وجهها. وفي الماضي، حين كان حيا، لطالما آمن وليد أن للجمال كبرياء. وكان أنف تلك الفتاة علما لكبريائها. بدقته واستقامته مثل المسطرة ثم ينتهي بمنخرين واسعين. اتساعهما يدل على عشق صاحبتيهما لاستنشاق الهواء النقي. أما الشفتان المكتنزتان باللحم. النديتان الحمراوان. المتميزتان بلونهما عن باقي بشرة الحسناء. فقد كانتا تأخذان عدة أشكال أثناء أحدوثة واحدة تقصها الفتاة على أترابها. يصغران عندما تصف شيئا صغيرا أو جميلا. ويتباعدان حين تصف شيئا كبيرا أو شيئا تعتبره الفتاة قاسيا. ويأخذان شكل قلب حين تصمت لتأخذ وقتا مستقطعا. أو تكون مشدوهة في الإستماع لحديث يستدعي منها تركيزا أكثر. وفي بعض الأحيان، حين تتحدث عن شيء لم يحظ بكامل رضاها تصبح شفتاها دقيقتين أكثر وتأخذان معا شكل دائرة مستطيلة لتبرز بينهما أسنانها البيضاء والباردة كحبات البرد وقد أطبق الصف الأعلى على الصف الأسفل في انتظام سالب للعقول مثل انتظام حبات الرمان. أما إن كانت في حالة صمت تستمع لحديث أثار فيها بعض الحزن –وهذه مبالغة من الحسناء وهي عادة كل الحسان في تضخيم الأمور لأنه لا يوجد حزن في الجنة- فإن شفتها السفلى تضغط بعنف على شفتها العليا حتى إنها تزيحها من أحد الجانبين إلى أعلى. من يراها لأول وهلة يظن أنها تتحدث بشفتيها لا بلسانها. ولتركيزها الشديد على حركة الشفتين فربما يستطيع ذكي ما أن يفهم حديثها دون أن يسمع كلامها بل بمجرد رؤية شفتيها. ولا يوجد شيء بعد شفتيها أكثر تحولا حين تتحدث من حاجبيها الدقيقين. فإنها تستعين بهما كثيرا في التعبير عن شعورها المتنوع والمتقلب عدة

مرات تجاه الشيء الواحد في الوقت الواحد. لكن رغم ذلك التبدل فيهما إلا أنهما يبقيان في تناسق عجيب مع حركة عينيها وشكلهما. أما النقرتان فكانتا لا تظهران على خديها إلا عندما تبتسم وأحيانا يظهران للحظة ويختفيان وذلك حين تهم بالشروع في رواية أحد أحاديثها الشيقة. أما شعرها فقد كان كله تقريبا مطيعا ومهذبا معها. إلا بعض الخصلات التي كانت تزعجها أحيانا خاصة عندما تكون مشتغلة بحديث يتطلب الكثير من التركيز فتحاول كبح جماح الخصلات بأسرها خلف أذنيها بحركة من أصابعها الرشيقة. وكانت تلك الخصلات الجامحة أحيانا تزعجها على غير العادة حتى إن مجرى حديث الحسناء قد يتأثر بذلك ويصبح كلامها مشحونا وأكثر عصبية وعنفوانا. ولكن الحسناء الذكية تتفطن أحيانا وتكتشف سبب غضبها المفاجئ فتعيد الشعرات المتمردة إلى مربطها وتهدئ من حدة حديثها بل إنها قد تبدل موقفها القاسي من موضوع حديثها فقد يحظى في الأخير برضاها. أو على الأقل بالاعتراف بأنه لم يكن بذلك السوء. مما كان يجعل حبيبها في الكثير من الأحيان عندما يلاحظ أن فتاته قد استبد بها الغضب والنرفزة دون أن يجد سببا مقنعا لذلك. كان يجعله -بعد أن يستمتع كفاية بمنظر فتاته الثائرة التي يزيدها الغضب روعة وجمالا- يتفقد تلك الخصلات بالذات التي يجدها كما توقع قد فرت من مكانها وبدأت في معاكسة وجنتي فتاته. فيقوم بحنان كبير بإزاحة تلك الخصلات الشريرة من على خديها وحبسها ثانية خلف أذنيها. ويقبل خدها فيزول عنها الغضب وتبتسم وتقول في دلال: حبيبي. أرأيت ماذا فعلت خصلات شعري التي حدثتك عنها بمزاجي. دائما يحدث هذا.

ثم تضيف وهي تلهو بتفاحة قد قضمت منها كقضمة الطائر: أرجوك قصها أريد أن أتخلص منها.

وقص حبيبها تلك الشعرات لكن شعرات أخرى كانت تقوم بمضايقتها مثل السابقة. وهكذا كانت كلما قصت شعرات قامت التي تليها بنفس الجريمة. حتى قام حبيبها بجمع شعرها إلى الخلف بفراشة ذهبية مرصعة بالجواهر وفوقها وردة حمراء أسعدت الفتاة كثيرا. وحين كان وليد يشاهد من الكوة كانت الفتاة تعرض بسعادة على أترابها الفراشة التي ستجمع شعرها بها عندما يدعوها حبيبها الجالس على الأريكة الآن. والذي كان لا يزال يستمتع بشرب النبيذ. فكان يشرب ثم يغمض عينيه ويبتسم ابتسامة منتشية توحي بأنه في قمة اللذة. وكانت أطرافه كلها قد استرخت وتمددت ولم يكن يبدو عليه أي مظهر من مظاهر الثمالة كالقيء والهذيان والعربدة بل كان في أجمل منظر وأنظف حال. حتى إن الفتاة كانت كل لحظة تلتفت إليه وترمقه بنظرة ملؤها الشوق والإعجاب ثم تعود لترتشف رشفة من فنجان النبيذ الذي بيدها أو تأخذ لقمة من الطعام الذي كان في موائد منضودة أمام تجمعات البنات. ثم أمر حبيبها بعزف الموسيقى التي توقف كل شعرة في جسد المستمع وتجعله يقفز من الفرح ويحلق في الجو طربا. وفعلا قامت الفتاة مسرعة وهي تقول: الموسيقى الموسيقى.

وقامت ترقص مع الفتيات

فتح وليد عينيه ببطء، وهذه المرة وجد نفسه في باحة المكتبة التي لجأ إليها بعدما هرب من الباعة. أما اليد فلم تكن يد الحسناء، بل كانت يد شيخ أبيض اللحية يرتدي عباءة إلى أنصاف ساقيه، وقد لبس فوق العباءة معطفا خشنا، ووضع طاقية على رأسه. بدا مثل إمام مسجد. فصرخ وليد:

أنا لم أسرق المعطف، أقسم لك.

لكن الشيخ لم يهتم بالاستماع إلى وليد، بل نادى أحد المارة، والتمس منه أن يعاونه في حمل وليد، وأنهضاه والشيخ يقول:

ما الذي حملك على الاستلقاء هنا في جو كهذا، أنت مبلل كليا.

ثم قاده الشيخ إلى باب المسجد، لكن وليدا قاوم بما بقي له من قوة، ورفض الدخول إلى المسجد، فسأله الشيخ:

ما بك يا بني؟
فقال وليد بصوت ضعيف:
أنت لا تعرفني أيها الشيخ، ليس أمثالي من يدخلون مسجدا، أمثالي لا يعمرون إلا الحانات والأماكن الموبوءة. أنا لا أستحق الدخول إلى المسجد.
فاختبر الشيخ وليدا بأنفه، فربما يكون ثملا، لكن اختبار الكحول كان سلبيا، فواصل جره إلى المسجد غير عابئ باعتراضاته، وأدخل وليدا إلى المسجد الذي كان دافئا جدا، وما إن استلقى وليد حتى أحس بشعور رائع، أحس بالدماء تسري في عروقه بعدما كان يشعر أنها تجمدت.
لقد أسنده الشيخ في مؤخر المسجد بعيدا عن المصلين، وتركه هناك، ولم تنقضي برهة حتى أصبح وليد قادرا على الحركة والوقوف بل حتى على المشي، ثم أصبح قادرا على التفكير –والتفكير هو دائما الوظيفة الأخيرة التي تشتغل عند وليد بعد كل الوظائف الأخرى- فنزع معطفه وكنزته ووضعهما على المدفأة، ونزع البنطال ووضعه أيضا عليها، ليبقى في التبان، وتغطى بأحد أفرشة المسجد مخرجا رأسه فقط ليراقب المصلين وهم يقرأون القرآن ويذكرون الله ويدعونه كل على حدة، حتى غفا غفوة رائعة ولم توقظه إلا صلاة المغرب، وبعد الصلاة جاءه إمام المسجد –الذي لم يكن الشيخ الذي أدخل وليد إلى المسجد، فذلك الشيخ كان قيم المسجد، ينظفه ويعتني به- وسلم على وليد، فحاول وليد النهوض للتسليم على الإمام، لكن بمجرد رفع الغطاء اكتشف وليد أنه في تبان وقميص داخلي، فاستحى من الإمام وتغطى، فسأله الإمام:
لماذا لم تصل المغرب يا بني؟
فقال وليد:
أنا لا أصلي أبدا، أنا مجرد قذارة يا حضرة الإمام، فلا ينبغي أن أصلي، بل أنا أثمل وأعربد وأدخن فقط.
فقال الإمام:
لكن الصلاة واجبة.
فقال وليد:
وكيف تعبأ القذارة بالواجب يا حضرة الإمام؟ لقد قلت لك أنني مجرد قذارة.
فقال الإمام:
أنت تهين نفسك كثيرا يا بني، وهل تظن أننا –نحن الذين نصلي بالناس- أطهار منزهون عن اقتراف الذنوب؟ نحن أيضا نذنب ونرتكب المعاصي، لكننا نسأل الله أن يغفرها لنا بعفوه وكرمه. هل تعلم أن الرسول (ص) أخبر أنه لو لم نكن –نحن البشر- نذنب، لجاء بقوم آخرين يذنبون من أجل أن يغفر لهم؟ الله يكره أن يعصى، لكنه لا يوجد صوت أحب إليه من صوت عاص يبكي ويستغفر. هل تعلم أن الله يبسط يديه بالليل ينتظر توبة مسيء النهار، ويبسط يديه بالنهار ينتظر توبة مسيء الليل؟ هل تعلم أن الله –عز وجل- قال مخاطبا عباده المذنبين: (لو تقربت مني شبرا لتقربت ذراعا، ولو تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا، ولو جئتني تمشي لجئتك هرولة). هل تعلم أن آدم (ص) بعد أكله من الشجرة وتوبته، أصبح أكرم عند الله منه قبل أن يأكل من الشجرة. الله يغفر الذنوب جميعا إن تاب الإنسان منها قبل موته، أما إن مات على هذه الذنوب دون توبة، فيمكن أن يغفرها جميعا بعفوه وكرمه، إلا الشرك، فإن الله لا يغفر لمن يموت مشركا، بل حرم عليه الجنة، وليس له في الآخرة إلا النار. الشرك الذي هو متنوع جدا، كأن تشرك أحدا بالعبادة مع الله، أو أن تطلب من أحد شيئا لا يقدر عليه إلا الله، أو أن تتخذ أحدا بينك وبين الله واسطة ليشفع لك عند الله ولو كان هذا الأحد محمدا (ص) أو المسيح. أو كأن تسب الله وتصفه بصفات بشرية كأن تدعي أن له ابنا. فالبشر يغضبون إن وصفوا بصفات الحيوان الذي هو مخلوق مثلهم ويتميزون عنه فقط بالعقل والتكليف. فكيف لا يغضب الله إن وصف بصفات البشر الذين خلقهم. ومن الشرك أيضا القسم بغير الله-إلا الجاهل-، والذلة لغير الله –إلا المكره- كالسجود والانحناء والقيام بجنب شخص قاعد مهما كان هذا الشخص، ومن الشرك الأكبر الحكم بغير قوانين الله التي سنها في القرآن وسنة محمد (ص). والإلحاد هو قمة الشرك، مثله مثل عبادة الكواكب والأصنام والحيوانات والظواهر الطبيعية، فالله الذي خلقها أحق بالعبادة منها. كما أن السحر هو شرك أكبر سواء للساحر أو المسحور له، لأنهم يعبدون الجن التي تكافئهم على عبادتهم لها بعمل السحر الذي غالبا يؤذي الناس ويفرق بينهم، وبالتالي فالسحر يجمع بين الكفر وأذية

الناس، فهو من أعظم الذنوب، أما ألعاب الخفة التي تعتمد على الحيل والمهارات ولا تعتمد على الجن فهي ليست سحرا، هذه الذنوب هي التي لا يغفرها الله أبدا إن مات العبد دون توبة منها، ومصيره أنه يحترق في النار إلى الأبد. أما الذنوب الأخرى التي يموت العبد عليها فأمرها إلى الله، إن شاء عذبه حتى يطهره منها ثم يدخله الجنة بعد ذلك، وإن شاء غفرها له تكرما من عنده ويدخله الجنة مباشرة.
ألم تعلم أن الله عندما يسلم أحد عباده الكفار أو يتوب أحد عباده المسلمين، ينادي منادي يبشر أهل السماء: (ألا إن فلانا قد تصالح مع ربه)
أتعرف قصة تلك المومس التي مرت بكلب عطشان فسقته ماء فغفر الله لها بصنيعها. وذلك الرجل الذي مر في الطريق بغصن من الشوك فأزاحه عن الطريق كي لا يؤذي المارة فغفر الله له كل ذنوبه.
أتعلم قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين رجلا، وأراد أن يتوب، فذهب إلى عابد وسأله: هل يمكن أن يتوب الله علي وقد قتلت تسعة وتسعين رجلا. فقال له العابد الجاهل: لا. فقتله وأكمل به المائة. ثم سأل عالما فأجابه العالم بأن الله يغفر الذنوب جميعا إن تاب الإنسان منها، فتاب ذلك الرجل وارتحل إلى مدينة أهلها مؤمنون ليعبد الله معهم، فمات في وسط الطريق، فتخاصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، هؤلاء يقولون مات قبل أن يبدأ في عبادة الله، والآخرون يقولون أنه مات تائبا، فحكم الله بينهم أن يقيسوا المسافة بين المدينتين، المدينة التي قتل فيها مائة ومدينة القوم الصالحين، فقرب الله جثة العبد من مدينة الصالحين، فلما قاست الملائكة المسافة وجدته أقرب إلى مدينة الصالحين بشبر، فأخذته ملائكة الرحمة.
أرأيت كيف يحب الله توبة عباده، وكيف يحب نجاتهم من العذاب، أتعلم أن الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل يمشي في صحراء قاحلة، فهربت منه دابته وعليها طعامه وشرابه، فبحث عنها ولم يجدها، فاستلقى عل الرمل ينتظر الموت، وبينما هو بين النائم واليقظان إذ به يمس حبلا بيده، فاستيقظ فإذا بدابته قد عادت إليه، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، لكنه أخطأ من شدة الفرح، فالله أشد فرحا برجوع عبده إليه، من فرح هذا برجوع راحلته، رغم أن الله هو الغني ونحن الفقراء.
وبتوبتنا إنما ننفع أنفسنا فقط، وبغينا إنما نضر أنفسنا فقط.
فقال وليد:
إن الخطيئة ممزوجة بلحمي ودمي يا سيدي.
فقال الإمام:
لا توجد خطيئة أولى، كل إنسان يحمل وزر نفسه، إن الإنسان يولد نقيا كالصفحة البيضاء، خاليا من الخطايا، مؤمنا بالله الواحد، مسلما، لكن المجتمع هو الذي يفسد طهارته، فيحمل الطفل عقائد أبويه ورذائل مجتمعه. هل تعلم أننا في عقيدتنا الإسلامية نؤمن بأن أطفال الكفار والمشركين –الذين يموتون قبل البلوغ- سيدخلون الجنة، لأنهم ماتوا طاهرين قبل اعتناقهم عقائد آبائهم ورذائل مجتمعاتهم، كما أن مجانين الكفار الذين ولدوا مجانين أو جنوا قبل البلوغ. سيدخلون أيضا الجنة إن شاء الله. إن كل إنسان يولد مسلما. وأبواه ومجتمعه هم من يربونه على الديانات الأخرى، لكن بمجرد إسلامه سيصبح طاهرا مثل المولود. وأنت أيضا يا بني إن تبت إلى الله الآن فسيغفر لك.
فقال وليد:
سأتوب يوما ما يا حضرة الإمام، أقسم لك، وسأصلي. أما أنت، فأنا أشهد أنك محضتني النصيحة، وقمت بواجب التبليغ نحوي.
فغادر الإمام وهو يقول:
متى يا بني سيحل هذا الـ (يوما ما) ؟ هل أنت ضامن أنك ستعيش إلى الغد؟ اللهم فاشهد أنني قد بلغت، اللهم فاشهد أنني قد بلغت.
وبمجرد أن رحل الإمام، كان وليد عازما على التوبة يوما ما، ثم غفا ثانية، ولم يوقظه إلا صوت قيم المسجد العجوز وهو يقول له:
استيقظ يا بني، فقد صلينا العشاء، وقد خرج كل المصلين، ولم يبق في المسجد أحد سواك.
فقال وليد:
لا بأس يا عماه، دعني أبيت في المسجد وأغلق علي.
فقال القيم متأسفا:

لا أستطيع يا بني، أنت تعلم القوانين، يجب أن يغلق المسجد ليلا، إنها قوانين حكومتنا الرشيدة، في الليل يغلقون المساجد، بينما يبقون الحانات مفتوحة، لأن رواد المساجد خطرون –كما يزعمون- أما رواد الحانات فلا يصدر منهم أي خطر. أسف يا بني، لو تركتك تبيت في المسجد فسأفقد وظيفتي، وسيفقد الإمام وظيفته.

فقال وليد:

لكنني عابر سبيل، وليس لي مأوى.

فقال القيم:

ألا تستطيع المبيت في نزل؟

فقال وليد:

لقد سرقت محفظتي.

فقرع القيم جبينه بكفه تحسرا وقال:

لو كان لدي مال لأعطيتك ما يكفيك للمبيت في نزل وللعودة إلى الديار.

ثم فكر القيم وهو مطرق حائرا وكأنه يختار في ذهنه بين خيارين متساويي الفرص، لكن يبدو أنه حسم أمره فعثر على الخيار الأفضل فقال بيقين وعزم:

هيا لنذهب إلى بيتي، وغدا سيجعل الله لك مخرجا إن شاء الله.

فقال وليد:

شكرا لك يا سيدي، شكرا لك.

قام وليد ولبس ثيابه التي كانت قد جفت تماما وخرج من المسجد، وبقي عند الباب ينتظر القيم الذي كان يغلق نوافذ المسجد ويطفئ الأنوار. وفجأة، لمح وليد –حين كان ينتظر القيم- فتاة مراهقة تحمل رضيعا. كان لباسها نظيفا لكنه لم يكن في نفس الوقت أنيقا. كانت ترتدي معطفا رجاليا قديما فوق أسمالها البالية. لقد كان خيارها في ارتداء اللباس –هذا إن كانت تملك الكثير من الخيارات في خزانتها- يدل على أنها من تلك الطبقة التي تلبس من أجل غاية ستر الجسم وحمايته من الحر أو القر، وكل غاية أخرى هي ضرب من الترف.

وكانت الفتاة المراهقة ذات جسم نحيف، وملامح ملائكية، وكانت مع هذا جميلة كفلقة القمر، رغم ذلك الشحوب الذي كان يمتص بهاء وجهها فيجعلها تبدو وكأن هموم الدنيا كلها تجثم على كاهلها. وكانت الفتاة واقفة قرب باب المسجد تتسول من المصلين، دون أن تتفوه بكلمة، وحين خرج آخر المصلين جمعت القطع النقدية التي حصلت عليها وقسمتها إلى مجموعتين، مجموعة خبأتها في جيبها، ومجموعة وهبتها لرجل كلن مستلقيا بالقرب من المسجد، لقد كان رجلا معاقا ذهنيا وحركيا، كان لا يستطيع الحركة أو الكلام أو التسول لذلك فلم يحصل على شيء من صدقات المصلين، وربما لم يكن يريد ذلك أصلا، فماذا يفعل أمثاله بالنقود، لقد كان عاجزا حتى عن تناول طعامه بنفسه. لكن الفتاة المتسولة أعطته المال وهي تخاطبه دون أن تحصل منه على رد، لكنها كانت تتكلم وحسب:

خذ هذا وهذا، أظنها كافية، حسنا، سأزيدك هذا.

وأخرجت من جيبها بعض القطع. فتأثر وليد وكاد يبكي، فقد كان يظن للوهلة الأولى أنها من أولئك المتسولين الذين يستأجرون الرضع من العائلات الفقيرة ليتسولوا بهم من أجل كسب المزيد من التعاطف وبالتالي المزيد من المال. لكن الآن تبين له خطؤه مما جعله يقترب دون أن يشعر من الفتاة ليسألها عن قصتها بلهجة توحي بأنه يريد المساعدة. لكنه ما إن اقترب منها حتى ارتعدت كل أطرافها وكأنها رأت شبحا، وقالت وهي تعرض عن وليد بوجهها إعراض الخائف، وكأنها تحمي وجهها من شعلة من النار تتقد:

أرجوك ارحل يا سيدي، ارحل وحسب، أرجوك.

فقال وليد:

لا تخافي، فليس هنالك من داع للخوف، أنا أريد المساعدة فقط. أليس لديك مكان تأوين إليه؟

فوثبت كالذي مسه طائف من الجن، وأسرعت في خطاها مبتعدة عن وليد الذي تبعها وهو يقول:

أنا أريد المساعدة فقط، اسمعيني يا آنسة، إن لم يكن لديك مأوى فلا بأس ففي هذا المسجد يوجد قيم طيب، وقد عرض علي المبيت في بيته، ما رأيك أن نصطحبك معنا؟ هل تظنين أنه سيرفض؟ أبدا، إنه لن يرفض، إنه رجل مؤمن، إنه يحب المساعدة. ولو عرف أنك بدون مأوى ورأى الطفل لما تردد لحظة في إيوائك. هيا، رافقيني إلى بيته، وفي الغد سنرى كيف نحل مشكلتك نهائيا.
لكن الفتاة ظلت تردد:
أرجوك ارحل يا سيدي، ارحل وحسب، لا أريد المساعدة. أنا...لدي مأوى، وهو مأوى مريح أيضا، كما أن لدي أخا قويا جدا، وسيقلني بعد قليل، وأنا أخاف أن تحدث لك مشاكل إن رآك هنا. أرجوك ارحل، ارحل.
فقال وليد:
أنا أشك في أن لديك مأوى أو أن لديك أخا، أنت حتما تكذبين.
لكن الفتاة كانت قد ابتعدت عنه، وكان القيم قد خرج من المسجد، فلم يجد وليد بدا من أن يرجع إلى القيم بسرعة، مخافة أن يظن أن وليدا قد رحل، وذهب وليد مع القيم إلى مسكنه.
دخل وليد إلى غرفة الضيافة، ولم تكن بالغرفة الفخمة، بل كانت غرفة متواضعة جدا وضيقة، وكانت الرطوبة قد جردت الجدران من طلائها، خاصة في النصف الأسفل من الجدران. أما سقفها فقد كان مزينا بالجبس المزخرف الذي سقطت أحد حباته، وكان الباب الخشبي السميك قد أثرت فيه الرطوبة والقدم حتى صار كالعجينة، وخمن وليد أنه لو قام أحد بتحطيم هذا الباب فلن يكسر، بل سيتفتت. وكانت الغرفة مفروشة بزربية عتيقة منسوجة يدويا، ووضعت على جوانبها أفرشة نسجت بالألبسة العتيقة. إذ تعمد بعض العائلات الفقيرة إلى جمع الألبسة العتيقة وتمزيقها إلى شرائط رقيقة ونسجها. وكانت تتوسط الغرفة طاولة من خشب الصنوبر السميك. رغم تلك الحالة المحزنة للغرفة، لكنها كانت تتوفر على تلفاز، ومدفأة تشتغل على الغاز.
استلقى وليد وهو سعيد بالدفء الذي كان يملأ الغرفة. لكن أمعاء بطنه كانت تتلوى مثل الأفعى، وتعوي مثل ذئب جائع، وكان عواؤها يزداد كلما هبت نسمة تحمل رائحة الحريرة التي خمن وليد –بتحمس كبير- أنها منبعثة من مطبخ القيم، وليس من مطبخ أحد الجيران. ولم تمر دقائق حتى تبين لوليد صدق تخمينه، حين جاءت زوجة القيم وهي تحمل الوليمة، التي كانت عبارة عن حساء الحريرة وطبق من البطاطا المقلية فوقها قطعة صغيرة من لحم الدجاج، وطبق من السلطة، وعدة حبات من البرتقال. ألقى وليد التحية على زوجة القيم التي رحبت به ببشاشة كبيرة، ثم دخل زوجها ليشارك وليدا الطعام رمزيا فقط لكي لا يشعر وليد بالحرج، وأكمل وليد الطعام بشراهة كبيرة، حتى إنه مسح الأطباق. وعندما حضرت الزوجة من أجل أخذ الأطباق لغسلها، لاحظت أنها ليست في حاجة للغسل. فقالت لوليد مازحة:
ما به الطعام؟ هل وجدت حشرة في الطبق؟
فرد وليد مداعبا:
لقد جئت إلى العاصمة لأجري فحصا عند طبيب ماهر ذكر لي، فقد صرت -منذ سنة تقريبا- أعاني نقصا في الشهية.
فقال القيم:
أرجوك يا بني، عندما يداويك الطبيب وتعود لك شهيتك، فلا ترجع إلى بيتي، لأننا راحلون من هنا قريبا.
فأطلق وليد قهقهة هوجاء، ثم قالت الزوجة:
سأحضر الشاي.
فقال وليد:
أرجوك يا عمتي أن تحظري لي فنجانا من القهوة، لأن رأسي يقرع مثل الطبل.
وسرعان ما أحضرت الزوجة الشاي ووضعته على الطاولة، وقدمت لوليد فنجان القهوة. ولما كان وليد قد جف وارتاح وشبع وشرب القهوة، راح يضحك الزوجين العجوزين، ويروي لهم نكتا تدور في غالب الأحيان حوله، فقد كان وليد بارعا جدا في السخرية من نفسه، حتى لو لم يتكلف ذلك. وحكى لهما قصته منذ وصوله إلى العاصمة حتى التقائه بالقيم. لكنه استطاع أن يحذف –بدهاء غير معهود عن وليد- حادثة المعطف التي وقعت له في شارع الأقمشة، كي لا يثير الريبة في نفسي الزوجين. وسمر معهما إلى وقت

متأخر. ثم قام وليد بصورة مفاجأة وهو يشكرهما على ضيافتهما ويودعهما، فتعجب الزوجان من ذلك.
وسأله القيم:
ماذا؟ ألن تبيت هنا؟
فقال وليد بتأسف وهو يسوي ملابسه:
لقد كنت أظن حين دعوتني أنني سأجد غرفة الضيافة ممتلئة بأبناء مفتولي العضلات، لكنني وجدتكما وحيدين، وأنا أفضل أن أبيت في العراء وتبيتا مطمئنين، على أن أبيت في بيتكما المحترم وتبيتا تتوجسان مني. فقالت الزوجة:
اسمعوا المجنون ماذا يقول. ولماذا نتوجس منك يا بني؟ نحن متأكدان أنك فتى طيب صالح.
فقال وليد غاضبا:
أنتما طيبان جدا وتثقان بالناس بسهولة. ماذا لو كنت قاتلا متسلسلا أو لصا؟ ما الذي يجعلكما متأكدين جدا من العكس؟ ماذا لو خنقتكما بوسادة ثم أحرقت البيت؟ هل تظنان أن الشرطة البدينة –مثلي- ستعرف أنكما متما جراء جريمة؟ أبدا، سيحضرون، ويحرقون بعض السجائر في مسرح الجريمة، ثم يتحركون ذهابا وإيابا في المكان وهم يستعرضون قوامهم البدين، ومع كل خطوة لهم يفسدون دليلا آخر، ثم يملأون المحضر بأنكما متما في حادث حريق.
فقالت الزوجة بشفقة:
بني، لماذا تقول عن نفسك كلاما كهذا، أنت بريء كالحمل.
فقال وليد بغضب أشد:
كلا، كلا، لست بريئا، أنا لست بريئا.
وتراءى لوليد حادثة المعطف التي وقعت له، فأحس بأنه لص متوحش وخطير جدا، وأنه يجب أن يحمي العجوزين الطيبين من شره، فلص مثله لا ينبغي أبدا أن يبيت مع عجوزين ضعيفين طيبين. كما أن الفكرة التي حضرته آنفا أثناء رؤيته للباب وتخمينه أنه لو حطم لن يتكسر بل سيتفتت، جعلته يتأكد من سوء نواياه تجاه العجوزين الطيبين، ويوقن بأنه يريد بهما شرا لا محالة. لذلك قال –لكن بلهجة معتدلة هذه المرة-:
أنا ذاهب، وأريد أن أحذركما بأنه على الإنسان ألا يكون سريع الوثوق بالناس، خاصة وأنكما وحيدان.
فقال القيم:
لو اجتمع الناس على أن يضروك بشيء لم يقدره الله عليك لما استطاعوا، ولو أنهم اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله عليك لما استطاعوا. ومن يتوكل على الله فإن الله نعم الوكيل. نحن ليس لدينا أبناء، لكننا نفكر أن نكفل يتيما، وحبذا لو يكون من أولئك الأطفال المتشردين، فمحمد (ص) قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) وأشار القيم إلى أصبعيه السبابة والوسطى. هنا تذكر وليد شيئا، فقرر أن ينسى للحظة أمر العجوزين الطيبين الذين يجب حمايتهما، وراح يقول للقيم:
هل تريد أن تكفل يتيما؟ أنا أعرف أسرة بحاجة ماسة إلى مأوى، وإلى أبوين طيبين يكفلانها، فقالت العجوز:
ماذا؟ أسرة كاملة؟ لا أظن أن بيتنا يتسع لذلك.
فقال وليد:
أنا أقصد فتاة ورضيعها، إنها فتاة طيبة وبريئة وغير قادرة على إيذاء نملة، وهي تتسكع في شوارع العاصمة، لقد رأيتها اليوم تتسول أمام المسجد، لو أنكما رأيتماها لأعجبتكما، ولسارعتما إلى إيوائها.
فقالت الزوجة:
يا إلهي، إنها من تلك الشقيات المسكينات. أرجوك يا زوجي أن تحضرها إلى البيت لنتعرف عليها، فقد نكفلها إن وجدنا أنها فتاة طيبة.
فقال الزوج:
لقد فكرت في ذلك من قبل عندما كنت أراها تتسول عند باب المسجد، لكنها كانت تتحاشاني وتتحاشى الجميع. لقد اقتربت منها ذات يوم لأعرض عليها المساعدة فهربت ولم أرها لمدة أسبوع، فظننت أنها من المتسولين الذين يحترفون التسول فيتسولون بالأطفال، وظننت أنها هربت خوفا من أن أبلغ عنها الشرطة.
فقال وليد:

المتسول المحترف لا يتصدق، فقد رأيتها تهب نصف الصدقات لرجل مشلول.
فقالت الزوجة بتأسف:
يا إلهي، يا للفتاة المسكينة.
وفي هذه اللحظة تذكر وليد أمر العجوزين الطيبين الضعيفين الواقعين في ورطة، والذين هما الآن تحت رحمة ذئب مفترس لا يرحم، يجب حمايتهما منه بكل السبل. فقال وليد بلهجة حازمة:
يجب أن أذهب، وأنا أشكركما على حسن الضيافة.
فقال الزوج:
أما زلت تريد الذهاب؟ ألم نتفق على أنك فتى طيب صالح، وأنه يمكنك المبيت هنا، البرد قارس في الخارج، وأظنها ستمطر ثانية، فإلى أين تذهب؟
فقال وليد:
آسف، يجب أن أذهب.
فقالت الزوجة:
حسنا، ما دمت مصرا على أننا ساذجان وسريعا لوثوق بالآخرين –ونحن نعترف بذلك، ونعدك أننا لن نكرر هته الغلطة- فما رأيك أن تبيت هنا ونغلق عليك الباب بالمفتاح، مخافة أن تخنقنا بحبل وتحرقنا.
قالت الزوجة الجملة الأخيرة بتهكم، فقال وليد:
بل قلت أنني قد أخنقكما بوسادة ولم أقل بحبل.
فقالت الزوجة:
لا بأس، لا بأس، بوسادة وليس بحبل، لقد أخطأت.
ثم وجهت حديثها إلى زوجها:
يا له من مسكين، يبدو أن يومه كان حافلا، فأعصابه تعبانة، وفكره مشوش.
فقال الزوج مخاطبا وليدا لكنه كان ينظر أحيانا إلى زوجته التي كانت تهز رأسها في إشارة منها إلى أنه محق:
ما رأيك في الحل الذي تقدمت به زوجتي؟ وهو أن تبيت هنا ونغلق عليك الباب بالمفتاح مخافة أن تخنقنا بوسادة –وفخم الزوج لهجته مركزا على كلمة وسادة- وتحرقنا، وغدا إن شاء الله، سننهض باكرا، وستعد لك زوجتي الفطير، لنفطر معا، ثم سأستدين لك مالا تذهب به إلى ديارك، أليس حلا مرضيا للجميع؟
فقال وليد غاضبا:
خطأ...هذا خطأ. ألا تعلم انه ما أسهل على المرء أن يكسر قفلا من الداخل، حتى لو لم يكن مدربا؟ هذا خطأ فضيع، أجل، خطأ فضيع.
ثم خرج وليد مسرعا دون أن يترك لهم فرصة للكلام، وحين أصبح في الشارع، سار لا يلوي على شيء، ولا يلتفت إلى الوراء، وتوغل في الأزقة محاولا تضليل نفسه مخافة أن يستطيع تذكر مسكن الزوجين العجوزين، فيعود إليهما في وقت متأخر ويخنقهما ويحرق البيت. أما العجوز، فقد خرج يجري مستعملا كل ما أبقت له الشيخوخة من قوة محاولا اللحاق بوليد، وهو يحمل فراشا وغطاء، لكنه سار في عدة أزقة دون أن يجد لوليد أثرا.
راح وليد يسير في الأزقة حتى دخل في شارع رئيسي، وراح يتسكع من دون وجهة محدودة، وشعر حينها بالبرد الذي أعاد لوليد رشده فقال مقرعا نفسه: (متى تتعلم يا وليد، أيها الحيوان، أن الجو عندما يكون دافئا في الداخل فذلك لا يعني بالضرورة أنه كذلك في الخارج؟ ثم ما الذي حملك على الشك في نفسك والخوف على العجوزين الطيبين؟ لا أدري من أين جاءتك تلك الفكرة الحمقاء. أريد أن تجيبني أيها الحيوان، كيف لرجل عاش طيلة حياته طيبا نزيها يساعد الآخرين ولا يفكر أبدا في إيذائهم، كيف يستيقظ هذا الرجل -بعد هذا العمر الحافل بالطيبة- في منتصف الليل في بيت عجوزين طيبين ثم يقرر أن يخنقهما ويحرق بيتهما؟ كيف يؤذي الشخصين الذين أحسنا إليه؟ لا أدري من أين تسقط عليك هذه الأفكار اللامعة أيها الحيوان. ثم استدرك: كلا، كلا، لست حيوانا، فالحيوان يحسن بعض الأمور، فقد سمعت أن اليرقة تنسج حريرا ممتازا، والقندس يبني سدودا رائعة. أما أنت فلا تحسن شيئا من هذا.

وراح وليد يقرع نفسه، ويجلد ذاته، وكلما زاد البرد حدة، جلد ذاته سوطا. بل إن البرد بعد ذلك لم يعد الوحيد، فقد بدأ وليد يفكر جديا في أبناء الليل. تلك القذارة التي تلفظها الحانات، أو تلك التي تجذبها الطرائد. وقد كانت الشوارع تغص بالنوعين. فقد كان وليد يمر مسرعا على جماعات من الشبان الذين كانوا يرمقونه بحدة، أغلب الظن أنهم ممن يسلبون أموال الناس. ولم يكن وليد خائفا على أمواله، بل على حياته. فمن عادة هؤلاء إن لم يجدوا لدى فريستهم مالا أن يطعنوا فريستهم عقابا لها على إفلاسها. فكان يسرع الخطى كلما مر على إحدى تلك الجماعات، فهو لا يريد أن ينزف حتى الموت. ولم ينسه خوفه أن ينعت نفسه بأقذع الصفات لأنه نسي أن يحمل معه سكينه. لو كان يحمل معه سكينا لما خاف شيئا أبدا، فلا يفل الحديد إلا الحديد. فقطاع الطرق هؤلاء عندما يخرج لهم أحد فرائسهم سكينا يصيحون مثل الفتيات: (لقد حدث سوء تفاهم) ثم يكملون طريقهم. أو يقول أحدهم للفريسة المسلحة: (لا تعبأ بتصرف صديقنا حين هددك بسكين، فصديقنا مخدر كليا بتلك المهلوسات، وهو لا يعقل ما يقول).

وصدق ظن وليد، فقد سأله شاب من إحدى المجموعات:

يا فتى، هل لديك سيجارة؟

فعرف وليد أنه يحاول أن يعجم عوده، ويختبر شجاعته من صوته، ويحاول أيضا معرفة إن كان عاصميا أو غريبا من لهجته، فأجاب وليد بتهكم مصطنع وبلهجة عاصمية:

أنا نفسي تنقصني سيجارة، لقد وضعت يدك على موضع الجرح.

ثم أكمل وليد طريقه حتى وصل إلى مكان تقل فيه تلك الجماعات نوعا ما، ربما يعود ذلك إلى وجود مركز للشرطة هناك، تلك الشرطة التي لا تقوم إلا بحماية نفسها. وراح وليد يقلب طرفه في الشارع محاولا إيجاد مكان يستلقي فيه فالمطر على وشك الهطول، لأن الرعد كان يقصف مثل المدافع. لكن وليدا لفت انتباهه حوار كان يجري بالقرب منه.

أرجوك يا سيدي، ارحل. ارحل وحسب.

هيا معي إلى البيت، سنكون وحدنا، وستحمين طفلك من البرد.

أرجوك ارحل سيدي، سيأتي أخي في أي لحظة، إنه قوي جدا، وإن رآك هنا ستحدث لك معه بعض المشاكل.

فعرف وليد صوت الفتاة، وعرف ما يجري بدقة. فوجد نفسه يخنق الرجل ويضرب رأسه على الحائط بعنف ويقول له:

إن لم تمت من هذا الضرب، وكتبت لك حياة ثانية، فاعلم أنني سأقتلك إن ضايقتها ثانية، أقسم لك أنني سأقتلك.

وواصل وليد ضرب رأس الرجل بالحائط، ولم يوقفه إلا صوت تحطم جمجمة. فارتعدت فرائص وليد، ولام نفسه على ردة فعله العنيفة، وتفحص وجه الرجل فوجد الحقير حيا يرزق، فأخلى وليد سبيل الرجل الذي فر مضرجا بدمائه. ثم قال وليد بلهجة حازمة جدا للفتاة:

اتبعيني.

فأطاعته الفتاة هذه المرة خوفا من شره لا طمعا في خيره. وتبعته دون أي مقاومة ودون أن تسأله إلى أين يذهبان. وحمل وليد عن الفتاة الكيس الذي كان يحتوي على أشياء بلا قيمة، كبعض الأفرشة البالية والخرق وقارورات الماء. أما الفتاة سارت خلفه وهي ترمق وليدا بفضول طفولي، وتضم صغيرها إلى صدرها بشدة خوفا عليه، لأنها لم تعد تبالي بأي خطر ما لم يكن يستهدف طفلها، رغم أنها في الماضي كانت تخاف من أخطار كثيرة، أهمها على الإطلاق تلك التي تستهدف شرفها. أما الآن فقد أصبح شعارها: الطفل أولا، وكل شيء ثانيا. رغم أنها لا تملك شيئا غير الدعاء تحمي به هذين المكسبين العزيزين على قلبها.

وأخيرا، وصلا إلى مكان يعج بالقذارة بكل أنواعها، فأمسك وليد بيد الفتاة، وتعجبت الفتاة لأنها لم تطر رعبا رغم أن شخصا كان قد أمسك بيدها للتو، وهذا أمر لم يحدث لها منذ سنوات. بل إنها أسلمت رضيعها لوليد دون مقاومة، واستلمت منه كيس الخرق ذاك، وهي التي لم تسلم رضيعها لأحد طيلة حياته القصيرة، وأخيرا وجد وليد مكانا آمنا لا تجده فيه الشرطة إن حدث وبلغ عنه ذلك الرجل، لأن وليدا المتشرد سيكون حينها في ورطة حقيقية. فماذا يساوي كلام متشرد وشهادة متشردة أمام لإفادة رجل

محترم في عالم يحكمه المحترمون فقط، ولم يسبق لمتشرد واحد أن حصل على منصب مرموق يمكنه من الانتصاف لإخوته المقتاتين على الزبالة.
جلس وليد في مكان مكنون عن المطر وهو يمسك الرضيع، أما الفتاة، فأخرجت تلك الخرق من الكيس، وفرشت خرقة لوليد وخرقة لها، وكومت الكثير من الخرق فوق بعضها لتدثر بها الرضيع، ثم وضعه في وسط تلك الخرق وهي تغبطه على ذلك المكان الآمن الدافئ الذي يرقد فيه. لكن رضيعها كان يبكي باستمرار، وعرف وليد أنه يبكي من الجوع فقال لها:
لماذا لا ترضعينه؟
فقالت:
إنه فتاة وليس ولدا.
فقال وليد:
حسنا إذن، هي فتاة؟ لكن لماذا لا ترضعينها؟
فقالت:
لا يوجد حليب في صدري.
فقال وليد:
إذن فلماذا لا تشترين له حليبا؟
فقالت الفتاة وهي شاردة:
الدكاكين مغلقة الآن.
فقال وليد بحزم:
أنا لا أتحدث عن الآن. أنا أتحدث عن النهار، لماذا لم تشتري له حليبا في النهار؟
فقالت الفتاة وقد احتبست الدموع في عينيها:
صدقني يا سيدي، إنهم لا يدعونني.
فقال وليد:
كيف لا يدعونك؟ ومن هم؟
فقالت بإيجاز:
لا يدعني أصحاب الدكاكين بسلام. أنا أرضعه من صدري فقط، كما أن حليب الأم أفضل من الحليب الاصطناعي.
فقال وليد غاضبا:
لكن أين حليب الأم هذا؟
فأجابت:
هذا لأنني لم آكل منذ مدة.
فقال وليد:
وماذا تفعلين بالمال؟ هل تصدقينه على الناس وتتركين نفسك وطفلك للموت.
فقالت:
وما نفع المال، قلت لك أنهم لا يدعونني بسلام. وراحت تبكي بتحفظ وتخفي بكاءها قدر الإمكان عن وليد خوفا من أن يغضب، فقال وليد:
-لا بأس، لا بأس.
لكنها واصلت:
-إنهم لا يدعونني بسلام أبدا. لماذا لا يدعونني وحسب. ماذا سيخسرون؟ ألا يعلمون أنني كنت فتاة محترمة في يوم من الأيام.
فقال وليد:
بل ما زلت محترمة اليوم أيضا، هم وحدهم الأنذال. اسمعيني ياآنسة، اعتبريني أخاك، مفهوم، اعتبريني أخاك.
ثم أضاف وليد وهو مطأطئ رأسه:

-لو كان لدي مال لأخذتك إلى مطعم، ولكن صدقيني، أنا لا أملك قرشا واحدا، أقسم لك.
ثم قال:
-لقد بدأت العاصفة، نحن هنا في أمان من المطر والريح.
فقالت الفتاة:
-أجل.
ثم لبثا وقتا وهما جالسان والفتاة لا تجيب على جمل وليد إلا ب: أجل. لقد كانت تعتبر كلامه وحيا منزلا غير قابل للنقاش. وفي هذه الأثناء زاد بكاء الرضيع. فراحت تسكته بطريقة توحي بأنها أخته لا أمه. فقد كانت جاهلة تماما بأصول الأمومة، وكان الشارع غير خال من المارة رغم قلتهم، الذين كانوا يمرون وهم يمشون ويتلفتون مثل الظباع. فحدق وليد فيهم بنظرات قاسية وعنيفة لإخافتهم. وفجأة قالت الفتاة بصوت ضعيف:
-لماذا لا يرحلون وحسب؟ لماذا لا يبقون في بيوتهم؟
فالتفت إليها وليدا منصتا إليها باهتمام فأكملت:
-أنا لا أريد منهم مساعدة، لا أريد شيئا، أريد أن يبقوا في بيوتهم وحسب. لا أظن أنني أطلب شيئا كبيرا. لماذا لا يبقون في أسرتهم الوثيرة وبيوتهم الدافئة؟ لماذا يكلفون أنفسهم عناء الخروج في جو كهذا لإيذاء أمثالي؟ نحن لدينا الكثير من المشاكل ولا ينقصنا المزيد منها. ماذا يريدون أكثر من فراش وثير وطعام وفير؟ لو كنت في مكانهم لأغلقت بابي واستلقيت على سريري ونمت نوما عميقا إلى الصباح.
فقال وليد:
-أنا أخوك وسأحميك فلا تخافي أبدا. سآخذك إلى تل الياسمين وستعيشين في بيتي مع أخواتي، ستكونين في أمان هناك.
ثم تمطى وليد يقول:
-يا إلهي، رأسي يقرع مثل الطبل. أنا مستعد لبيع كليتي اليسرى مقابل سيجارة، وكليتي اليمنى مقابل شرارة أشعل بها تلك السيجارة.
فبسطت الفتاة يدها نحو وليد وقالت:
خذ.
نظر وليد إلى يدها فوجدها تحمل قطعا نقدية من فئات مختلفة، فرد وليد بغضب:
-ما خطبك؟ متسولة توزع الصدقات. لماذا أنت كريمة إلى هذا الحد؟ كان ينبغي أن تصرفي هذه الصدقات على ابنك.
فقالت الفتاة بصوت وديع:
-إنها فتاة وليست ولدا.
ثم أردفت:
-وماذا أفعل بالنقود؟ أنا لا أستطيع الشراء، هم لا يدعونني بسلام.
ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تكرر:
-لا يعونني بسلام، مع أنني أشتري بنقودي لكنهم لا يدعونني بسلام.
فقال وليد وقد اعتراه نشاط كبير فجأة:
-هل هناك مطعم مفتوح ليلا؟
فقالت:
-أجل، إنه في ذلك الشارع إلى اليمين.
فقال:
-هيا لنذهب إذن، أتمنى من كل قلبي أن يضايقك أحد ما. لأنه تحدوني رغبة جامحة في إبادة بعض الحشرات. سأحطم جماجمهم وهذه المرة لن أتوقف إن سمعت صوت تحطم، بل سأواصل حتى أشفي غليلي. قومي، فلسنا متشردين بعد الآن، نحن ناس محترمون وزبائن يسعى الندل بحرص لإرضائهم، وسترين ذلك. سترين المدينة كلها بوجه آخر غير الذي عرفته سابقا.

حمل وليد الرضيع وذهبا إلى المطعم، وطلب وليد من الفتاة أن تعطيه ما معها من نقود فأعطته على الفور. عد وليد النقود فوجدها مبلغا كافيا، مما جعله يصرخ في النادل بصوت جبار:
-أيها النادل، هل تنتظر أن يطلع الصباح لتحضر لنا اللائحة.
فحضر النادل مسرعا وقال:
-آسف يا سيدي، بم أخدمكما؟
فقال وليد:
-أنا تعشيت. أما السيدة المحترمة فلم تتعش بعد، فاسألها ماذا تريد أن تأكل.
نظر النادل إلى الفتاة وخاطبها بلهجة موقرة وكان يغلي في داخله لأنه اضطر إلى قول: (يا سيدتي المحترمة) لفتاة ترتدي معطفا رجاليا فوق أسمال بالية.
طلبت الفتاة طبقا من البطاطس المقلية، وهو أرخص طبق يقدم في المطاعم، واقترح عليها وليد أن تطلب قنينة من العصير، وأومأ لها أن النقود تكفي لذلك.
وأكلت الفتاة بلهفة وكأنها تأكل طبقا ملكيا، فهي قلما تأكل، وإذا أكلت أكلت القليل، وأحيانا تأكل من المزبلة، لكن في الغالب، تأكل من الطعام الذي يتركه المتنزهون، أو من الطعام الذي يحضره لها بعض المصلين في المسجد، هذا عندما كانت تألف الناس، لكن بعد نفورها من البشر وتوحشها أصبحت تهاب المصلين أيضا ولا تقربهم إلا وقت الصلاة عندما تتسول المال أو الطعام، أو عندما تدخل دكانا بالقرب من المسجد حين يمتلئ بالمصلين لتستغل وجودهم في الدكان لتشتري منه بعض الطعام، لأنها تستأنس بهم.
وعندما تنتهي الصلاة ويفرغ المسجد من المصلين تعود إلى الوحشية مرة أخرى، ولو رأت المصلين الذين اعتادت رؤيتهم في غير وقت الصلاة أو في مكان غير المسجد لما استأنست بهم، ولاعتبرتهم كغيرهم من الناس.
أراد وليد أن يشعر الفتاة باحترام أكثر فصرخ:
-أيها النادل، أيها النادل.
وعندما حضر قال:
-انظر جيدا، هل تسمي هذا خبزا؟ كيف تملأ لنا طبقا بقرون الخبز وتسميه خبزا. لقد ظننت أن هذا المطعم مطعم محترم. أين رب عملك؟ أريد أن أكلمه.
فقال النادل:
-رب عملي غير موجود سيدي. أنا آسف جدا. أنتظر. سأحظر لك خبزا جيدا.
فقال وليد:
-من الأحسن أن تفعل ذلك، لأن هذه أختي، وأنا لا أرضى أن تأكل أختي خبزا كهذا.
كانت الفتاة مطرقة في خوف من النادل، وهي تظن أنها ارتكبت جريمة حين أنب نادل طيب من أجلها، بل إنها قد توقفت عن الأكل في حضرته. فاعتذر لها النادل، فقالت حتى قبل أن يكمل النادل اعتذاره:
-لا بأس لا بأس.
وعندما ذهب النادل واصلت أكلها، وحين أكملت قال لها وليد:
-ما رأيك في قهوة؟
فدمعت عيناها. لقد نسيت اسم القهوة، ونسيت أريج القهوة، ونسيت سحر القهوة. فمنذ أشهر لم تتناول قهوة. فأشارت لوليد برأسها موافقة. فطلب وليد فنجانين من القهوة، ثم قالت الفتاة:
-اشتر سيجارة.
فتحرج وليد قليلا لكنه لم يستطع مقاومة الفكرة، واشترى سيجارتين فقط. لأنه لو نقص قرش من الفاتورة فستحدث كارثة. سيهدم كل ذلك الاحترام الذي بناه وليد للفتاة المسكينة. وأحضر النادل القهوة وانصرف.
وما إن صعد عبق القهوة الآسر إلى أنف الفتاة حتى شرعت في بكاء مر مخنوق، لم يفهم سببه وليد. لكن الفتاة فهمت. فقد ذكرتها رائحة القهوة بتلك الأيام الماضيات، أيام الطفولة والحنان واجتماع العائلة.
للرائحة مفعول غامض وساحر في بعث الذكريات التي ترتبط بها. ظلت تبكي بحرقة بكاء يفطر قلب الصخرة الصماء. لقد كانت تكتم بكاءها لأنها كانت تظن أن البكاء ليس من حق أمثالها، أو على الأقل ليس من حقهم إزعاج الناس بإظهاره، رغم أن أمثالها هم من أجدر الناس بالبكاء.وراح وليد يداعب الرضيع

الذي كان ينبعث من فراشه رائحة البول. فمن المحتمل جدا أن الأم الجاهلة بذلت جهدا كبيرا في تنظيف فراشه بالماء وحده. ثم وضع وليد الرضيع بعيدا عنه وراح يدخن مع الحرص الشديد على تجنب النفث في جهة الرضيع. في هذه الأثناء دخل زوجان إلى المطعم وجلسا إلى طاولة. فرمقت السيدة الفتاة بنظرة احتقار وازدراء، فأطرقت الفتاة، أما وليد فقد رد على السيدة بنظرة أكثر احتقارا وازدراء، وتحدثت السيدة إلى زوجها ثم قاما. أكيد أن الحديث كان يدور حول: (ألم تجد إلا هذا المطعم التافه المليء بالمشردين لتحضرني إليه) فأحس وليد بإهانة شديدة. وقد أصبح وليد على غير عادته يشعر بالإهانة بسهولة، فقال للفتاة محاولا إسماع السيدة:

-يا للهول، لديها حقيبة يد كبيرة. هل تخبئ ديناصورا في حقيبتها؟ إن حقيبتها أشبه بحقيبة عالم مسافر منها بحقيبة يد سيدة. عجبا. ألا تشاهد حقائب يد مثيلاتها من النساء؟

فأجاب الزوج وهو يغادر:

-مشردون جوعى.

فراح وليد يقهقه ويقول:

-كل الحسناوات اللاتي رأيتهن كن يحملن حقائب يد صغيرة جدا تنبئ عن أذواقهن الرفيعة. أما هذه فهي غير صالحة أبدا لتحملها امرأة مهما بلغت هذه المرأة من البشاعة والبدانة. لكنها صالحة جدا لنقل الشعير. آه لو تعرف منظمة الفاو بأمر هذه الحقيبة، كانت ستحصل سيدة على براءة اختراع ولساعدت حقيبتها الفلاحين في نقل الشعير. إنها تليق بفلاح سمين لديه شاربان طويلان أكثر مما تليق بسيدة. إنها ليست حقيبة يد بالمعنى الدقيق للكلمة. بل هي كيس من الشعير. لا بل هي وسيلة نقل كبيرة. إنها حقيبة يستطيع الحمار أن يقفز فيها بكل سعادة وحرية.

كان وليد يتلفظ بهذه الكلمات والزوجان يحاولان أن يغادرا بسرعة بالسيارة التي لم يشتغل محركها بسهولة، مما جعلهما يستمعان إلى قدر لا بأس به من هته الكلمات. واستمتع وليد بمشاهدة الزوجة وهي تؤنب زوجها داخل السيارة على دعوته لها إلى مطعم المتشردين.

نظر وليد إلى الفتاة فوجدها خائفة ترتعش فقال لها:

-أنت مستاءة لأنني أهنتها أليس كذلك؟

-بلى. أجابت الفتاة على الفور، فقال وليد:

-لقد شعرت بالاشمئزاز منا فأردت أن أريها قدرها. أتعلمين أنها تشعر بالاشمئزاز منك في هذا المطعم، ولو ذهبت هي إلى مطعم فاخر جدا لقامت سيدة ما اشمئزازا منها وهكذا دواليك. إنه عالم متفاخر يتعالى فيه البعض على البعض الآخر. مع أنني متأكد أنك أشرف من كلتي السيدتين وأعظم نبلا وسموا. غريب هذا العالم أليس كذلك؟ صاحب الحذاء اللماع يضحك من صاحب الحذاء المثقوب، وصاحب الحذاء المثقوب يضحك من حافي القدمين، وحافي القدمين يضحك من الأعرج الحافي. إنهم يتخذون معايير زائفة. معايير متقلبة ونسبية. هل تظن تلك المتكبرة أنها أفضل منك لأن ثوبها أغلى من ثوبك؟ ماذا لو لبست غدا ثوبا أغلى من ثوبها؟ هل ستصبحين فجأة أفضل منها في نظرها؟ متى يتعلمون أن سبيكة الذهب إن لفت بخرقة فلن يسقط ذلك من قيمتها شيئا، أما النفاية فلن تغلو أبدا حتى لو وضعت في دلو فاخر، على العكس، سيتخلص الناس حينها من النفاية ويحتفظون بالدلو. يظن الناس أن النفاية هي الشيء الوحيد الأرخص من الوعاء الذي توضع فيه. لكن النفاية ليست الوحيدة، فهناك كثير من البشر أقل قيمة من ألبستهم. إنهم مثل النفاية. أما السبيكة فمكانها في النهاية –مهما كان الشيء الذي تلف فيه- على صدر أميرة فاتنة أو تحت حجر كريم. هل فهمت قصدي؟

أومأت الفتاة برأسها وهي تمسح دموعها بأنها فهمت. ثم راح وليد ليدفع الفاتورة وهو يقسم أنه سيطحن النادل طحنا إن أبدى ملاحظة ما حول تألف النقود من قطع من الفئات الدنيا. ثم غادر وليد والفتاة المطعم بعد توقف سقوط المطر، وفي الطريق طلبت الفتاة من وليد أن يأخذا شيئا إلى ذلك الرجل المعاق الذي وهبته آنفا بعض المال. فغضب وليد منها وقال:

-هل تظنين نفسك دار البلدية؟ لا يمكنك مساعدة الناس جميعا، هل تفهمين؟ يجب أن تهتمي بنفسك وبطفلك.

فقالت الفتاة لوليد في خوف ووجل وهي تتحاشى أن تلتقي أعينهما:

-ولماذا تساعدني أنت إذن؟
تأفف وليد من قولها، وألقى نظرة حوله ثم قال:
-لا بأس، لا بأس. انتظري إذن لنرى على ماذا أستطيع أن أحصل بما تبقى. ثم عاد وليد إلى المطعم وأحظر ساندويتشا وذهبا إلى الرجل المعاق الذي لم يشعر بوجودهما أصلا. ولم يبد أنه يلقي كبير بال إلى الطعام.وراح وليد يقول له:
-أحظرنا لك هذا الطعام يا سيدي. أنظر. هيا تناوله.
لكن الرجل لم يبد أي ردة فعل. فقالت الفتاة:
-لا فائدة من ذلك.
وتناولت الساندويتش وراحت تقربه من فمه، فشرع يتناوله ببطء شديد، وكان بالكاد يستطيع بلع الطعام حتى أكمل الساندويتش. فتعجب وليد من بقائه على قيد الحياة إلى الآن. وخمن أن قوة خفية هي تطعمه وتسقيه. وقال للفتاة:
-يظهر أنك بارعة جدا في إطعامه.
فقالت الفتاة وهي تبتسم في خجل:
-أجل.
فقال وليد:
هيا بنا إذن، وعندما نذهب إلى تل الياسمين ونعود مرة أخرى إلى العاصمة. فلن نعود كمتشردين، بل سنعود كشخصين محترمين جدا. وسنذهب إلى الشرطة ونقيم عليهم الدنيا في القسم، ونؤنبهم على ترك معاق مسكين في الشارع، وسيعتنون به، هل فهمتني؟
فأجابت الفتاة:
أجل.
ثم ذهبا إلى مكانهما الأول، وراح وليد يحدق في المارة بنظرات قاسية مرعبة. أما الفتاة فكانت كلما مر أحد نالها الخوف. فلاحظ وليد ذلك فقال لها:
-لا بأس يا أختي، لا تخافي منهم. حتى السكاكين لن تعمل في جسدي شيئا. أحس بقوة هائلة، أحس بأنني سأقتل حصانا بلكمة واحدة. لن يجرأ أحد على الاقتراب منك، أنا أعدك.
أحست الفتاة بالاطمئنان من كلام وليد. لكنها لم تكن تخاف من شرهم فقط، بل كانت تخاف من نظراتهم أيضا. وهذا ما لا يستطيع بشر أن يحميها منه، بل لا يحميها من هذا إلا أربعة جدران.
عاود المطر الهطول بغزارة. فخلا الشارع من المارة. ولم يبق إلا وليد والفتاة والرضيع الملفوف في الخرق البالية. في هذه اللحظة، بدأت فكرة تقلق بال الفتاة –القلق دائما- ماذا لو تغلبت الشهوة على الفضيلة فجأة في نفس هذا الفتى الطيب. لقد شاهدت أثناء حياتها التشردية القصيرة الكثير من المحسنين الذين ينقلبون إلى ذئاب بين ليلة وضحاها. لم تكن الفتاة تطمئن أبدا إلى الطبيعة البشرية المتقلبة مثل طقس يوم خريفي. راحت الوساوس الرهيبة تقصف طمأنينتها. وكان كلما قام وليد بحركة ما مهما كانت بسيطة كأن يلتفت أو يحك أنفه أو ينفخ في يديه كان ينهد ركن من أركان عزيمة الفتاة وسكينتها. كانت مطأطئة رأسها دون أن تلتفت يمينا أو شمالا، وتشبك يديها اللتين كانتا ترتجفان في حجرها، وبدأ العرق يتصبب منها في تلك الليلة الباردة، ولم تكن تجرؤ على القيام بأي حركة، فقط، كانت تبتهل إلى الله ليحميها ويحمي الشاب الطيب من نفسه. وفجأة انحنى وليد إلى الرضيع ليداعبه أو يتفقده، فانتفضت الفتاة مثل الحمامة المروعة بحجر. واستوت في جلوسها أكثر، لكنها حافظت على وضعها السابق، وزادت في إحناء رأسها. إذ أيقنت أن اللحظة الرهيبة قد حانت. لكن شيئا كان قد حدث حين انتفضت الفتاة وزاد مخاوفها لكنه أوضح الأمور فيما بعد: لقد انكشف ساقاها بسبب انتفاضتها حين رفعت عنهما تلك الخرقة التي تسميها النساء غير المتشردات بالتنورة. ومع انكشاف ساقها زاد العرق تصببا من كل جسمها، وسرت الرعدة التي كانت مقتصرة على يديها إلى سائر أطرافها. وزادت كل الأمور السيئة سوءا عندما لاحظ وليد إنكشاف ساقيها وقال:
-ساقاك عاريتان؟

فلم تستطع أن تجيب إلا بالارتجاف أكثر وهز رأسها بالإيجاب في حركة آلية سريعة. فلاحظت أن وليدا ينزع معطفه، فتمنت حينها لو أن الأرض تنشق وتبتلعها، أو لو أن العنقاء التي أخذت السندباد إلى وادي الماس تنقض عليها وتأخذها بعيدا، ليس بالضرورة إلى وادي الماس ولكن إلى مكان آمن من الأخطار فقط، ولا تمانع الفتاة أبدا إن لم يكن آمنا من أخطار الجوع والمرض والوحوش وحتى الديناصورات، المهم ألا يكون فيه تلك الأخطار التي تمشي على رجلين، تلك الأخطار التي بينما هي سلام وأمن حتى تنقلب في لحظة إلى كابوس، تلك الأخطار التي لا يمكن الركون إليها أبدا مهما بدت لأول وهلة آمنة ومسالمة. عادت الفتاة من عالم التمني والأحلام إلى واقعها المر، لم تعد تنتظر من الفتى إلا أن يعري ساقيها أكثر. لكن وليدا حينها اقترب منها وغطى ساقيها النحيلتين العاريتين بمعطفه، والدموع قد أكسبت عينيه بريقا خلابا حين انعكست عليهما أضواء مصابيح الإنارة، وقال لها:

قد يشعرك معطفي ببعض الدفء.

فلم تجد الفتاة مفرا من الانخراط في بكاء حار مكتوم لا يسمع منه إلا نشيج بين الحين والحين. كأن اليتم في حلقها ينوح على الفضيلة المذبوحة التي لا تزال تنتفض أحيانا تحت أقدام الجزارين التي تدوسها في انتظار إسلامها الروح. اقترب وليد منها وهو يجهل سبب بكائها المفاجئ بين الحين والحين. وراح يقول لها:

لا تبكي، لا تبكي. سيكون كل شيء على ما يرام.

وهو يمسح دموعها بيديه -فمناديل المتشردين أيديهم- فلم ترتعب الفتاة أبدا هذه المرة. ولم تتوجس خيفة من أصابع وليد التي كانت تمسح دموعها. بل أحست أنها أصابع أخ. وأحست أن هذه الأصابع المسالمة لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير قمة السلام والأمان.

عاد وليد وجلس في مكانه. فرمقته الفتاة بنظرة خجلى وقالت:

-يا إلهي أنت ترتجف. لماذا نزعت معطفك؟

فقال وليد: كلا كلا. أنا أستحق ذلك. لأنني قذارة، ومن يعبأ للقذارة إن كانت ترتجف أم لا.

فقالت الفتاة مشفقة:

-لست قذارة. لماذا تقول ذلك؟ أنت ملاك.

فقال وليد مصعدا من لهجته:

-كلا كلا. أنا قذارة، أنت لا تعرفين شيئا عني. انظري إلى كيس القذارة ذاك. هل قال الرجل الذي وضعه هناك:(سأغطيك يا كيس قذارتي العزيز، فلن أدعك في هذا البرد ترتجف منتظرا قدوم عمال البلدية) هو لم يقل ذلك ولم يغطه، لأن القذارة لا ترتجف، وإذا ارتجفت فلا يعني أنها تشعربالبرد. وأنا أيضا إن ارتجفت غلا يعني أنني أشعر بالبرد. وحتى لو شعرت بالبرد فأنا استحق ذلك. الله وحده يعلم حجم الوقت الذي قضيته من حياتي ثملا. لقد كنت أثمل في كل الأوقات، حتى في النهار. ما أسوأ أن يثمل المرء في النهار. لاحظي، مع أنني كنت أعلم عواقب ذلك لكنني كنت أثمل بكل حماقة في النهار. يا إلهي، تلك الأيام، عندما يجتمع الصبيان وهم يصرخون: (رجل ثمل، رجل ثمل) ويبدؤون في رجمي بالحجارة. الصبيان الأشقياء، أكيد أنهم استمتعوا بوقتهم.

ليس هذا وحسب، فعندما يثمل المرء في النهار لن يجد مكانا يستلقي فيه. كلما استلقى في مكان طردوه منه. لأن الثمل قد يتقيأ في أية لحظة. أضيفي إلى هذا رجال الشرطة الذين يجدون متعة لا توصف عندما يقودون ثملا إلى القسم. طول النهار لا يعملون شيئا غير اقتياد الثملين إلى القسم. أحيانا يمر الشرطي -وهو يقتاد ثملا- بمصرف يسرق لكنه لا يلتفت إلى المصرف أبدا، بل يكمل طريقه برفقة الثمل. لا أذكر عدد المرات التي رافقت فيها رجال الشرطة إلى القسم. دائما كنت أمشي وأنا أضع يدي على ظهري وأترنح في مشيتي وأنحني إلى الوراء والشرطي يمسك بذراعي ويساعدني على المشي إلى القسم. لكن الشيء الذي لا يفهمه الكثير هو لماذا يفتحون الحانات ثم يلومون الناس على الثمالة. لماذا لا يغلقون الحانات وحسب؟قد تجهلين السبب لكني أعرفه: لأن مالكي الحانات أصدقاؤهم وهم لا يريدون قطع رزق أصدقائهم. قد تقولين : (لماذا لا يغلقون الحانات ويعوضون أصحابها بأشياء أخرى كرخص استيراد الموز واللحوم والسكر والحليب أو صفقات التعاقد مع المؤسسات الحكومية والجامعات والثكنات لتزويدها بالمؤن) لكنني سأجيبك بأن تلك الصفقات بالكاد تكفي جميع الأصدقاء، فإن أغلقوا الحانات سيغضب

الأصدقاء الآخرون، لأنهم سيحرمون من بعض الصفقات التي ستسند إلى أصحاب الحانات كتعويض لهم. لذلك فلن يغلقوا الحانات أبدا، بل سيبقونها مفتوحة ويكتفون باعتقال روادها الثملين، حتى يحموا ممتلكات أصدقائهم الآخرين –أصحاب الصفقات والمقاولات والمحلات- من عربدة رواد الحانات. والخاسر الوحيد هو السكير المسكين الذي يريدون منه أن يقدم أمواله لأصدقائهم –أصحاب الحانات- وفي نفس الوقت يريدون منه ألا يهدد ملكيات أو أمن أصدقائهم الآخرين –أصحاب المحال والممتلكات الأخرى-
إنه تخطيط إبليسي ماكر. عندما لا أكون ثملا أستطيع فضح أكثر المخططات خبثا ودهاء، وعندما أثمل يستطيع خداعي طفل صغير. سأتوب يوما، أقسم لك. سأتوب يوما ما ولن أسمح لهم بالاستمرار في أخذ أموالي.
كانت الفتاة تستمع في خجل إلى كلام وليد. لكنها لم تفهم شيئا، أو لم تكن تريد أن تفهم، فقد كان قلبها متعلقا برضيعها. لقد لاحظت أن نهديها الصغيرين امتلآ بالحليب. فحملت الرضيع وضمته إلى صدرها وراحت ترضعه أمام وليد دون أي خوف، فوليد أصبح أخا لها. وأعرض عنها وليد بوجهه لكي لا يحرجها، وعندما شبع الرضيع حمله وليد وراح يداعبه حتى شرع يضحك ويرقص بيديه، مما جعل الأم سعيدة، وما إن وضعه وليد حتى غفا في براءة كبراءة الملاك. فنزعت الفتاة معطفها الرجالي وغطت به رضيعها مع الحرص على إظهار وجهه حتى لا يختنق. وتركت معطف وليد على ساقيها ربما رغبة في تدفئتهما أو خوفا من تغيير أمر قام به وليد، فقد كانت أفعاله عندها تكتسب نوعا من القدسية، وراحت تحدق في الأمطار التي كانت تهطل بغزارة وقالت:
-إنها رحمة للخلق.
فقال وليد مستفسرا:
من هي؟
فقالت:
الأمطار.
فقال وليد:
-لكنها تؤذيك فأنت بدون مأوى.
فقالت:
-لكن بدونها لن تنمو سنابل القمح ولن تزهر أشجار الفاكهة.
فقال وليد:
-لكن ما شأنك أنت وذاك ما دمت لا تحصلين على هذه الخيرات حتى بأموالك؟ بل لا يحصل عليها إلا القذارة الذين يؤذونك ويحرمونك منها.
طأطأت الفتاة رأسها في خجل ثم قالت بعد مدة:
-لقد سمعت الإمام يقول في عظته في المسجد: أن الله يرزق أهل الأرض من أجل الضعفاء أمثالي، بل إنه لولا البهائم والحيوانات لما أنزل الله المطر أبدا، فأهل الأرض يتنعمون بالمطر بسبب الضعفاء والبهائم فقط. وقال إيضا أن الله عز وجل يهم أحيانا بأخذ أهل الأرض بالزلازل والكوارث عقابا لهم على معاصيهم وجرائمهم لكنه يحلم عنهم عندما يسمع صبيا بريئا يتلو سورة الفاتحة من المصحف.
فقال وليد:
-الأرض مليئة بالقذارة فعلا، فلو ألقى الله بالأرض في الشمس أو في ثقب أسود عقابا لنا على جرائمنا لما كان ذلك العقاب منافيا للعدالة أبدا. لكن الله حليم معنا. وما يغضبني أكثر أن تتحدث تلك القذارة بوقاحة وتقول بأن الله غير موجود. وبأن الإنسان هو إله المخلوقات، رغم أنه منحدر منها لكنه أصبح بالتطور إلهها وسيدها. أظنهم مدينين لنا ببعض التفسيرات: كيف يصاب هذا الإله المزعوم –الذي هو الإنسان- بعسر البول وبطفح جلدي وبإسهال حاد؟ بل لو أن أحدا دخل خلف هذا الإله المزعوم بعد تناوله وجبة ثقيلة ودخوله الحمام لما استطاع الدخول دون أن يضع إصبعيه على أنفه. بل كيف لا يستغني هذا الإله المزعوم عن الحفاظات في بداية حياته ونهايتها؟ كيف يموت هذا الإنسان المزعوم؟ كيف ينتحر هذا الإله المزعوم؟ بل ليفسروا لنا كيف تفترس تلك الآلهة المزعومة بعضها بعضا. فليؤلهوا وعاء الفضلات ذاك المسمى

بالإنسان كما شاؤوا، أما أنا فلن أعترف أبدا بألوهية وعاء الفضلات الذي ما إن يموت حتى يسارع أعز أحبابه إلى طمره في التراب كي لا يؤذيهم برائحته النتنة.
تفطن وليد أخيرا إلى أنه قد ذهب بعيدا في الشتم، فوليد لا يبخل بالشتم على من يغضبه من أعدائه خاصة عندما يكون محتاجا إلى السجائر. وحظ الإنسان التعيس جعله العدو اللدود لوليد في هذه اللحظة البائسة من حياة وليد، لذلك نال نصيبا جيدا من الشتائم لكن وليدا تنفس وقال:
-يا إلهي، يبدو أنني بالغت في شتم الإنسان، لكنني شتمته لأن أولئك الحمقى أغضبوني بتأليههم له. لقد أعطوه مكانة لا تنبغي له أبدا، لماذا؟ ألأنه اخترع تلك الأسلحة التي ستفنيه يوما ما؟ أم لأنه قطع شوطا في تلك الأبحاث الوراثية التي سببت له المزيد من الألم والموت والأمراض؟ يريد أن يقلد خلق الله الذي بلغ من الدقة والتناسق والنظام درجة الإعجاز. أيظن الإنسان أنه يخلق؟ إنه فقط يعبث بخلق غيره. بل إن اليدين اللتين يعبث بهما ليستا له بل خلقهما غيره. وحتى أعمال العبث التي يقوم بها ليست ملكه بل أتاحها الله له وأتاح له في نفس الوقت –مراعاة للعدل- أعمال الخير. والإنسان يستطيع أن يختار أحدهما وسيجازى على كل اختيار. خذيني مثلا..... لقد كنت بعثيا نازيا لكنني الآن –رغم أنني مازلت أحمل الأفكار القومية- لكنني ازددت إيمانا بالله خاصة في الساعات الأخيرة.
لم تفهم الفتاة شيئا من كلام وليد، ففضلت أن تلقي نظرة على رضيعها. فقال لها وليد:
-يبدو أنني أكثرت من الكلام. لماذا لا تنامين وإذا حصل أمر فأيقظيني. فأنا أشعر بقوة هائلة تكفيني لأصرع كتيبة من الأوغاد. فأنا من الناس الذين يجدون متعة في تأديب الأوغاد والانتقام للفضيلة. إن حدث شيء فأيقظيني، ولا تظني أن ذلك يسوؤني بل إنه يسرني، فلا توجد متعة في الدنيا تضاهي متعة تحطيم الأوغاد الظالمين. تصبحين على خير. وأغمض وليد عينيه محاولا استدراج النوم الذي كعادته لم يتركه ينتظر كثيرا. فراح يغط في نوم عميق، أما الفتاة فكانت طوال الليل تغفو لدقائق وهي تضع يدها على رضيعها مخافة أن يسرق منها، ثم تستيقظ فزعة وهي تلقي نظرة عليه لتجده نائما في أمان ثم تعاود النوم من جديد.
استيقظ وليد بعد أن لفحته أشعة الشمس وجعلته يفتح عينيه على صباح عاصمي جديد. فرأى الناس ينبثون مثل النمل في أزقة العاصمة، ورأى أبواب الدكاكين تفتح، والباعة الجوالة يصيحون مطلعين الناس على بضائعهم. أما المقاهي فقد نضدت طاولاتها على الأرصفة، وجلس حول الطاولات أشخاص من كبار السن وهم يحملون الجرائد ويتبادلون الحديث بحماسة شديدة. أما الطقس فقد كان رائعا كعادته دائما حين تطلع الشمس في صباح رائق بعد ليلة ماطرة. تذكر وليد فجأة رفيقي البارحة، فالتفت فلم يجد شيئا. ثم انتبه إلى معطفه الذي وجده يغطي صدره فعرف أن الفتاة استيقظت قبله وأعادت له معطفه وغطته به،لأن البرد في السحر كان قارسا. واستوى وليد جالسا، فاكتشف أنه كاد يقلب كأسا كبيرة من القهوة بالحليب، وضعت فوقها شطيرة كبيرة من الحلوى، ووضع فوق الحلوى سيجارتان وبعض القطع النقدية. فعرف وليد أن الفتاة هي من تركت له ذلك الصرح من الطيبات، فالفتاة تعرف أنه يدخن، لكنه تساءل عن كيفية حصول الفتاة على النقود والبارحة بالكاد كان قد بقي لها شيء. لكنه فسر ذلك بأنها تسولت عند باب المسجد عند فراغ المصلين من صلاة الصبح. واستطاع التخمين أنها اشترت له الفطور من المطعم القريب الذي قصداه البارحة. فهي لا تستطيع الشراء كما أخبرته، والبارحة عندما لقن الندل درسا أصبحوا يحترمونها ويخشون أن يضايقوها. و على غير عادته لم يجانب تخمين وليد الصواب هذه المرة. ثم تناول وليد الفطور بعد تردد شديد، لأنه تحرج من تناول الفطور على حساب فتاة مسكينة بالكاد تتمكن من إعالة نفسها. لكنه لم يجد مفرا من الاستسلام لإغراء الشطيرة وراح يأكل ويقول:
-كل يا وليد، كل أيها القذارة. كل على حساب الفتاة المسكينة، كان ينبغي لك أنت أن توفر لها الطعام لا هي. أنت قوي مثل الحصان وتعيلك فتاة مسكينة ضعيفة.
وما إن اكمل وليد الفطور ودخن السيجارة حتى سئم الانتظار. وانتابه فكرة مريعة مفادها أن الفتاة لن تعود ثانية. بدد وليد هذا الشك وطمأن نفسه بأن الفتاة ستعود حتما فقد وعدها البارحة بأنه سيأخذها معه إلى تل الياسمين، وسينتشلها من هذا الجحيم. فرأى أن عليه انتظارها في مكانه وإلا فقد تأتي ولا تجده فيضيعها إلى الأبد. فأشعل وليد السيجارة الثانية ليسلي نفسه في انتظار العودة (الأكيدة) للفتاة. وراح يحدث نفسه

ويخمن لو أنه لم تسرق منه المحفظة لأنقذ هذه الفتاة من العوز والشقاء. كان سيأخذها إلى أرقى المطاعم، ويشتري ثيابا جديدا لها ولطفلها ويعود بها إلى تل الياسمين وهي في أبهى حلة. لكنه استدرك:
-المهم أن تعود فقط, وعندما نصل إلى تل الياسمين سأشتري لها الثياب وآخذها إلى البيت. الأمر المهم الآن هو أن تعود فقط.
وقرر وليد أن يكون أكثر حزما وذكاء اليوم عن البارحة. سيتدبر أمره جيدا اليوم. وخطرت في باله الكثير من الحلول التي غابت عن باله بالأمس. لقد قرر أن يعود في القطار ويتهرب من حرس القطار حتى يصل إلى تل الياسمين. أو سيذهب إلى محطة الحافلات وسيجد حتما قابضا طيبا سيقنعه بأنه سيدفع له ثمن التذكرة لاحقا عندما يصلون إلى تل الياسمين.
سعد وليد كثيرا بهذه الحلول (الرائعة) وعرف أن الشرور كلها قد زالت.لكنه عندما تذكر بأن الفتاة لم تعد بعد شعر بالإحباط فقرر أن يبدده ببعض السجائر. لذا فقد أخرج واحدة من القطع التي كانت تركتها له الفتاة وراح يبحث عن دكان تبغ قريب. لكنه لمح الفتاة جالسة على درج باحة أحد المحال المغلقة. فراح يسرع نحوها وقد امتلأ قلبه بشرا وسرورا لكن الفتاة ما إن رأته حتى فرت منه هاربة. فقد أخبرها أحد الأنذال أن وليدا يريد أخذ ابنتها منها بإيعاز من الشرطة. وهي لم تصدق ذلك لأنها تعتبر وليدا ملاكا. لكنها احتملت أن يكون ذلك النذل صادقا. وأعطت هذا الاحتمال نسبة ضعيفة جدا. لكن النسبة الضعيفة عندما تعبر عن احتمال مخيف جدا –وهو نزع ابنتها منها- تصبح نسبة كافية لإقلاق البال. وعندما رأت وليدا يجري بكل قوة نحوها ازدادت رعبا، فأسرعت أكثرت. لكنها عرفت أن وليدا سيدركها لا محالة. فقررت أن تختبئ. فلم تجد مكانا أنسب من أكياس قمامة سوداء مركومة فوق بعضها. فعلى الأقل لن يطردها أحد من هناك لأنه لا يوجد هناك ما تدنسه بجسدها وملابسها. فاختفت وراء أكياس القمامة وهي تضم طفلتها بكل قوة. ولم يجد لها وليد أثرا. وكأن الأرض ابتلعتها. فراح يصرخ وقد تمكن منه عصاب جعل كل وتر في جسمه يرتجف:
-ألم نتفق البارحة أيتها الحقيرة على الذهاب إلى تل الياسمين. ألم توافقي على ذلك. هل أنت مسرورة بحياتك اللعينة تلك –كان وليد يخاطبها وكأنه يشعر بقربها منه- ألا تشعرين بالشفقة على ابنك الذي يواجه خطر التجمد بردا كل ليلة. لو أشفقت على ابنك على الأقل حين لم تشفقي على نفسك. كنت سآخذك إلى تل الياسمين وأوفر لك ولابنك المأوى والطعام. لكنك تريدين البقاء هنا والتصدق على الآخرين.
كانت الفتاة خائفة جدا، وتضم ابنتها إلى صدرها بقوة وتبتهل إلى الله بكل الصلوات أن يجعل وليدا يستسلم ويسكت. وفعلا، حين لم يسمع وليد جوابا ظن أن الفتاة رحلت. فتحطم قلبه إلى شظايا صغيرة. وجلس إلى الجدار وراح يقول بصوت ممزوج بالبكاء:
-أنت تستحقين ما يحدث لك. انت تستحقين ذلك. انت مجنونة فعلا. انت مجنونة.أتمنى أن تموتي. أتمنى فعلا أن تموتي. كم سيكون العالم رائعا من دونك. سيكون العالم كله سعيدا وأكثرهم سعادة سيكون ابنك –
هنا أرادت الفتاة أن تنبه وليدا إلى أنها بنت وليست ولدا، لكنها أحجمت عن ذلك في آخر لحظة لأن ذلك سيكشف موقعها لوليد- تظنين أن العالم كله ضدك، لكنك عدوة نفسك. أجل، عدوك الوحيد هو نفسك. بينما تنفتح أبواب رحمة الله فجأة أمامك حتى تسارعين إلى إغلاقها.
هنا توقفت بجانب أكياس القمامة حافلة. فقفزت الفتاة في خفة إليها بمجرد فتح بابها. فلحق وليد بالحافلة ولم يستطع توقيفها. لكن الفتاة حين شعرت بنجاتها من وليد أطلت من الحافلة في خجل وهي تشكر وليدا على حسن صنيعه معها. فراح وليد يترجاها بكل لغة أن تنزل وحسب وسيتفاهما بالحسنى. لكنها رفضت وتشجعت لتقول لوليد:
-إن لدي قريبة في العاصمة وعندما ألتقيها ستأويني. أقسم لك. إنها طيبة وأنا أثق فيها كثيرا. لا تقلق علي.
لكن الحافلة كانت تبتعد عن وليد أكثر فأكثر فراح يصرخ:
-لقد أخبرت عنك قيم المسجد وهو يريد مساعدتك. إنه أهل للثقة. هل تسمعينني. هو أهل للثقة. سيأويك. وإن رفضت فسأتمنى أن تموتي من كل قلبي. لأنك حينها تستحقين الموت. هل سمعتني؟
وابتعدت الحافلة أكثر ثم غاصت في سيل من المركبات. فتوقف وليد ليسترجع أنفاسه، وقد تقطعت نفسه حسرة وامتلأت عيناه بدموع حارة، وراح يمشي من دون هدى ولا يلوي على شيء. وعندما وضع يديه في جيبه وجد تلك القطع النقدية فعاوده البكاء. وراح يرمي تلك القطع بكل عنف رغم حاجته الماسة إليها.

ثم شاهد مطعما فتذكر قول الفتاة أنهم لا يدعونها بسلام. فاعتراه غضب شديد. ولو كانت لديه قنبلة هيدروجينية لفجرها من دون تردد. ولبخر المدينة بكاملها وتبخر معها. فدخل وليد المطعم وهو يدفع الباب الزجاجي بعنف جعل كل الأنظار توجه نحوه، ثم صرخ:
-اسمعوني، إن لدي أختا فضلت التشرد في شوارع العاصمة ورفضت العودة إلى البيت وأنا احترم خيارها. لكنني سمعت أن هناك من يضايقها. اقسم بالذي قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها فقالتا أتينا طائعين بأنني سأسلخ جلد من يضايقها عندما تدخل محله. وحمل وليد كرسيا وضرب به الأرض بعنف فتحطم ثم قال:
-قد تقولون أنني عندما أنفذ وعيدي وأدخل السجن فمن سيحميها بعد ذلك. لكنني سأجيبكم بأنني لن أدخل السجن بالضرورة. يكفي أن أخنقكم ثم احرق محلكم، بل إنني قد أضع مطفأة حريق في يد إحدى الجثث وأجعل الأمر يبدو كحريق. هل تفهمونني؟ هل تفهمونني؟ سألهم وليد وهو يضرب الحائط بيده بكل قوة مع كل سؤال. فأجابوه بالإيماء أن نعم. فقد ظنوا أنه مجنون معدم متشرد ليس له ما يخسره إن سجن أو قتل، لذلك فقد خافوه أشد خوف. ثم خرج وليد وكرر ذلك مع كل المطاعم والدكاكين التي تعرض بضاعة قد تحتاج إليها الفتاة، حتى مشط عدة شوارع. وعاد وكفه تنزف من أثر الضرب على الحائط وهو يلهث من كثرة الصراخ. فارتاح قليلا يسترد أنفاسه وهو يمسح يده بمنديل ورقي أخذه من آخر مطعم دخله. ثم قام وراح يمشي ويمشي إلى أن وجد نفسه على وشك الدخول إلى شارع الأقمشة. فعاد مسرعا من حيث أتى. فسمع أحدا يصرخ:
-توقف. توقف.
فظن أنهم الباعة. فقرر هذه المرة أن يواجههم وأن ينتزع العصا من أحدهم ثم يكسر عظامهم بها. فالتفت فإذا بالقيم العجوز يجري –بأقصى ما يستطيع شيخ عجوز أن يجري- وراءه. فذهب إليه وليد وسلم عليه فجلس الشيخ يسترجع أنفاسه ثم قال لوليد:
-لقد انتظرتك اليوم في صلاة الصبح لكنك لم تأت. كنت أود أن آخذك لتناول الفطور. خذ هذا.
فقال وليد:
-ما هذا؟
فقال العجوز:
-لقد حدثت الإمام وقد بعث لك بألف دينار. خذها، فقد توصلك إلى ديارك.
فأخذها وليد دون أن يطير من السعادة وقال للقيم:
-تلك الفتاة التي حدثتك عنها يا سيدي. إنها فتاة طيبة. إنها تبيت بلا مأوى وحيدة معرضة لكل الأخطار. لا يوجد مخلوق أشقى منها في العالم كله.
فقال القيم:
-أعدك أنني سآويها. لذلك دعك من الفتاة الآن واترك أمرها إلي. وعدني أنك ستتجه رأسا إلى محطة الحافلات.
فقال وليد:
-لا أستطيع الذهاب من دون الفتاة.
فقال القيم:
-لقد وعدتك. سأبذل أقصى ما يستطيع رجل عجوز أن يبذل من أجل استعادة تلك الفتاة. أرأيت؟ كأن الله قد جعل محفظتك تسرق، ثم ساقك إلى المسجد الذي أعتني به لأنه أراد أن ينهي آلام الفتاة المسكينة. أتعلم أنه يستحيل علي ألا أجدها. فهي دائمة التردد على المسجد من أجل التسول. كما أن هاك معاقا أظنها قريبها عندما أحظر لهما الطعام من البيت تبقى تراقبني عن بعد في خوف وخجل. وبمجرد ابتعادي تقترب منه وتطعمه بيديها دون أن تتناول شيئا. لقد كنت أظنها شبعانة قبل أن تحدثني أنت عن ظروفها. لذلك فلا تخف. ستعود عاجلا أم آجلا. إن لم تعد من أجل التسول فستعود للإطمئنان على ذلك الرجل. وسأقنعها بالاقامة في بيتي. وإن لم تقتنع فسأحظر لها زوجتي لتقنعها.
شعر وليد بارتياح كبير وبحمل ثقيل أزيح عن كاهله. بعدما سمع كلام القيم العجوز. رغم أن وليد كان يريد أن يطلق بمسدسه هو رصاصة الرحمة على شقاء الفتاة المسكينة. أو على الأقل أن يشاهد نهاية شقائها

بعينيه. لكن كلام العجوز جعله يقتنع أنها مسألة وقت فحسب، قد لا يتجاوز في أحسن الأحوال عدة أيام. لذلك ودع العجوز بحرارة وتوجه رأسا إلى محطة الحافلات.
جلس وليد في مقهى بالقرب من محطة الحافلات. وتناول شطيرة مع العصير. ثم طلب قهوة. وراح يحرق سيجارة تلو الأخرى. وشعر بارتياح كبير. وأحس بأن تلك الأحداث المتسارعة التي مرت عليه في يوم وليلة هي مجرد حلم ليس إلا. وعندما قرأ في لافتات الحافلات جملة (مدينة تل الياسمين) أحس بأنه قريب جدا من الديار وتخلص من ذلك الشعور الذي لم ولن يستطيع الحكم عليه هل هو شعور ممتع أم مضن؟ إنه الشعور الذي لازمه لأربعة وعشرين ساعة. الشعور بأنه متشرد. فقد علمه ذلك الشعور –رغم قساوته- أن الناس لا يتوزعون بين تلك الطبقات التي طالما درسها. بل لا يوجد إلا طبقتان. المحترمون والمتشردون. المحترمون الذين يتمتعون بكل الحقوق لأنهم يشكلون نسبة مائة بالمائة من الموظفين والمسؤولين والشرطة والتجار وغيرهم. والمتشردون الذين لم ولا يشغل أحد منهم أيا من تلك المناصب وبالتالي فلا يوجد أحد يستطيع تمثيلهم والانتصاف لهم من المحترمين الذين يسلبونهم كل شيء. رغم تمتع هؤلاء يأبون إلا أن ينزلوا من أبراجهم –التي تتوفر على كل شيء- ليزاحموا المحترمين بكل شيء. لكنهم المشردين في مغاراتهم التي لا تتوفر على شيء. لكن المحترمين يستطيعون أن يجدوا بسهولة شيئا ما يمكن سلبه من المشردين. فأصبحوا يمثلون مرتعا خصبا ترتع فيه نزوات المحترمين السادية. لكن المتشردين يعترف لهم أحيانا بالآدمية. وبالندية للمحترمين. وذلك عندما يحتاج محترم إلى كلية أو حتى قلب فإنه لا يجد غضاضة في الحصول عليها من متشرد. وفي هذه الحالة يصبح المتشرد آدميا في نظر المحترم. لكن العملية تجرى له في أماكن لا تصلح حتى لركن سيارة قديمة. لذلك فهي ليست آدمية بالمعنى الدقيق للكلمة. وهناك من المحترمين الذين يدعون التحضر والانسانية من يقبل بتلك الأعضاء دون السؤال عنها ومعرفة مصدرها. لأنه لا يمانع أبدا إن كانت قد اقتلعت عنوة من أجساد أولئك المتشردين. مثلما كان يفعل بعض الملوك المسلمين في عصور الضعف حين كانوا يقبلون على شراء العبيد المخصيين. ولأن الخصاء حرام في الإسلام. فقد كانوا يشترونهم من عند اليهود الذين كانوا يتولون مهمة الإخصاء. ولأن الاسلام واضح في هذه الناحية، ولأنه حرم إخصاء الحيوان وكيه ووسمه وكل التعديلات. إلى درجة أنه حرم التضحية بالحيوان المخصي أو المكوي أو الموسوم. مما جعل الماشية في البلاد الإسلامية سليمة الجسم أكمل حتى من البشر في بعض البلدان الظلامية. فحرم الفقهاء اقتناء العبيد المخصيين. لأن اقتنائهم هو تشجيع على إخصائهم من طرف النخاسين اليهود. مثلما حرم التضحية بالحيوان الأعور أو مقطوع الأذن أو المكسور أو الموسوم أو المخصي أو مكسور القرن أو الخاضع لأي تغيير مؤلم. فقرر وليد أنه لو تولى منصبا يسمح فسيمنع زرع الأعضاء نهائيا. وسيجرم قانونيا عمليات الزرع والقلع مهما كان مصدرها. بل إنه سيكلف من يكشف عن المتشردين دوريا ليثبت سلامة أعضائهم وعدم تعرضها للمتاجرة. وحتى المحترمين سيجعل الكشف عنهم تلقائيا عندما يدخلون إلى المستشفى إن لوحظت ندوب عملية ما على أجسامهم. وازداد وليد تعنتا –كعادته- وقرر محاربة زرع الأعضاء خاصة عندما تفطن إلى أن عدد الأعضاء التي تنزع هي دائما أكبر بكثير من عدد الأعضاء التي تزرع. فالكثير من الأعضاء المنزوعة تفسد في انتظار زرعها. وهناك التي يرفضها جسم المتلقي. والله وحده يعلم عدد الأعضاء التي تنزع طوعا أو كرها من المتشردين الذين يموت الكثير منهم بعد ذلك أو تضطرب وظائفه. وفي نفس الوقت تفسد تلك الأعضاء التي تنزع قسرا في مخازن التجار وهي تنتظر محترما يدفع ثمنا مقبولا. لكن وليد ابدى بعض الليونة عندما تذكر معاناة مرضى القلب والكلى وقرر أنه قد يسمح بنزعها من الموتى شرط موافقتهم أثناء حياتهم. وشرط أن تعطى بطاقة رسمية للمتلقي تثبت أنه حصل على العضو بطريقة شرعية. ويكون ملزما بإظهارها عند دخوله المستشفى لسبب ما. أو يظهرها ورثته بعد موته لأن وليد عازم أيضا على الكشف الإجباري على كل الأموات و كل دفن دون إجراء ذلك الكشف يعتبر مخالفا. فبالتالي وجود تلك البطاقة ضروري للمتبرع والمتلقي. وخمن وليد أن هذه الإجراءات ستلقى معارضة أو على الأقل تسفيها وسخرية من المحترمين. وسيعتبرونها تكلفا وتنطعا زائدا. لذلك يجب فرضها بمنطق القوة لا بقوة المنطق على طبقة المحترمين الأنانية.
في الأخير عرف وليد أن ذلك الشعور، الشعور بأنه متشرد، ليس ممتعا أبدا، بل هو شعور مضن. لكنه علمه الكثير من الأمور التي لم يكن ليعرفها لو بات البارحة في نزل أو حانة. لكن وليد لم يعد يشعر ذلك

الشعور، خاصة مع وجود تلك الأوراق النقدية في جيبه, وعزز ذلك أكثر تلك الجريدة التي كان وليد يضعها أمامه على الطاولة. لأن المتشردين لا يقرؤون الجرائد ووليد لديه جريدة. إذن، هو محترم.
وخمن وليد في أسباب هدر حقوق المتشردين بالكلية. فهم لا يتمتعون بأي قدر من الحقوق حتى في أرقى المجتمعات المتحضرة. ففسر ذلك بأن المتشردين لا يقرأون الجرائد. فلماذا يتعب الصحفي نفسه بالكتابة عنهم أو لهم. كما أنهم لا يهتمون بالأدب، فلماذا يكتب الأدباء عنهم؟ صحيح أنهم يكتبون عن الفقراء، لكنهم لا يكتبون عن المتشردين لأن المتشردين –بعكس الفقراء- لا يشترون الكتب وبالتالي فلن يعرفوا أصلا أن ذاك الأديب قد كتب عنهم. كما أن المتشردين لا يملكون بطاقات انتخاب، فلماذا يتعب السياسيون أنفسهم بمخاطبة المتشردين أثناء الحملة، أو بالاهتمام بهم بعدها؟ كما أن المتشردين لا يستطيعون اقتناء المنتجات التجارية التي تظهر في الإعلانات التلفزية. فلماذا يتعب القائمون على القنوات التلفزية أنفسهم بجدولة برامج تهم المتشردين. بل إن المتشردين لا يملكون تلفازا أصلا.
تعجب وليد حين لم يسمع قبلا أحدا يحكي عنهم. فالليبراليون لا يحبذون المتشردين كثيرا. بل هم يدعون الله ليرسل عاصفة جليدية تطهر الأزقة منهم. أما الشيوعيون فرأوا أن عدد المتشردين قليل. كما أنهم لا يثقون بأحد بسهولة. وبالتالي فلن يصدقوا أكاذيبهم بسرعة. كما أن جلهم أميون ضعفاء لا ينفعون.
فاستهدف الشيوعيون العمال أولا، ثم استنجدوا بالفلاحين. واقصوا المتشردين تماما من حساباتهم. وقد نجح هذا التعتيم الاعلامي مع وليد. فقبل البارحة كان وليد متجاهلا وجودهم أصلا. قرر وليد أن ينسى المتشردين للحظة. وراح يقرأ الجريدة –التي كانت خالية قطعا من أخبارهم. ولا يوجد فيها مقال واحد كتبه متشرد. بل كتبت كلها من طرف المحترمين- فراح وليد يقرأ أخبار المحترمين. فلفت انتباهه خبر اعتداء على تاجر هواتف نقالة في السوق التي سرق وليد فيها أمس. وقد تم الإعتداء في المساء. حيث طعن لص أحد التجار الذي نقل إلى المستشفى. وقيل بأن الجريمة لم تكن من أجل السرقة. بل كانت مسألة تصفية حسابات شخصية. حمد وليد الله وقال:
-ماذا لو أنني طعنت في سوق الهواتف بدل أن تسرق محفظتي. الحمد لله. دائما هناك شر أخف من شر.
ثم قال وليد بسعادة:
-ثم من قال إن المال كان مالي. لقد كان مال سمير. لذلك فليس علي أن أحزن أبدا. كل ما علي الآن هو العودة إلى دياري والاحتفال.
قال ذلك وليد دون أن يحدد مناسبة مقنعة لذلك الاحتفال. فهو يحب الاحتفال حتى من دون مناسبة.
هذا هو المثال الذي يثبت أن ذاكرة وليد لا تحب أن تعكر مزاجه أبدا. فهي ذاكرة انتقائية جدا. لا تجود عليه إلا بالذكريات الجميلة. فبعد هذه الرحلة الشاقة والمآسي التي حدثت له في العاصمة، والمآسي التي شاهدها تحدث لغيره، فإن وليدا كلما تذكر رحلته تلك شعر بسعادة بالغة وعزم على إعادتها ثانية. فقد كانت رحلة ممتعة جدا. لأنه بينما كان عائدا إلى تل الياسمين من العاصمة، توقفت الحافلة في استراحة منتصف الطريق، ليستمتع الركاب بالمناظر الجبلية الرائعة التي تنوعت بين جبال سوداء وزرقاء وأخرى خضراء داكنة. ودخن وليد هناك سيجارة وهو يستمتع بتلك المناظر. فأحس بنشوة روحية غامرة تظاهي نشوة احتساء النبيذ. لذلك كان وليد يكرر دائما في نفسه القول أنها رحلة رائعة تستحق من المرء أن يعاودها. فكم كان تدخين تلك السيجارة ممتعا.
أفاق وائل من شروده ليجد أن القطار بالكاد قطع نصف المسافة، وليجد نفسه شخصا مدنيا مثيرا للشفقة ليس ضابطا أبدا. فتجددت أحزانه، وخالجته مشاعر الخيبة مرة أخرى، وحاول أن يتقبل مصيره، أن يكتفي بدراسة الاقتصاد في جامعة تل الياسمين.
لقد حصل الشلة جميعهم على علامات في البكالوريا تؤهلهم لدراسة الطب أو الالتحاق بالمدرسة العليا للإدارة التي تمد الدوائر الحكومية بالموظفين السامين، والتي كانت تمثل لأغلب الشباب حلما جميلا. لكن الشلة فضلوا أن يسجلوا في كلية الاقتصاد لولعهم به. فلكل منهم مذهب معين عدا وائل. والاقتصاد يمثل حلبة السباق بالنسبة إلى أصحاب المذاهب. ففي هذا العصر البراغماتي المادي من يملك اقتصادا جيدا فهذا يعني أنه يحمل مذهبا جيدا. وبالتالي فالمعيار الأساسي الذي يحكم بأن هذا المذهب ناجح أو فاشل هو النجاح أو الفشل في الميدان الاقتصادي. فقرر الشلة أن يخوضوا هذا المضمار مع كانوا يريدون الالتحاق بالجيش وكانوا متأكدين من ذلك لكنهم سجلوا بكلية الاقتصاد ليلتحقوا بها في حال رفضهم الجيش. وقد

رغبوا في الالتحاق بسلك الضباط أيضا لأن لكل منهم مذهب ولأن التغيير يأتي من الجيش خاصة في الجزائر فأراد كل منهم أن يدخل الجيش من أجل أن ينتهز الفرصة –إن سنحت- ويفرض مذهبه الإديولوجي بالقوة العسكرية. فقد طمح كل منهم أن يصبح قائدا للأركان في مطلع الأربعين من عمره، وأن يتصادف ذلك مع حكومة ضعيفة ومؤسسات هرمة وشعب في قمة الشقاء واقتصاد متأزم بسبب نقصان مخزون البترول وظروف دولية مضطربة وبالتالي لن ينقصه إلا بضعة جنود مخلصين يوفرون له التغطية في مبنى التلفزيون عندما يتلو منه البيان رقم واحد على مسامع شعبه الحبيب. بل إن أحد الشلة قد انتهى من كتابة بيانه رقم واحد، حتى إنه بدأه بجملة إلى أمتنا المجيدة. وأنهاه بجملة: والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار. ولم يكن ينقصه إلا أن يتلوه بعد بضع وعشرين سنة في مبنى التلفزيون. لكن أمل الشباب خاب عندما رفض وائل الذي لم يكن يقاسم الشلة أحلامهم، ولم يكن ينوي قراءة أي بيان في مبنى التلفزيون، بل كل ما أراده هو أن يصبح قائدا للأركان في الأربعين من عمره، وأن ينشئ أقوى جيش في التاريخ. أقوى حتى من جيش هتلر. لكن وائلا لم يحدد الغاية من بناء جيش قوي. بل كان بناء ذلك الجيش غاية في حد ذاته. كان يحلم ببناء جيش لا يستغرق من الزمن لاحتلال منطقة إلا ما تتطلبه أسرع دباباته من الوقت لعبور منطقة تعادلها مساحة. إنه جيش لا يعوقه شيء. ضرباته سريعة وقوية ودقيقة وبأقل الخسائر. جيش يصنع سلاحه بنفسه وينتج غذاءه بذراعه. لم تكن أحلام وائل كلها أوهاما. فحلم وائل لم يأت من العدم. بل لأنه رأى من نفسه ذكاء جبارا وعزيمة قوية إضافة إلى اطلاع لا بأس به على فن الحرب. ولم يكن وائل الوحيد الذي لاحظ ذلك. فقد شاطره أصدقاؤه هذا الرأي، مما جعل كلا منهم يبذل جهدا كبيرا في إقناعه بمذهبه واستدراجه إلى معسكره. ففي أثناء تلك الحوارات كانت عين المتكلم دائما على وائل الذي لم يكن متحمسا لاعتناق مذهب، لذا لم يكن يشاركهم النقاش إلا نادرا. فيظل صامتا يستمتع بتلك المنازلات الكلامية الحادة.وإذا استمع وائل باهتمام إلى أحدهم فهذا الاستماع وحده كان يكفي المتكلم ليشعره بالفخر.

كان حلم وائل قد تحطم. وعليه الآن أن يدرس الاقتصاد في كلية تل الياسمين. الاقتصاد الذي لم يختره إلا ليكون مع زملائه. فليس له مذهب يفرضه بالاقتصاد. أدرك وائل يقينا أن حلمه قد تحطم. ومنذ الآن عليه أن يعيش مثل سائر المخلوقات، عليه أن يتنفس ويأكل ويشرب ويتزاوج وهذه أمور تفعلها كل المخلوقات مثله أو ربما أفضل منه مما جعله يخرج باستنتاج:

-لقد خرجت من تل الياسمين وائلا والآن سأدخلها حيوانا. أما أصدقائي الخمسة الذين سيدرسون الاقتصاد لنصرة مذاهبهم فهم الآن بشر لهم أهداف في حياتهم. أبدا. لم نعد ستة. بل صرنا خمسة سادسهم كلبهم.

كان وائل الأذكى بين أصدقائه وأكثرهم شجاعة أيضا. ولم يكن يخيفه أحد. وأحيانا، لا يخيفه حتى الناس الذين لا ينبغي أن نتحدث عنهم. ففي بداية التمايز الإيديولوجي للشلة حين اختار كل منهم مذهبا، حين كانوا في شقة سمير يطالعون، حدث أن اقتحمت الشرطة البيت. لقد أبلغ الضابط أن ستة فتيان يعبثون بأمن النظام في شقة لهم. استغرب الضابط وتساءل عن قوة هذا النظام الذي يعبث بأمنه ستة فتيان مجتمعين في شقة. لكنه نفذ الأوامر واقتحم الشقة فوجد الفتية يطالعون. فكبلهم معاونوه. أما هو فقد جمع كتبهم وبدأ يتلو عناوينها:

العدالة الاجتماعية في الإسلام. الرأسمالية تجدد نفسها. الثورة الشيوعية العالمية...كيف نجعلها تنطلق. أرض العرب للعرب. الثورة التي فشلت. وداعا يا حرب العصابات....سأجر عدوي إلى حرب الشوارع.

ثم قال الضابط:

-يا إلهي. لدينا من الكتب هنا ما يكفي لقلب عشرة أنظمة لا نظام واحد.

هنا تدخل وائل الذي كان مكبل اليدين وقال:

-متى قلبت الكتب الأنظمة؟ بالعكس...

هنا ضغط أحد الأعوان رأس وائل على الحائط لكي يسكت ويحترم الضابط. لكن الضابط أشار إلى العون أن يترك وائلا يتحدث.

-بالعكس، لم تفعل الكتب على مدى التاريخ شيئا غير إطالة عمر الأنظمة. خاصة الكتب الإيديولوجية التي تساعد النظام بتفريق المعارضة إلى شيع وأحزاب. فمثلا نحن الستة، هل نستطيع بعدما يسقط النظام أن نقيم ستة أنظمة؟ طبعا لا. إذن فليبشر النظام بأمنه التام من جهتنا. الظلم هو الذي يقلب الأنظمة يا سيدي.

ويقلبها أيضا على أيد من لا يقرؤون. بل وإن كانوا يقرؤون فهم لا يقرؤون كثيرا. الثورة حركة والحكمة سكون. هما أمران متناقضان يا سيدي. لذلك لا تتوقع منا أي خطر على النظام. بل على النظام أن يتخوف من الدهماء التي تملأ المقاهي ومدرجات الملاعب.
فقال الضابط مطلقا العنان لضحكة تصنع فيها الوقار قدر استطاعته:
-هه هه هه، أتريد يا فتى أن تعلم النظام كيف يحمي نفسه. يا لكم من مضحكين. أنتم أجدر بتمثيل مسرحية هزلية منكم بمحاولة التطلع إلى قلب النظام. انتم تملكون حسا فكاهيا رائعا. خاصة أنت أيها السمين – وأشار إلى وليد الذي كان يشكو لعون الشرطة الأغلال التي آلمته- كم أظن بكم على السجن. لأنني أحب المضحكين جدا.
ووكز وليدا فلاحظ وجود لوح في جيب وليد فتحقق منه فإذا هو أقراص مهلوسة. فقال لوائل بسعادة بالغة –كعادة الشرطة الذين يسعدون جدا حين يجدون دليلا يدين ضحيتهم ويرفع عنهم روتين العمل الممل-:
-لم تخبرني يا أفلاطون عن سبب وجود الحبوب المهلوسة في جيوب صديقك. ترى، ماذا يفعل الحكماء بالحبوب المهلوسة؟ هيا لنرى إن كان الحكماء الآخرون أيضا لديهم ما لدى هذا أم أن هذه خاصية متعلقة بالحكماء السمان فقط.
فانتفض وليد مرافعا عن نفسه:
-أنا مصاب بالصرع يا سيدي. لذلك أنا أتناول هذا الدواء يوميا.
فقال الضابط:
-وأين الوصفة الطبية؟ لا تملك وصفة. أليس كذلك؟
-لا يوجد شيء لدى الآخرين سيدي. قال العون ذلك بعد تفتيش البقية.
فقال الضابط:
-لا يهم. سنتهمهم جميعا بحيازة المهلوسات. هذه التهمة أفضل من تهمة محاولة قلب النظام. هيا. اكتب أسماءهم في المحضر, وفك قيودهم. لدي مهمة أكبر لن يشغلني عنها حكماء مزيفون يستهلكون المهلوسات. أنا منشغل بمروجي هذه القذارة لا بمستهلكيها الأغبياء.
فقال العون:
-وتهمة المساس بالأمن العام؟ وهذه الكتب الملغمة؟
فقال الضابط:
-لا تهم يا بني. لا تهم. -قال الضابط ذلك وهو يشعل سيجارة- هذه الكتب لن تفعل شيئا بوجود هذه المهلوسات. انهم مجرد ثلة من المراهقين يتسلون بهته الكتب تماما مثلما يتسلون بتلك المهلوسات. هم مجرد مثقفين يتسلون. لا غير. لقد وجدوا في هذه الكتب نوعا من التخدير يشبه مفعول تلك الحبوب فهم يقرؤونها. أعطوه أسماءكم. أو لا داعي لذلك. أنت أيها الأشقر. ألست ابن أحمد مسعودي. هيا اكتب في ورقة اسمك وأسماء أصدقائك. وبهذا نضمن ألا يعطونا أسماء مزيفة لأننا نعرف هويتك أنت.
ثم أضاف مقهقها:
-أنتم مضحكون فعلا. لم تبلغوا بعد السن التي تخول لكم حيازة بطاقات هوية ومع ذلك تريدون تغيير هوية النظام. أولاد أشقياء.
ثم نظر إلى وائل وقال:
-وأنت أيها الأفلاطون الصغير. تريد أن تلقي علينا محاضرات في الثورة المتحركة والحكمة الساكنة. نحن نعلم أن تلك الاضطرابات والمشاغبات إنما يقوم بها رواد المقاهي والملاعب ولكن من يخطط لها؟ يخطط لها المفكرون. إنهم العقل المدبر والآخرون مجرد أطراف منفذة. هل رأيت عضوا أكثر سكونا من الدماغ؟ أتعرف الرجة الدماغية؟ إنها حادثة خطيرة تنتج عن حركة الدماغ. أي أنه لا ينبغي على الدماغ أن يتحرك. وإذا تحرك تحدث الرجة. لذلك فهو مغلف بأكثر وأقوى الأغشية الصلبة والرخوة فقط لكي لا يتحرك. لكنه في نفس الوقت –وهذا أمر محير- يمثل مصدر حركة باقي الأعضاء. لذلك كف عن تضليل الحكومة. ودعها تكمل هذه السيجارة. وتخرج من شقتك.
ثم رمى السيجارة على الأرضية وداس عليها ثم قال للعون الذي كان في الرواق يتفحص كتابة سمير:
-تفحصها في الطريق. والآن أفسح الطريق للحكومة.

ثم غادر الغرفة دون توديع وأغلق باب الغرفة.
بقي الشلة صامتين لبرهة وهم يتفحصون معاصمهم التي أثرت فيها الأغلال. ثم قطعوا ذلك الصمت بشكرهم لوليد على حيازته لتلك الحبوب. ومنذ ذلك الوقت عرف الشلة نفع الحبوب المهلوسة التي أنقذتهم. فهي ليست دائما غير ذات نفع.
-هه هه هه. هل وائل أيضا كان يحب الشغب في القسم؟
انتبه وائل إلى الصوت العذب الذي غرد للتو فوجده صادرا من الشقراء التي كانت تنظر إلى وائل وتبتسم لتقحمه قسرا في الحوار. تأمل وائل الشقراء طويلا. عينان واسعتان خضراوان بلون العشب. وشفتان رغم الحرارة لا تزالان نديتين ووردیتين. وشعر أشقر وابتسامة تأسر الألباب. وصوت يداعب شغاف القلوب ويثير فيها قشعريرة عذبة. جمال اكتمل ليبعث الدفء والحماسة في الصدور الكئيبة الباردة. كان وائل قد اتخذ قراره، وهو أن يستمر في كآبته وحزنه وأن يتمسك بمزاجه الذي خرج به من الثكنة. لكنه مال أخيرا إلى الاستسلام لإغراء جمال الفتاة الخلاب. فوائل لا يحتل الجيش كامل زوايا قلبه. فهناك مكان ليس بالضيق يخصصه وائل لعشق الحسان. بل ليس شططا القول أن وائل مغرم غراما مرضيا بالجمال منذ الخامسة أو السادسة من عمره. الرجال يتمتعون برؤية الجمال ولكن وائلا يتألم. هو مثل النحلة، بينما تعجبه زهرة ويحط عليها حتى يطير إلى أخرى، هو لا يعشق زهرة بعينها أو نوعا من الأزهار بعينه. بل هو متيم بكل الأزهار الجميلة في وقت واحد. فقلب وائل أوسع من البحر.
حب لم يكن يوما من طرف واحد. فالجميلات أيضا هن متيمات بوائل، وإن لم تقع حسناء في حب وائل فإما لأنها لم تلتقه يوما، أو أنها التقته لكنها عتبت عليه علاقاته الكثيرة، ومن النادر جدا أن يوجد سبب ثالث. لذلك كان وائل دائما محل أنظارهن واهتمامهن ومشاغباتهن الشهية. أمر يفسره بعض أصدقائه غير المحظوظين بأن وائلا ضعيف الارادة إزاءهن ويذكرهن بدمياتهن فهن يشتقن إلى طفولتهن.
-وأخيرا، إحداهن عثرت على دميتها.
سمع وائل أحد الشلة يهمس بهذا أو هكذا خيل إلى وائل. لكنه لم يبال. وقرر الاستسلام والغرق في عسل الغزل حتى أذنيه فقال:
-مهلا مهلا. هل تحدث أحد ما عن الشغب في القسم. مجرد الحديث عنه يسيل لعابي.
فقال وليد:
-وهل هذا الشقاء الذي أنت فيه إلا من لعنات المدرسين الذين أفقدتهم صوابهم يا صديقي وائل. يا إلهي، لقد كان يصيبك الجنون في القسم. لقد كنت تفعل أشياء لا تصدق. لقد كنت مهووسا فعلا. أتذكر ذلك اليوم الذي وضعت فيه ضفدعة في حقيبة يد المدرسة وبدأت تنق وظنتها المدرسة هاتفها يرن رنة نقيق الضفادع فوضعت يدها.....
وكز وائل وليدا بمرفقه لكي لا يتمادى في نشر غسيل صديقه. وقال:
كف عن تخويف الشقراء مني هكذا. صدقيني يا آنسة. لقد كان ذلك وقتا ومضى. الآن أنا وديع كالحمل.
فقالت الفتاة وهي ترسم ابتسامة تسلب العقول وتقول هازئة:
-حقا أنت وديع كالحمل. أنا ألاحظ ذلك.
فقال وائل:
-أرأيت يا وليد. هل يجب أن تكون أشقر واسع العينين، ممشوق القوام لتحسن الحكم على الناس؟
فضحكت الفتاة ضحكة خجولة وهي تقول:
-يا إلهي. أنت مجنون فعلا يا وائل.
فقال وائل:
-ألن تخبرينا باسمك. أم إنه عليك قتلي إن أخبرتني.
فقالت الفتاة:
-اسمي؟ اسمي هبة.
فقال وائل وهو يرمقها بنظرة حالم:
-هبة؟ أنت فعلا هبة.
ثم أردف:

-هل يمكنني أن أسألك سؤالا؟ لماذا أنت جميلة هكذا؟
فقالت الفتاة:
-عفوا؟ لم أفهم.
ثم ارتسمت ابتسامة خجولة على وجهها ونظرت إلى سامي محتجة وقالت:
-يا إلهي ما هذا السؤال؟
فغمز سامي وائلا ليكف عن مغازلة الفتاة لكن وائلا أردف:
أنا آسف إن كنت أخجلتك يا هبة. فحمرة الخجل بادية على خديك. لكنني في نفس الموقف الذي تتعرضين له كل يوم حين تكونين أمام المرآة وترين شفتين نديتين وأنفا شامخا وعينين خضراوين وشعرا ذهبيا. وتبقين تتأملين في تلك اللوحة البديعة. أكيد أنك حينها لا تشعرين بالفخر فقط. بل يساورك مزيج من المشاعر. التأمل والتساؤل والحيرة. وتقفين خاشعة أمام الصورة. وتعجزين عن فعل أي شيء. لكنك في النهاية تحملين أحمر الشفاه بين أصابعك وتضعين منه على شفتيك النديتين. وتضعين بعض المساحيق على خديك. وتقومين عن المرآة وأنت تطردين كل تلك الأفكار التي تدعوك إلى التأمل والحيرة وإلى طرح أسئلة مثل لماذا. وتبقين فقط شعور الفخر والتباهي.
بقيت الفتاة مندهشة من كلام وائل أو من جرأته. ظلت صامتة لبرهة. ثم قامت مسرعة من مكانها. وهي تقول:
-يبدو أنه يجب علي أن أغير مكاني.
فقام سامي مسرعا وهو يقنع الفتاة بالعودة إلى مكانها، وبأن صديقه لم يكن يقصد الإساءة. لكن الفتاة كانت قد قامت فعلا من مكانها، واستطاعت هذه المرة أن تحمل حقيبتها بنفسها. ووجدت مكانا فارغا فجلست لوحدها.
قال سامي لوائل:
-يبدو أنه كان من الأفضل لنا جميعا لو بقيت في مزاجك السيئ. أكان يجب أن تكلم الفتاة هكذا... مثل متسكع أرعن. أرأيت؟ لقد أخفتها وأحرجتها.
فقال وائل ضاحكا:
-كان يجب أن أتدخل لأنني رأيت تملقا واضحا يحدث أمامي. لا يمكنك أن تمتلك قلوب الفتيات بمعاملتهن كصديقة لهن. يجب دائما أن تستحضر رجولتك.
فقال سامي:
-أنا على الأقل استطعت إجلاسها جنبي بطريقتي لبعض الوقت. أما أنت فطريقتك جعلتها تفر منك كما تفر من وحش.
فقام وائل من مكانه واقترب من الفتاة التي انتفضت في مكانها قائلة بغضب:
-أنت ثانية.
وحاولت القيام من مكانها، لكن وائلا أمسكها من ذراعها وأجلسها بالقرب من النافذة وجلس معها. فظلت شاخصة إلى النافذة ومعرضة عن وائل. الذي قال لها:
-جئت لأعتذر لك عما بدر مني، أتمنى أن تقبلي اعتذاري.
لكنها ظلت صامتة، فقال وهو يهم بالقيام:
-وإن فشلت في استرضائك فلا بأس. فقد كان يومي حافلا بالفشل.
فقالت الفتاة بسرعة:
-لا بأس. لقد قبلت اعتذارك.
فقال وائل:
-هل يعني هذا أنك قد رضيت؟
فقالت الفتاة وقد أشرق وجهها من جديد:
-نوعا ما.
فقال وائل:
-وهل يمكنني أن أبقى جالسا بجنبك.

فقالت مبتسمة:
-ربما. إذا بقيت مهذبا ووديعا... يمكنك البقاء.
فقال وائل:
-أعدك بذلك. والآن أخبريني، ماذا كنت تفعلين في العاصمة؟
فأخبرته بحلمها أن تكون ممثلة شهيرة. وبأنها كانت في العاصمة لتأدية دور في أحد الأفلام. حيث تؤدي دور الفتاة التي يتجاوزها البطل في الطريق السريع وهو يقود سيارته بسرعة جنونية. وهو دور أقل أهمية من الدور الذي مثلته العام الماضي، حيث مثلت دور جثة في الفيلم البوليسي: القاتل المهذب. وهي تطمح دخول هوليوود ولأجل هذا فقد تعلمت الانجليزية باللكنة الأمريكية.
أظهر وائل بمبالغة إعجابه بموهبة الفتاة وأخبرها بسبب ذهابه إلى العاصمة. فقالت له:
-يحزنني ذلك يا وائل. لقد حطموا حلمك. ما رأيك لو وجدت لك دورا في فيلم ما؟
-دور الكلب الذي يكتشف الجثة في فيلم القاتل المهذب 2 ؟
قال وائل مازحا. فضربته الفتاة على صدره ضاحكة وقالت:
-كف عن السخرية مني. سأحصل على دور مهم يوما. وستترجاني لتحصل على توقيعي.
فقال وائل:
وهل ستعطينني توقيعك لو طلبته؟
فقالت بتغنج:
-لا أدري. ربما نعم وربما لا. حسب مزاجي.
نظر وائل إليها حالما ثم قال:
-يا إلهي. كم أحب توقيعك يا هبة. أكيد أنه توقيع لطيف وجميل. ومنجز برشاقة أيضا. أنا أحبه كثيرا يا هبة. أنا أحب توقيعك.
فانتفضت هبة مجددا لتقوم من مكانها وهي تقول:
-كف عن معاكستي يا وائل.
أمسكها وائل وقال لها:
-متى عاكستك يا هبة؟
فقالت:
-لقد كنت تتغزل بتوقيعي. وأنا أعتبر من يتغزل بتوقيعي كأنه يتغزل بي. نحن شيء واحد.
فقال وائل:
-حسنا اجلسي. لم أكن أعرف هته القاعدة. حسنا لن أعاكسك ولن أعاكس توقيعك ولن أبدي إعجابي بحقيبتك ولن أعاكس القطار الذي تركبينه. لن أعاكس كل الأمور التي تخصك، أعدك.
جلست هبة وقام وائل بتهدئتها فقد بدا أنها ثائرة من تسارع أنفاسها وجفاف شفتيها اللتين قاومتا الجفاف كثيرا سابقا. مما جعل وائلا يحضر لها قارورة ماء من عند سمير. ففتحتها وارتشفت منها مثل العصفور بضع رشفات وأعطتها لوائل. الذي شرب أيضا من القارورة. وخيل لهبة أن وائلا شرب متعمدا من نفس الموضع الذي شربت منه والمضمخ بأثر أحمر الشفاه. لكن هبة كتمت غضبها. واكتفت بأن تفتك القارورة بعنف من فم وائل وأن تضعها جانبا. ثم قالت بغضب:
-إذن ذهبت إلى العاصمة لتلتحق بالجيش. أتعرف أمرا؟ أنا أكره الجيش. ورؤيتي للعسكر تشعرني بالغثيان. أنا لا أعتبرهم إلا آلات وحسب. أولئك الجنود الأغبياء.
فقال وائل:
-المساكين. ليس من حق هبة أن تكرهم وهم يسهرون على الدفاع عن هبة، بينما تكون هبة منهمكة في تدريم أظافرها الناعمة. أو في العناية بشفتيها المنفوختين. عذرا. أنا آسف. فقد سهوت ونسيت قاعدة عدم التطرق إلى أجزاء هبة.
فقالت هبة:

-هم يسهرون للحفاظ على أجورهم. والقادة منهم يسهرون لكتابة أمجادهم. هم لا يدافعون عني. أتعلم أنه يموت عشرة من المدنيين في العالم ليموت عسكري واحد. أنا أيضا أقرأ وأطالع الكتب. ولست نجمة مدللة جاهلة كما يظن بعض الأغبياء.
أراد وائل أن يكبح جماح أعصابها فقال بجدية هذه المرة:
-أتعلمين يا هبة أن أروع الأفلام التي نورت تراث الإنسانية كانت أفلاما تتناول الحروب والمعاناة التي كابدتها هته الإنسانية أثناء هذه الحروب. مما يجعل من لم يعشها يشعر بأهوالها فيتمنى عدم حصولها. وقد يكون هذا المشاهد لتلك الأفلام عنصرا مقررا. فتجعله يساهم في اختيار القرارات المناهضة للحرب؟ أنا احترم فنك يا هبة. إنه فن ينشر السلام في الأرض. أنت حمامة سلام ياهبة. –أقصد أنت وكل الفنانين- تنامين في فراش من الياسمين. وتحومين حول العشب الأخضر. وتطربك ألوان الأزهار الآسرة فتترجمينها إلى لحن يطرب الآذان الصماء. وترفرفين في الأجواء برشاقة فتلهمين النفوس عشق الحرية. ولكن لا بد لك في عالمك الوردي من كائن خشن يحميك. وهو الجيش. آسف لأنه بشع أمام عينيك الناعمتين التين تؤثران الأشياء الجميلة فحسب. ولكنه شيء لا بد منه. وآسف أيضا إن كنت قلت أشياء تبدو كأنها مغازلة ولكن كان يجب أن أقولها لكي أقنعك بوجهة نظري.
بقيت هبة مذهولة لفترة. وبدت كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه. حتى أنها كانت تفتح شفتيها الجميلتين لمرات لتتكلم ثم تستسلم بإطباقهما. بل إن خصلات شعرها الذهبي كانت تحرج عينها اليمنى وهو أمر لم تكن تسمح هبة سابقا بأن يحدث طويلا. فلو لم تكن في حالة ذهول لسارعت لإبعاد خصلات شعرها بعنف بأصابعها الرشيقة. بدت هبة وكأنه يتصارع داخلها العديد من الأحاسيس المتناقضة تماما. بدت هبة وكأنها غارقة في حيرة عميقة. لكنها في النهاية قررت أن تترك خصلات شعرها تنوس حول عينها. ورأت أن ذلك ليس بالأمر المزعج جدا. فما يحدث داخلها أهم وأخطر. ولم تكن أصابعها الرشيقة هذه المرة تمسك شعرها هي بل كانت تمسك ناصية وائل. واستطاعت أن تفتح شفتيها الجميلتين هذه المرة وأن تقول:
-وائل. آسفة إن كنت قسوت عليك.
ونظرت إلى وائل تلك النظرة.
صحيح أن وائل هو زير نساء وأسير للجمال. لكنه يحب المغازلة الطريفة التي يقضي الطرفان أثناءها وقتا ممتعا والتي لا تنتهي بمآس. وهته النظرة تنذر أن مأساة توشك على الوقوع. مما جعل وائلا يندم على لهوه القاتل. لهوه بقلوب الحسان. فقرر وضع حد للأمر. فطوقها بذراعه وضمها إليه وقال لها:
-لا بأس يا هبة. بل أنا من يعتذر.
همت أن تتكلم. فوضع إصبعه على شفتيها وهمس:
اسسسسسس. لا بأس.
وترك رأسها تميل على كتفه. وأغمض الصغيران عينيهما في حزن وقد تشبثا ببعضهما. وفي أثناء ذلك كان القطار ينهب الأرض متجها إلى تل الياسمين.